

إيزابيل الليندي

ترجمة:
مارك جمال

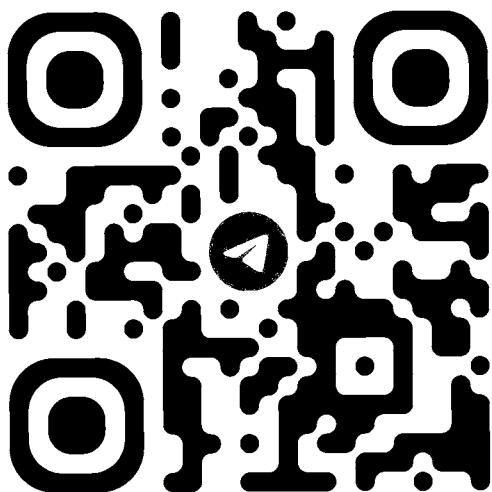
رواية

مكتبة

العمر ٩ سنوات

الريح تعرف اسمي

دار الآداب



سجل في مكتبة
اضغط! الصفحة
SCAN QR

الرَّيْح تعرف اسمي

الرّيح تعرف اسمي

إيزابيل الليندي / روائية تشيلية

ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال

الطبعة الأولى عام 2026

El Viento Conoce Mi Nombre © ISABEL ALLENDE, 2023

ISBN 978-9953-89-796-7

مكتبة

t.me/soramnqraa

دار الآداب للطباعة والنشر

للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة موقعنا:

www.daraladab.net

يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكتروني:

info@daraladab.net

rana.adab@gmail.com

Facebook: Dar Al Adab

Instagram: @daraladab

Twitter: @DarAlAdab

إيزابيل الليندي

مكتبة

t.me/soramnqraa

الريّح تعرف اسمي

ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال

رواية

دار الآداب بيروت



إلى لوري بارا وساره هيلشيم
لأنَّ لكلُّ منهما قلبًا رحيماً.

«إليك سرّي، الذي يستحيل أن يكون أسهل ممّا هو عليه؛ لا يرى المرء بصفاء ما لم يرَ بقلبه. لأنّ الأشياء الجوهريّة خفيّة عن العيون».

أنطوان دو سانت إكزوبيري، «الأمير الصغير»

«هناك نجمةٌ يعيش فيها الناس والحيوانات كلّهم سعداء. وتلك النجمة أفضل من السماء، لأنّ المرء ليس مضطّرّاً إلى الموت حتى يذهب إلى هناك».

آنيتا دياس

آل الدر

فيينا، نوفمبر - ديسمبر، 1938

مكتبة

t.me/soramnqraa

جاء الهواء مُحمَّلاً بنذير كارثة. منذ الصباح الباكر، هبَّت ريح الريب على الشوارع، وانطلقت تصفُّر وسط الأبنية وتتسلَّل عبْر ثغرات الأبواب والنوافذ. «لقد أتى الشتاء»، غمغم رودلف أدلر مُشجَّعاً نفسه، وإن لم يجد في الطقس أو التوقيت ما يفسِّر تلك الغصّة التي يحسّ بها في صدره منذ شهور.

علق الخوف بأنف رودلف أدلر كرائحة الصدا والنفائات، فلم يخفّف منه تبغ الغليون ولا عطر الغسول الحمضيّ الذي يدهن به ذقنه بعد الحلاقة. في مساء ذلك اليوم عجز عن التنفُّس مُختنقاً برائحة الخوف التي أثارته العاصفة. أحسّ بدوارٍ وغثيان، فاتَّخذ قراره بأن يصرف المرضى الذين يترقّبون دورهم ثم يغلق العيادة مُبكِّراً. مُتفاجئة، سأله المساعدة إن كان مريضاً، علماً أنَّها تعمل معه منذ أحد عشر عاماً

لم يحدث خلالها أن تنصّل الطبيب من واجباته، وهو الرجل المنتظم الذي يلتزم بمواعيده. «لا شيء ذو أهميّة، إنّه مُجرّد زكام يا فراو⁽¹⁾ غولدبرغ. أنا ذاهبٌ إلى البيت»، أجابها. فرغا من ترتيب العيادة وتطهير الأدوات، ثم ودّع كلّ منهما الآخر عند الباب كعادتهما كلّ يوم، فلم يرتب أحدهما في أنّهما لن يلتقيا مرّةً أخرى. توجّهت فراو غولدبرغ إلى موقف الترام، بينما قطع رودلف أدلر المربّعات السكنيّة القليلة التي تفصل بينه وبين الصيدليّة، سائرًا بخطى حثيثة، دافئًا رأسه بين كتفيه، وقد أمسك القبّعة بإحدى يديه والحقيبة بالأخرى. ما زال الرصيفُ رطبًا والسماء مُلبّدة. قدّر رودلف أنّ رذاذًا خفيفًا قد تساقط، وأنّ وابلًا من أمطار الخريف - التي طالما فاجأته بلا مظلة - سوف ينهمر في وقتٍ لاحق. سبق له أن قطع تلك الشوارع آلاف المرّات، وحفظها عن ظهر قلب، ولكنّه لم يتوقّف يومًا عن الاعتزاز بمدينته، التي تُعدّ واحدةً من أجمل مدن العالم، بتناغم الأبنية المُشيّدة على طراز الباروك والآرت نوفو، والأشجار المهيبة التي بدأت أوراقها في التساقط، كما لم يكفّ عن الاعتزاز بميدان الحيّ الذي يسكن فيه، وتمثال الفارس على صهوة الجواد، وواجهة المنخبز حيث تُعرّض الحلويات، وواجهة متجر التحف الحافلة بالأشياء المثيرة للفضول. أمّا في تلك المرّة، فلم يرفع عينيه عن الأرض. بل إنّه مضى مُثقلًا بحمل العالم كلّهُ على عاتقه.

يومذاك بدأت الشائعات المُنذرة تبثّ خبر واقعة الاغتيال التي حدثت في باريس: حيث تعرّض دبلوماسيّ ألمانيّ للاغتيال بخمس رصاصاتٍ على يد شابٍّ يهوديّ بولنديّ. بينما انطلقت مكبّرات الرايخ الثالث تهدر مناديةً بالانتقام.

1 - فراو: «سيدة» باللغة الألمانيّة. (الهوامش الواردة كلّها للمترجم)

منذ شهر مارس، حين أعلنت ألمانيا ضمَّ النمسا واصططت قوات
 الفيرماخت النازية في قلب فيينا بمهابتها العسكرية وسط هتافات الحشود
 المفعمة بالحماسة، عاش رودلف ألدر مُثَقَّلًا بالقلق. بدأت مخاوفه قبل
 أعوام، ومضت تشتدَّ كلما ازداد نفوذ النازيين بفضل تمويل هتلر والأسلحة
 التي زوَّدهم بها. اتخذ النازيون الإرهاب سلاحًا سياسيًا، مُستغلِّين مشاعر
 السخط - وبخاصة وسط الشباب -، تحت وطأة المشكلات الاقتصادية
 التي بدأت مع الكساد العظيم في عام 1929، فضلًا عن مذلة الهزيمة
 في الحرب العالمية الأولى. عام 1934 اغتيل رئيس الحكومة، المستشار
 دولفوس، في محاولة انقلاب باءت بالفشل. ومنذ ذلك الحين أُغتيل
 ثمانمائة شخص في هجمات إرهابية شتى. رَوَّع النازيون معارضيهم
 وأثاروا الشغب وهَدَّدُوا بإشعال فتيل الحرب الأهلية. وفي مُستهلَّ عام
 1938، بلغ العنف في الداخل حدًّا لا يُحتمل. أمَّا على الجانب الآخر من
 الحدود، فلقد مارست ألمانيا ضغوطًا شديدة حتى تجعل النمسا مُجرَّد
 مقاطعة تابعة لها. وعلى الرِّغم من التنازلات التي قدَّمتها الحكومة رضوخًا
 للمطالب الألمانية، فلقد أمر هتلر بالاجتياح العسكري. كان الحزب النازي
 النمساوي قد مهَّد الطريق، فلم تجد القوات المُحتلَّة أدنى مقاومة، بل
 إنَّ الغالبية العظمى من الشعب قد استقبلتهم بحفاوة. أعلنت الحكومة
 استسلامها. وبعد يومين جاء هتلر بنفسه، ودخل إلى فيينا مُنتصرًا. أحكم
 النازيون سيطرتهم المطلقة على الأرض. وجُرِّمَت المعارضة بأشكالها كافة.
 وسرعان ما دخلت القوانين الألمانية حيز التنفيذ، ومعها جهاز الغِستابو
 القمعي، والقوات الوقائية النازية، والتطرُّف في معاداة السامية.

أدرك رودلف أنَّ زوجته راشيل تكاد تشلَّ من فرط القلق، وتعجز
 عن المضي قدمًا إلا بالأدوية، مع أنَّها آخر من يتخيَّل المصائب قبل
 وقوعها، وعلى الرِّغم من الحسَّ العقلاني العملي الذي تميَّزت به فيما

مضى. سعى الأبوان إلى الحفاظ على ابنهما صامويل بريئاً غافلاً عما يحدث، ولكنه كان ناضجاً كالكبار مع أنه على مشارف السادسة من العمر. مضى صامويل يراقب وينصت ويستوعب الأمور من دون سؤال. في البدء قدّم رودلف إلى زوجته المهدّئات التي يصفها لبعض مرضاه. ثم اضطرّ إلى تعزيز العلاج بقطرة شديدة المفعول، يتلقاها في قوارير داكنة خالية من الملصقات، لأنّ المهدّئات فقدت تأثيرها شيئاً فشيئاً. كان يحتاج إلى تلك المهدّئات بقدر ما احتاجت إليها زوجته، وإن لم يتمكن من تناولها لأنها قد تؤثر على قدراته المهنية.

حصل على تلك القطرة سرّاً من بيتر شتاينر، مالك الصيدلية الذي جمّعته به صداقة ممتدّة منذ أعوام طوال. لم يأتمن شتاينر على صحّته وصحة وعائلته طبيباً سوى أدلر. ولم يكن لأيّ من مراسيم السلطات التي حظرت العلاقة بين الأريئين واليهود أن تؤثر على المودّة التي جمعت بينهما. وعلى الرّغم من ذلك، فلقد اضطرّ شتاينر إلى تجنّبه في العلن خلال الشهور الأخيرة، لأنّه لا يستطيع أن يتحمّل المشكلات التي قد تطرأ بينه وبين لجنة الحيّ النازيّة. مع أنّهما قد لعبا في الماضي ألفاً من مباريات البوكر والشطرنج، وتقاسما الكتب والصحف، ودّرّجا على السفر إلى الجبال أو الخروج في رحلات صيدٍ هرباً من الزوجتين - كما قالوا صاحكَيْن -، وهرباً من سرب الأبناء في حالة شتاينر. أمّا الآن، فلم يعد أدلر يشارك في مباريات البوكر في مخزن صيدليّة شتاينر. بل إنّ الصيدلانيّ بات يستقبله من الباب الخلفيّ، ويناوله الدواء سرّاً من دون أن يدوّنه في دفتر الحسابات.

قبل ضمّ النمسا إلى ألمانيا، لم يسبق لبيتر شتاينر أن ارتاب في أصل آل أدلر قطّ، وإنّما كان يعدّهم من النمساويين مثله. لم يجهل أنّهم من اليهود، شأن مئة وتسعين ألفاً من سُكّان البلد، ولكنّ ذلك لا يعني شيئاً. كان لا أدريّاً. أمّا المسيحيّة التي نشأ في ظلّها فلقد وجدها تفتقر

إلى العقلانيّة شأن باقي الأديان. كما عرف أنّ رودلف أدلر مثله، مع أنّه يمارس بعض الطقوس الدينيّة مراعاةً لزوجته راشيل التي حرصت على تنشئة ابنها صامويل على تقاليد المجتمع اليهودي. جرّت العادة على دعوة آل شتاينر إلى الشبات كلّ أسبوع في بيت آل أدلر، حيث تعني راشيل ونسيتها ليا بأدقّ التفاصيل: أفخر المفارش، الشموع الجديدة، وصفة السمك المُتوارثة عن الجدّة، أرغفة الخبز، النبيذ... نشأت صلة وثيقة بين راشيل ونسيتها ليا، التي ترمّلت وهي في مقتبل العمر، ولم تنجب أبناء، فتوطّدت علاقتها بأسرة أخيها الصغيرة. أصرت على أن تعيش وحيدة، رغم توسّلات راشيل حتى تنتقل إلى بيتهم. ولكنّها أكثرت من الزيارات. كانت اجتماعيّة جدًّا، وشاركت في عدّة برامج في المعبد لمساعدة أعضاء المجتمع الأشدّ احتياجًا. لم يبقَ لها من الأشقّاء سوى رودلف، منذ هاجر أصغرهم إلى مستوطنة في فلسطين. لم يكن لها سوى ابن شقيق واحد، هو صامويل. كان رودلف يترأس مائدة الشبات كما يُتوقع من ربّ الأسرة، ويضع يده على رأس صامويل مُبتهلاً إلى الرّب حتى يباركه ويشمله بالحماية وينعم عليه بالسلام. في أكثر من مناسبة، ضبّطت راشيل زوجها وهو يغمز بعينه لبيتر شتاينر. تغاضت عن الأمر اعتقادًا منها أنّه لا يفعل ذلك على سبيل الاستهزاء، بل إنّها مُجرّد لفتة من لفتات التواطؤ بين هذين الرجلين عديمي الإيمان.

انتمى آل أدلر إلى الطبقة البرجوازيّة العلمانيّة المُثقفة التي ميّزت المجتمع الراقي في مدينة فيينا بوجه العموم، ولا سيّما اليهود منهم. أوضح رودلف لبيتر أنّ شعبه قد تعرّض للاضطهاد والملاحقة والطرْد من كلّ مكانٍ طوال قرون، ما جعلهم يقدّرون التعليم أكثر كثيرًا ممّا يقدّرون الممتلكات المادية. فمن الوارد أن تُنتزع منهم مقتنياتهم كلّها، كما حدث مرارًا وتكرارًا على مرّ التاريخ. أمّا التأهيل الفكريّ،

فلا يملك أن يسلبك إياه أحد. ولذا، فإن لقب دكتور أعظم شأنًا بكثير من ثروة في البنك. وُلِدَ رودلف لعائلة من الحرفيين التي تباهت بأن يوجد وسطهم طبيب، تلك المهنة التي أسبغت عليه وجاهة وسلطة، وإن لم يُترجم ذلك إلى عائِدٍ ماديٍّ في حالته. لم يكن رودلف أدلر واحدًا من الجراحين الذين ذاع صيتهم في جامعة فيينا العتيقة. بل إنه مُجرّد طبيب في أحد الأحياء، مجتهد، سخي، يعالج نصف مرضاه بالمجان.

قامت الصداقة التي جمعت بين أدلر وشتاينر على أوجه التشابه والقيم المُشتركة الضاربة في العمق بينهما: فكلاهما يتّسم بفضولٍ شرهٍ للعلم، ويحبّ الموسيقى الكلاسيكيّة، ويقرأ بنهم، ويؤيّد الحزب الشيوعي سرًّا، ذلك الحزب المحظور منذ عام 1933. أضف إلى ذلك مشاعر النفور الدفينة التي أضمرها كلاهما «للحزب الاشتراكي الوطني»⁽¹⁾. منذ أعلن أدولف هتلر نفسه ديكتاتورًا مطلقَ السلطة، بعد أن كان مستشارًا، صارا يلتقيان في مخزن الصيدليّة، حيث يتحسّران على العالم والقرن الذي قُدّر لهما العيش فيه، ويتعزّيان بكأسٍ من البراندي قادرٍ على تحليل المعادن، كان الصيدلانيّ يقطّره في القبو، ذلك السرداب مُتعدّد الأغراض، حيث يحتفظ بالمستلزمات الضروريّة لإعداد وتعبئة كثيرٍ من الأدوية التي يبيعها مُرتبّةً على أكمل وجه. في بعض الأحيان، كان رودلف أدلر يصحب ابنه صامويل إلى ذلك القبو حتى «يعمل» مع شتاينر، فيمضي الطفل ساعاتٍ وهو يتسلّى بمزج المساحيق والسوائل المُلوّنة التي يزوّده بها الصيدلانيّ، ثم يعبّئها في القوارير، ذلك الامتياز الذي لم يحظَ به أيُّ من أبناء الصيدلانيّ نفسه.

1 - «الحزب الاشتراكي الوطني»: الحزب النازي.

كان شتاينر يحسّ بألم ثاقبٍ في أعماق الروح كلّما صدر قانونٌ جديدٌ يهدف إلى سحق كرامة صديقه. حتى إنّه قد اشترى منه مقرّ العيادة والشقّة صوريّاً، تجنّباً للمصادرة. جاء موقع العيادة في مكانٍ مُتميّزٍ بالطابق الأرضيّ من أحد الأبنية الفاخرة، بينما سكن رودلف أدلر وأسرته في الطابق الأوّل. كان الطبيب قد أودع رأس ماله كاملاً في تلك الممتلكات. أمّا تسجيل الملكية باسم شخصٍ آخر، وإن يكن صديقه بيتر، فيعدّ إجراءً استثنائيّاً، اتّخذه من دون الرجوع إلى زوجته، وإلّا ما كانت راشيل لتقبل قطّ.

حاول رودلف أدلر أن يقنع نفسه بأنّ هستيريا معاداة الساميّة سوف تهدأ عمّا قريب. لأنّ ليس لها مكاناً في فيينا، أرقى مدن أوروبا، ومهد الموسيقيّين والفلاسفة والعلماء العظام الذين يكثر اليهود وسطهم. أمّا خطاب هتلر التحريضيّ، الذي اشتدّ حدّةً في الأعوام الأخيرة، فكان مُجرّد مظهرٍ آخر من مظاهر العنصريّة التي تكبّدها أسلاف رودلف أدلر، وإن لم تمنعهم من التعايش والازدهار. رفع رودلف أدلر اسمه عن باب العيادة على سبيل الاحتياط، الأمر الذي لا يعدو أن يكون عائقاً هيئناً، مع الأخذ في الحسبان أنّه قد شغل ذلك الموقع لأعوامٍ طوال، وبات معروفاً. انخفض عدد المُتردّدين إلى العيادة لأنّ المرضى الأريّين قد اضطُرّوا إلى التخلّي عنه. ولكنّه افترض أنّهم سوف يرجعون متى هدأت النفوس في المدينة. وثق في قدراته المهنيّة وسُمعته المُستحقّة بجدارة. وعلى الرّغم من ذلك، فبمضيّ الأيام وتصاعد التوتّر الذي عمّ الأجواء، بدأ رودلف أدلر يقلّب في رأسه فكرة الهجرة إلى مكانٍ آخر هرباً من عاصفة النازيّين العاتية.

وضعت راشيل أدلر في فمها قرصاً، ثم ابتلعتّه من دون ماء وهي تنتظر أن تتلقّى باقي النقود في المخبز. ارتدّت آخر صيحةٍ من الثياب،

بدرجات البنّي والخمريّ: سترّة مُحكّمة الشّد عند الخصر، وقبعة مائلة، وحذاء بكعب عالٍ فوق جورب من الحرير. كانت جميلة. لم تبلغ الثلاثين من العمر بعد، ولكنّ أمارات التّجهم المُرتسِمة على وجهها جعلتها تبدو أكبر بعدة سنوات. حاولت أن تخفي رعدة يديها خلف الأكمام، ومضت تردّ بنبرة خافتة على التعقيبات التي أدلى بها الخبّاز عن عمليّة الاغتيال التي وقعت في باريس.

- ماذا أراد ذلك الفتى الأحمق الذي قتل الدبلوماسيّ؟ وحدهم البولنديّون قد يفعلون شيئًا كهذا! - قال الرجل مُتعبجًا.

جاءت راشيل عائدة من الدرس الأخير مع أفضل طُلابها، الفتى البالغ من العمر خمسة عشر عامًا، الذي درس البيانو على يديها منذ السابعة، وكان واحدًا من القلائل الذين أخذوا الموسيقى على محمل الجد. «أنا أسفة يا فراو أدلر، ولكنك تتفهّمين...»، قالت لها الأمّ قبل الاستغناء عن خدماتها. دفعّت لها ثلاثة أضعاف قيمة الدرس. كادت تعانقها، ولكنها تمالكت نفسها خشية أن تأخذ الأمر على محمل الإهانة. أجل، لقد تفهّمت راشيل. وشعرت بالامتنان لأنّ تلك المرأة قد وفّرت لها عملاً أطول ممّا ينبغي بشهور. جاهدت لتكبح دموعها وتنسحب مرفوعة الرأس. شعرت نحو ذلك الفتى بالمودّة، ولم ينتقص من قدره عندها كونه يفتخر بزيّ «شباب هتلر»: السروال القصير الأسود والقميص البنّي، تحت شعار «الدم والشرف». انضمّ الشباب جميعًا إلى تلك الحركة، الأمر الذي كاد يغدو إجباريًا.

- تصوّري أيّ خطرٍ وضّعنا فيه جميعًا ذلك البولنديّ! هل سمعت ما يُقال في الراديو يا فراو أدلر؟ - ظلّ الخبّاز يخطب.

- نأمل ألا يتعدّى الأمر تلك التهديدات. - قالت.

- فراو أدلر، أسرع بالذهاب إلى بيتك، لأنَّ جماعاتٍ من الشباب تجوب الشوارع وتثير الشغب. لا ينبغي لك أن تخرجي وحدك. سوف يخيم الظلام بعد قليل.

- عمت مساءً، وأراك غدًا. - تلعثمت راشيل وهي تضع الخبز في الكيس وباقي النقود في حقيبة اليد.

ما إن خرجت إلى الشارع حتى تنشقت الهواء البارد ملء صدرها، وحاولت أن تنفض عن رأسها تلك النذر المشؤومة التي تلاحقها منذ مطلع الفجر، قبل أن تسمع الراديو والشائعات المُقلقة التي يتناقلها الناس في الحيّ بوقتٍ طويل. جال في خاطرها أنَّ السحب الداكنة تنذر بهطول الأمطار، وركزت انتباهها في الأشياء التي لم تنجزها بعد. يجب عليها أن تشتري النبيذ والشموع استعدادًا ليوم الجمعة، لأنَّ أخت زوجها سوف تحضر إلى البيت بمناسبة الشبات، كعادتها كلَّ أسبوع، وآل شتاينر أيضًا. حدثها هاجسٌ بأنَّها قد تفقد السيطرة على أعصابها في وسط الشارع، برغم الدواء الذي تناولته قبل قليل. أحسَّت بالاحتياج إلى القطرة، وقررت أن تؤجل التسوق إلى اليوم التالي. وعلى بعد مرتعين سكتيين رأت البناء حيث يقع بيتها، الذي يُعدّ من أقدم الأبنية المُشيّدة على طراز الآرت نوفو الخالص، ويرجع إلى أواخر القرن التاسع عشر. عندما اشترى رودلف أدلر في ذلك البناء شقّةً لأسرته ومكتبًا مُطلًا على الشارع حتى يتّخذ عيادةً لنفسه، كانت تلك الخيوط الطبعيّة والنوافذ والشرفات ذات المنحنيات والزجاج المُعشّق المُزّين برسوم الأزهار تثير حفيظة مجتمع فيينا المحافظ، الذي أُلِف أناقة طراز الباروك. ولكن الآرت نوفو قد فرض نفسه، وسرعان ما أصبح البناء واحدًا من معالم المدينة.

أغوتها فكرة أن تمرّ بالعيادة لحظةً لتلقي على زوجها التحيّة، ولكن ما لبثت راشيل أن صرفت تلك الفكرة عن رأسها لأنَّ رودلف لديه ما

يكفي من المشكلات الخاصة، وهي لا تريد أن تُثقل عليه بتوجُّساتها. أضف إلى ذلك أنَّ صامويل ينتظرها منذ الصباح في بيت عمَّته، ليا أدلر، التي عملت مُعلِّمةً وتطوَّعت للإلقاء الدروس على عددٍ من الأطفال. لم يتخلف صامويل عن باقي الطُّلاب في الدراسة مع أنَّه يصغرهم بعامَين. تعرَّض كثيرٌ من الأطفال اليهود للإساءة في المدرسة، فنسَّقت بعض أمهات المجتمع فيما بينهنَّ لتعليم الصغار في مجالس خاصَّة، بينما تلقَّى الطُّلاب الأكبر سنًّا تعليمهم في المعبد، الشيء الذي خيَّل إليهنَّ أنَّه مُجرَّد إجراءٍ طارئ. مضت راشيل قدمًا حتى تمرَّ بابنها، ولم تلاحظ أنَّ عيادة زوجها مقفلةٌ في تلك الساعة، على غير العادة. كان رودلف يستقبل مرضاه حتى الساعة السادسة مساءً بوجه العموم. باستثناء أيَّام الجمعة، حين يغادر لتناول العشاء قبل الغروب.

ضمت شقَّة ليا البسيطة - على الرِّغم من موقعها المُتميِّز - حجرتين مفروشتين بقطع أثاثٍ مُستعملة، وازدانت بصورٍ فوتوغرافيَّةٍ مُؤطرةٍ لزوجها الذي رحل قبل الأوان وذكريات رحلاتهما معًا قبل أن تصبح ليا أرملة. في الأيام التي تستقبل خلالها الطُّلاب، تنبعث في الهواء رائحة الكعك الذي خرج من الفرن قبل قليل.

التقت راشيل أدلر ثلاث أمهاتٍ أخريات، ذهبن لاصطحاب أبنائهنَّ إلى البيت، ثم بقين هناك لتناول الشاي والإنصات إلى صامويل وهو يعزف «نشيد الفرح». كان المرء ليتأثَّر بمشهد الطفل الذي يتمايل على أنغام الكمان، غافلاً تمامًا عن المشاعر التي يحركها في النفوس وهو يعزف بجسده الهزيل النحيف وركبتيَّه المخدوشتين وشعره الجامح وتركيزه الخلق بالحكماء. ومع النغمات الأخيرة، تفجَّرت موجةٌ صاخبةٌ من الهتاف والتصفيق. استغرق صامويل بضع ثوانٍ حتى استيقظ من

تلك الغيبوبة عائداً إلى حلقة النساء والأطفال. حيّاهم بانحناءٍ سريعةٍ من رأسه، بينما جعلت أمّه تداري ابتسامه الزهو، وهرولت إليه العمّة لتقبّله. كانت مقطوعةً سهلةً نسبياً، تعلّمها الطفل في أقلّ من أسبوعٍ واحد. وعلى الرّغم من ذلك، فلطالما ترك بيتهوفن في النفوس أثراً عظيماً. عرّفت راشيل أنّ ابنها طفلٌ معجزة. ولكنّها تكره التبجّح بصنوفه كلّها، ولذا لم تأتِ على ذكر المسألة قطّ، بل إنّها كانت تنتظر أن يأتي على ذكرها الآخرون. ساعدت صامويل حتى يرتدي معطفه ويحتفظ بالكمان داخل الحقيبة. ثم ودّعت أخت زوجها والأخريات في عجلة، وخرجت عائدةً إلى بيتها، وهي تحسب أنّ الوقت يكاد لا يسعها لوضع الطعام في الفرن قبل موعد العشاء. لم يعد أحدٌ يساعدها في الأشغال المنزليّة منذ شهرين، لأنّ العاملة المجريّة التي عملت لديها أعواماً قد رُحّلت، فلم تتحمّس راشيل للبحث عن عاملةٍ أخرى.

مرّت الأمّ والابن أمام باب العيادة فلم يتوقّفا، وإنّما دخلا إلى بهو البناء الفسيح. أضيئت المصابيح الزجاجيّة المنقوشة برسوم زنابق الماء التي صبغت الأجواء بدرجاتٍ من الأخضر والأزرق. صعدا إلى الطابق الأوّل على الدّرج الفسيح المزدوج. وفي الطريق ألقي كلاهما التحيّة على حارسة العقار، التي تراقب المكان من مقصورتها طوال الوقت. لم تردّ المرأة. ولكنّها قلّما تردّ التحيّة.

كانت شقّة آل أدلر فسيحة، وثيرة، مفروشةً بقطع أساسٍ متينةٍ من خشب الماهوغني، صُنعت لتعيش عمرًا كاملاً، غير أنّها لا تلائم ذلك المعمار ذا الخطوط الخفيفة البسيطة. كان جدّ راشيل بائع تحف، فورثت عنه ذريّته لوحاتٍ وأبسطةً وقطع زينةٍ استثنائيّةً في جودتها، وإن عفا عليها الزمن. تربّت راشيل في رغد، وسعت إلى أن تعيش حياةً كريمة، ولكن مقارنةً بدخول زوجها وعائد الدروس الموسيقيّة بثراء الأجداد ضربٌ من

المحال . تحلّت بالأناقة البسيطة، لأنّها تنفر من البهرجة بقدر ما تنفر من التبجّح، وهي التي عُرِست في قلبها منذ الطفولة المخاطر التي تنطوي عليها إثارة الغيرة في نفوس الآخرين .

في أحد أركان الصالة، بالقرب من النافذة المُطلّة على الشارع، استقرّ بيانو كبيرٌ من طراز بلوتنر، توارثته عائلتها لثلاثة أجيال . مثل ذلك البيانو أداة العمل الخاصّة بها لأنّها تستخدمه مع أغلب طُلّابها، كما أنّه متعتها الوحيدة في أوقات الوحدة . برعت في العزف على البيانو منذ الطفولة . ولكنّها قنعت بدور المُعلّمة في عمر المراهقة، حين أدركت أنّها تفتقر إلى الموهبة اللازمة لتقديم الحفلات الموسيقيّة . أتقنت تعليم البيانو . أمّا ابنها، فلقد نبغ في الموسيقى نبوغاً قلّ نظيره . جلس صامويل إلى البيانو منذ عمر الثالثة، وامتلك القدرة على أن يعزف أيّ لحنٍ بمجرّد الاستماع إليه مرّة واحدة، ولكنّه أثر آلة الكمان لأنّه يستطيع حملها إلى أيّ مكان، حسبما قال . لم تنجب راشيل -أبناءً آخرين، فأودعت صامويل كلّ ما في قلبها من حبّ الأمومة . هامّت به حبّاً، ولم تملك إلّا تدليله، وهو الطفل المحبوب المطيع المجتهد في الدراسة الذي لم يتسبّب في مشكلةٍ واحدة .

بعد مضيّ نصف ساعة سمعت راشيل جلبّة آتيةً من الشارع، فأطلّت من النافذة، والظلام مُقبِل . رأت نصف دزينة من الشباب تظهر عليهم آثار الشُكر . انطلقوا يصرخون بشعارات الحزب النازي، ويسبّون اليهود - مصاصو الدماء ! الملاعين ! القتلّة ! - الأوصاف التي سبق لها أن سمعتها في مرّاتٍ أخرى، وقرأتها في الصحف والمنشورات الألمانيّة . مضى أحدهم يحمل مشعلاً، بينما تسلّح بعضهم بالعصي والمطارق وقطع من المواسير المعدنيّة . أبعدت صامويل عن النافذة، ثم أوصدت الستائر وهمت بالنزول لتنادي زوجها، وإذا بالطفل يتشبّث بتنوّرتها . تعودّ صامويل البقاء وحيداً، ولكنّه بدا مذعوراً إلى الحدّ الذي جعل

أمه تقرّر الانتظار. خفّت الجلبة في الخارج، فافترضت أنّ تلك الشرذمة قد ابتعدت عن المكان. بعد ذلك أخرجت الطعام المُحمّر من الفرن وبدأت تعدّ المائدة. أثبت أن تشغل الراديو، فلطالما كانت الأخبار مروّعة.

استقبل بيتر شتاينر صديقه في مخزن الصيدليّة، حيث تنتظرهما مباراة الشطرنج التي بدأت في الأمسيّة البارحة، وقارورة البراندي التي لم يتبقّ منها أكثر من نصفها. ظلّت صيدليّة شتاينر المعروفة مملوكةً للعائلة نفسها منذ زمن الجدّ الأكبر، في عام 1830، واهتمّ كلّ جيلٍ بالحفاظ عليها في أفضل حال. ما زالت الصيدليّة محتفظةً بالأرفف والطاولات المصنوعة من خشب الماهوجني المنحوت والقطع البرونزيّة التي جيء بها من فرنسا وديزينة من قوارير البلّور العتيقة التي حاول أكثر من جامع تحفٍ أن يشتريها، علمًا أنّها تُقدّر بثروةٍ حسبما قال مالكها. كانت الواجهات المُطلّة على الشارع مُحاطةً بإطارٍ من جدائل الأزهار المرسومة، والأرضُ مفروشةٌ بالبلاط البرتغاليّ الذي بلي قليلًا مع الاستخدام المُستمرّ لأطول من قرنٍ كامل. أضف إلى ذلك الأجراس الفضيّة المُعلّقة فوق الباب التي كانت تعلن عن وصول الزبائن. تراءت صيدليّة شتاينر في غاية الجاذبيّة، إلى حدّ جعلها تتلقّى زيارات السائحين وتظهر في مقالات الصحف وفي واحدٍ من كتب الصور الفوتوغرافيّة باعتبارها رمزًا للمدينة. لفت انتباه بيتر أنّ رودلف أدلر قد وصل مُبكّرًا في أحد أيّام العمل.

- هل حدث لك شيء؟ - سأله.

- لا أدري، أحسّ باختناق. أعتقد بأنني سوف أصاب بنوبة قلبيّة.

- كلاً يا رجل، أنت أصغر من أن تتعرّض لشيء كهذا. إنّهُ التوتّر،

كلّ ما في الأمر أنّك مضغوط. اشرب كأسًا، فالشراب يداوي كلّ شيء.

- أجاوب شتاينر وهو يصبّ له كأسًا مُزدوّجة.

- لم يُعد العيش في هذا البلد ممكنًا، يا بيتر. لقد حاصرنا النازيون. وسوف يُضَيَّق علينا الخناق أكثر فأكثر. يُحظر علينا الدخول إلى بعض المطاعم والمتاجر، ويتلقَّى أبناؤنا التهديدات في المدارس، ونُفصل من وظائفنا الحكوميَّة، وتُصادَر ممتلكاتنا وتجارتنا، ويُحظر علينا أن نمارس أعمالنا أو أن نحبَّ شخصًا من عِرقٍ آخر.

- لا يمكن لهذا الوضع أن يستمرَّ، لا بدَّ أن يتحسَّن قريبًا. - قال بيتر من دون أن يقتنع بكلامه كثيرًا.

- أنت مُخطئ. بل إنَّ الوضع سوف يتردَّى أكثر وأكثر. وحده العمى الاختياريّ قد يسمح للمرء بالظنِّ بأنَّ اليهود قادرون على الاستمرار في العيش بصورة طبيعيَّة. من المستحيل أن نتجنَّب العنف الذي يهدِّدنا. تصدر مراسيم جديدة كلَّ يوم.

- أنا في غاية الأسف يا صديقي! كيف أستطيع أن أساعدك؟

- لقد فعلتَ من أجلي الكثير، ولكن لا يمكنك أن تحميني. يعتبرنا النازيون ورمًا خبيثًا لا بدَّ أن يُستأصل من جسد الأُمَّة. لقد عاشت عائلتي في النمسا طوال ستَّة أجيال! ولكنَّ المهانة التي نتجرَّعها صارت أشدَّ وأشدَّ وطأة. أيَّ شيء قد ينتزعون من بين أيدينا فوق ما انتزعوا؟ الحياة... لم يبقَ لنا سوى الحياة.

- لا أحد يستطيع أن ينتزع منك شهادة الطبيب ولا الأملاك. كانت فكرة جيِّدة أن تكتب العيادة والشقَّة باسمي.

- أشكرك يا بيتر. إنَّك أنت الأخ الذي لم أحظَّ به يومًا. أشعر بقلتي بالغ. لقد انفلت زمام الغرائز الأشدَّ خسة. وهتلر باقٍ في الحكم طويلًا. سوف يحاول السيطرة على أوروبا. أعتقد بأنَّه سوف يدفعنا إلى الحرب. هل تتصوَّر ذلك؟

- حرب أخرى! - قال شتاينر مُتَعَجِّبًا. كَلَّا، سيكون ذلك انتحارًا جماعيًا. لقد تعلَّمنا الدرس من الحرب السابقة. تذكَّر الهول... والهزيمة.
- إننا كبش الفداء، نحن معشر اليهود. نصف معارفي يسعون إلى الهرب. يجب عليَّ أن أقنع راشيل بالرحيل.

- الرحيل؟ إلى أين؟ - سأل شتاينر، في قلق.

- الحصول على تأشيرة إلى إنجلترا أو الولايات المتحدة يكاد يكون ضربًا من المحال. إنهما أفضل الوجهات، ولكنني أعرف عدَّة أشخاص قد غادروا إلى أميركا الجنوبيَّة...

- ولكن كيف ترحل! وماذا أفعل من دونك؟

- أفترض أنني سوف أغادر مؤقتًا فحسب. أضف إلى ذلك أننا ما زلنا لم نستقرَّ على الرحيل، يجب عليَّ أن أقنع راشيل أوَّلًا. من الصعب أن تقبل مفارقة والدها وأخيها والتخلِّي عن هذه الحياة بعد أعوام من العمل. كما أنه ليس من السهل إقناع أختي ليًا، ولكنني لا أستطيع أن أتركها هنا. مكتبة سُر من قرأ

- رودى، إنه قرار شديد القسوة.

- يجب عليَّ أن أفكر في صامويل. لا يمكن لابني أن يكبر منبوذًا.

- رودى، أتمنى ألا ترحل. ولكنك إن فعلت سوف أعطني بممتلكاتك. ومتى عدت ستجد كلَّ شيء كما هو، في انتظارك.

وبينما هما يحتسيان الكأس الثانية، سمعا جلبة في الخارج. أطلًا من الباب، فوجدا عصابة تجتاح الشارع. انطلق عددٌ من الرجال والفتيان وبعض النساء يهتفون بالتهديدات وشعارات الحزب، مُلوِّحين بالمطارق والعصيِّ وغير ذلك من الأدوات الثقيلة. «إلى المعبد! إلى

الحيّ اليهوديّ!»، صرخ السائرون في الصفوف الأولى. حلّقت بعض الأحجار. سمعا صوت الزجاج المُحطّم الذي لا تخطئه أذن. قُوبِل صوت الزجاج المُحطّم بالهتافات الاحتفاليّة. بينما تراءت تلك العصا وكأنّها حيوانٌ واحد، هائج، يتحرّك في تناغمٍ وفرحٍ قاتل.

- ساعدني حتى أقفل باب الصيدلية! - صاح بيتر شتاينر، ولكنّ رودلف أدلر قد خرج إلى الشارع وانطلق راكضًا في اتّجاه البيت.

وإذا بالذعر يخيم على الليل. استغرقت راشيل أدلر عشر دقائق في تقدير خطورة الموقف، لأنّها قد أوصدت الستائر، فوصل إليها الصخب الآتي من الخارج مكتومًا. ظنّت أنّ ثلّة الفتيان الذين رأتهن من قبل قد عادوا. طلبت من صامويل أن يعزف شيئًا لتصرف انتباهه عمّا يجري، بينما تراءى الطفل وكأنّما قد شلّت أوصاله، وكأنّ هاجسًا قد حدّثه بتلك المأساة التي ما زالت أمّه تأبى الاعتراف بها. وفجأة، اصطدم شيءٌ بالنافذة، فسقط الزجاج على الأرض وقد تحطّم وبات ألف شظيّة. فكّرت أوّل ما فكّرت في تكلفة استبدال تلك النافذة المنحنية ذات الزجاج المشطوف. ولكن سرعان ما انهال على المكان حجرٌ ثانٍ، فتحطّم زجاجٌ آخر وانخلعت الستارة من القضيب المعدنيّ وانسدلت من أحد الأطراف. ومن خلال الزجاج المُحطّم، لمحت رقعةً من السماء الضاربة إلى اللون البرتقاليّ، وتناهت إليها دفقةٌ من رائحة الدخان والشياط. اقتحم الشقّة صخبٌ وحشيٌّ كالريح العاصفة. عند ذلك أدركت أنّ الأمر أشدّ خطورةً بكثيرٍ من مُجرّد ثلّة من الفتيان السكارى. سمعت صيحاتٍ هادرةً وصرخاتٍ مفعمةً بالرعب جاءت مرفقةً بذلك الصوت المُستمرّ، صوت الزجاج المُحطّم. «رودلف!»، صاحت مذعورة. أخذت بذراع صامويل ومضت تجرّه إلى الباب. استطاع الطفل أن يلتقط حقيبة الكمان.

لم يفصل بين العيادة والشقة سوى الدَّرَج الرخاميّ الفسيح والدربزين المصنوع من الخشب والبرونز. وعلى الرَّغم من ذلك، فلم تصل راشيل إلى هناك. لأنَّ تيوبالد فولكر - جارها الذي يسكن بالطابق الثاني، العسكريّ المتقاعد الذي قلَّمَا بادلها أكثر من كلمتَيْن - قد ذهب إلى الرواق مُعْتَرِضاً طريقها، وضمَّها إليه بإحكام. وجَدَت راشيل نفسها وقد ضمَّها ذلك العجوز حادَّ المزاج إلى صدره، ومضى يقول لها شيئاً عصياً على الفهم، بينما هي تقاوم وتنادي زوجها. استغرقت أكثر من دقيقةٍ حتى أدركت أنَّ فولكر يحاول أن يمنعها من النزول لأنَّ جمعاً من الناس قد حطَّم الباب الخشبيّ المنحوت والزجاج المُعشَّق واقتحم البهو بالفعل.

- فراو أدلر، تعالي معي! - أمرها الجار بصوته الحازم الذي يليق بمن يتقن إلقاء الأوامر.

- زوجي!

- لا يمكنكِ النزول! فكّري في ابنك! - ثم دفعها صعوداً على الدَّرَج إلى شقَّته، حيث لم يسبق لراشيل أن وضعت قدماً.

كان بيت فولكر مُطابِقاً لبيت آل أدلر، ولكنَّه لم يبدُ مُشرِقاً أنيقاً مثله، بل إنَّه تراءى كثيباً بارداً خالياً إلا من قطع أثاثٍ عتيقةٍ قليلةٍ وصورتَيْن على أحد الأرفف. اقتادها الرجل إلى المطبخ عنوة، بينما تبعهما صامويل في صمت، مُتَشَبِّهاً بالكمان. فتح فولكر باباً ضيقاً يؤدِّي إلى خزانة المؤن، وأشار عليهما بالاختباء هناك من دون اعتراض حتى يعود إليهما. أوَّصد الباب، فظلَّ صامويل وراشيل هناك واقفَيْن، متعانقَيْن، غارقَيْن في عتمةٍ مطبقة، بمكانٍ في غاية الضيق. سمعا صوت فولكر وهو يجرُّ قطعة أثاثٍ ثقيلة.

- ماذا يجري يا ماما؟

- لا أدري يا حبيبي. ابقْ هادئًا، ولا تُحدِث صوتًا... - همست إليه أمّه.

- لن نجدنا بابا عندما يصل إلى البيت.. - قال صامويل بالنبرة نفسها.

- لن نبقى هنا إلا قليلًا. في البناء بعض الرجال الأشرار، ولكنهم سوف يغادرون سريعًا.

- إنهم نازيون، أليس كذلك يا ماما؟

- بلى.

- ماما، هل كلّ النازيين أشرار؟

- لا أدري يا بني. لا بدّ أن بعضهم طيّبون وبعضهم أشرار.

- ولكنّ الأشرار أكبر عددًا، أعتقد.. - قال الطفل.

كان تيوبالد فولكر في صفوف الجيش بصفته عسكريًا مهنيًا حين قُدِّر له الدفاع عن الإمبراطوريّة النمساويّة المجرية عام 1914. وُلِد تيوبالد فولكر لعائلةٍ من المزارعين، بلا أيّ تاريخٍ عسكريّ، ولكنّه أحرز تفوّقًا في صفوف الجيش. كاد يبلغ من الطول مترًا وتسعين سنتيمترًا. وامتلك من الانضباط والقوّة البدنيّة ما يليق بمن وُلِد للعسكريّة. وإن كان يكتب الأشعار سرًّا، ويحنّ إلى حياةٍ هادئةٍ في الريف، حيث يزرع ويربّي الحيوانات برفقة المرأة التي أحبّها منذ المراهقة. في الأعوام الأربعة التي استغرقتها الحرب، فقد كلّ ما يضيفي على حياته معنى: ابنه الوحيد الذي لقي مصرعه في ساحة المعركة وهو في التاسعة عشرة من العمر، وزوجته المعشوقة التي انتحرت من فرط الأسى. كما فقد الإيمان بالوطن، الذي لا يعدو أن يكون فكرةً ورايةً في خاتمة المطاف.

انتهت الحربُ وهو في الثانية والخمسين من العمر، برتبة كولونيل وقلبٍ كسير. لم يتذكّر السبب الذي حارب من أجله، وإنما وقف في وجه الهزيمة تلاحقه أشباحُ عشرين مليون قتيل. لم يُعد له مكانٌ في أوروبا الخربة آنذاك، حيث تتعفن في مقابر جماعيّة الرفاتُ التي امتزج بعضها ببعض، رفات الجنود والنساء والأطفال والخيول والبغال. ظلّ يجني قوته بالعمل في أشغالٍ غير كريمة لبضع سنوات، مُتحملاً تعاسة الحظّ التي يُمنى بها المُنهزمون، حتى أرغمتَه السنّ والمتاعب الصحيّة على التقاعد. ومنذ ذلك الوقت عاش وحيداً، منشغلاً بالقراءة والاستماع إلى الراديو ونظم الأشعار. كان يخرج مرّةً واحدةً كلّ يومٍ لشراء الصحف والمستلزمات الضروريّة لإعداد الطعام. ما زالت نياشين البطولة مُثبتةً في ثيابه العسكريّة العتيقة التي يرتديها مرّةً واحدةً كلّ عام، في ذكرى الهدنة التي كتبت نهاية الإمبراطوريّة التي حارب من أجلها طوال أربع سنواتٍ مُروّعة. في ذلك اليوم ينفض الثياب العسكريّة ويكويها، ويلمّع النياشين، وينظّف سلاحه، ويفتح قارورةً من شراب أكوافيت، ثم يسكر بانتظامٍ وهو يلعن العزلة. كان واحداً من أبناء فيينا القلائل الذين لم يخرجوا لاستقبال القوّات الألمانيّة بالهتافات يوم ضُمت النمسا إلى ألمانيا، لأنّه لم يجد نفسه في أولئك الرجال الذين يزحفون بالخطوة العسكريّة. ومن واقع التجربة صار يرتاب في الحميّة القوميّة.

في نطاق البناء، تجنّب الكبار ذلك الكولونيل الذي لا يردّ حتى التحيّة. بينما شعر الأطفال بالخوف منه. باستثناء صامويل. كان رودلف وراشيل يقضيان أغلب يومهما منشغلين، كلّ في عمله. أمّا المرأة التي سبق أن تولّت الأشغال المنزليّة فكانت تغادر بيت آل أدلر كلّ يومٍ في الثالثة مساءً. وهكذا صار الفتى يقضي بضع ساعاتٍ وحيداً، مُنشغلاً في واجباته المنزليّة وموسيقاه، ما لم تكن العمّة ليا هناك. سرعان ما

أدرك أن جاره ينزل إلى الطابق الأول حاملاً مقعده، ويجلس في الرواق مُصْغِياً إليه في تكثُّم، كلُّما تدرَّب صامويل على الكمان أو البيانو. ومن دون أن يطلب منه ذلك أحد، بدأ صامويل يترك الباب مشرعاً، ويحرص على العزف بأفضل ما يملك من أجل جمهوره المؤلَّف من شخصٍ واحد، ينصت إليه بصمتٍ مفعم بالاحترام. لم يتحدَّث أحدهما إلى الآخر يوماً. ولكنَّهما كلُّما تقابلا في البناء أو في الشارع يتبادلان إيماءةً في غاية الخفَّة، حتى إنَّ راشيل لم تنتبه إلى تلك الصلة المرهفة القائمة بين ابنها وقولكر.

أوصد الكولونيل الباب على جارته وصغيرها وأخفى خزانة المؤن بطاولة المطبخ، ثم عجَّل بارتداء الزيِّ العسكريِّ الرماديِّ المُرصَّع بمجموعةٍ من النياشين والكتفِيَّات المذهَّبة، ثم وضع على خصره حزام المُسدَّس اللوغر العتيق الذي يعمل على أكمل وجه، ووقف أمام باب شقَّته مُترقِّباً.

استغرق بيتر شتاينر بضع دقائق في إقفال الباب الخشبيِّ وإنزال الستار المعدنيِّ لحماية واجهة الصيدليَّة. ثم ارتدى معطفه وخرج مُهرولاً من الباب الخلفي، مُتأهِّباً لاقتفاء أثر صديقه رودلف. ولكن حتى ذلك الشارع الضيِّق الجانبيِّ لم يخلُ من مثيري الشغب الذين مضوا يطلقون التهديدات. اختبأ من جماعات المعتدين مُتوارياً في مدخل أحد البيوت، حيث ظلَّ مُترقِّباً ريثما يغيبون عن الأنظار عند المنعطف قبل أن يخرج إلى الشارع. كان رجلاً متين البنيان، بشرته مائلةً إلى الحمرة، وشعره أشقر قصير خشن كالفرشاة، وعيناه زاهيتان بشدَّة حتى وكأنَّهما غائمتان، وذراعاها تليقان برافع أثقال، يمكنه التفوُّق بهما على خصمه في أيِّ اختبارٍ للقوَّة. كان لا يهاب أحداً، باستثناء زوجته. ولكنَّه

أَتخذ قراره بأن يتجنَّب عصابة الهمج الخارجة عن السيطرة بمناورة طويلة، وهو يبتهل حتى يكون رودلف أدلر قد فعل الشيء نفسه. ما هي إلا دقائق قليلة حتى أدرك الصيدلاني أنَّ الجوار قد تعرَّض للاجتياح، ولم تُعد هناك طريقة واحدة لتجنَّب الشغب لو أراد الذهاب إلى عيادة صديقه. وهكذا انضمَّ إلى الحشود من دون أن يفكر في الأمر مرتين. دفع أحد الفتيان مُنتزِعاً راية الحزب النازي من بين يديه، فلم يجرؤ على الاعتراض. ترك بيتر شتاينر نفسه لتلك الموجة البشرية التي جرفته وهو يلوح براية الحزب النازي.

وبينما هو يقطع تلك المربَّعات السكنية القليلة، تكوَّنت لدى بيتر شتاينر فكرة وافية عن الفوضى التي عمَّت ذلك الحي الهادئ، حيث يسكن ويعمل جزء من المجتمع اليهودي الكبير في المدينة بحكم التقاليد. لم يبقَ زجاج واحد في المتاجر إلا وتحطَّم، بينما توهَّجت المحارق التي راح مثيرو الشغب يلقون إليها بما طالت أيديهم من البيوت والمكاتب، بدءًا بالكتب وصولاً إلى قطع الأثاث. أمَّا المعبد، فلقد احترق من جوانبه الأربعة ورجال الإطفاء ينظرون إليه بلا اكتراث، ممتنعين عن التدخل ما لم تهدد النيران بأن تمتدَّ إلى أبنية أخرى. رآهم يسحلون رجل دينٍ من قدميه، وقد سالت الدماء على رأسه الذي ارتطم بالأحجار. رآهم يضربون الرجال، ويجردون النساء من الثياب وينتزعون شعرهنَّ، ويصفعون الأطفال، ويدهسون المُسنَّين ويتبولون عليهم. انطلق المُتفرِّجون يشجِّعون المُعتدين من بعض الشرفات. وفي إحدى النوافذ، ألقي أحدهم التحية رافعاً ذراعه اليمنى عاليًا، وفي يده اليسرى قارورة شامبانيا. ولكن أغلب البيوت والشقق ظلَّت موصدة، والستائر مُسدلة.

مذعورًا من ردَّة فعله، أدرك الصيدلاني أنَّ تلك الطاقة الحيوانية التي انتشرت وسط الحشود مُعدية، مُحرِّرة، وأنَّ نزوة الحرق والتدمير

والصياح إلى حدِّ الاختناق قد استحوذت عليه هو أيضًا، وأنَّه يكاد يغدو وحشًا. أقعى في جلوسه خلف شجرة مُحاولًا التقاط أنفاسه والعودة إلى رشدِه، بينما راح يلهث ويتفصَّد عرقًا، وقد جفَّ حلقه واقشعرَّ بدنه تحت وطأة الأدرينالين. «رودي... رودي»، مضى يغمغم ويردّد الاسم بصوتٍ مسموعٍ حتى ساعده اسم صديقه في العودة إلى رشدِه. لا بدَّ له من العثور عليه قبل أن يقع في أيدي العصابة. هبَّ واقفًا، وتابع سيره في حماية الراية والمظهر الأريَّ النقيّ.

وكما كان يخشى بيتر شتاينر، وجد عيادة أدلر قد دُمّرت، وشوّهت جدرانها بالإساءات وشعارات الحزب المرسومة، وانتزع بابها من الأساس، وتحطّم زجاجها بالكامل. تناثرت كلُّ محتويات العيادة في أرجاء الشارع: قطع الأثاث، والأرفف، والمصابيح، والأدوات الطبية، والأوعية. لم يجد لصديقه أثرًا.

استقبل الكولونيل تيوبالد فولكر المُعتدين الأوائل واقفًا بثباتٍ على أعتاب شقّته، عاقدا ذراعَيْه على صدره. مرّت أقل من خمس عشرة دقيقةً منذ حطّموا باب المدخل وانتشروا في طوابق البناء كالجرذان. افترض فولكر أنَّ حارسة العقار أو أحد الجيران قد أبلغ عن اليهود، بل وربّما ترك علامةً على شققهم أيضًا. إذ لاحظ في وقتٍ لاحقٍ وهو يجوب البناء أنَّ المعتدين قد حطّموا بعض الأبواب وتركوا بعضها الآخر بلا مساس. أمّا باب آل أدلر، فلم يُحطّم لأنَّه قد تُرك مُواربًا.

ظهر في الرواق المؤدّي إلى الدَّرَج نصف دزينة من الرجال والفتيان السكارى بالعنف، الذين رفعوا أصواتهم بالشتائم والشعارات وقد لفَّ كلُّ منهم سوار الحزب حول معصمه. وجد أحدهم الكولونيل يقف أمامه وجهًا لوجهٍ في الرواق. ظهر على ذلك الشخص أنَّه هو الذي

يقود الآخرين. كان يحمل ماسورةً من حديد. وإذا به يرفعها عاليًا، مُتَاهِبًا لضرب الكولونيل، ولكنَّ أطرافه قد شُلَّت للحظةٍ أمام ذلك العجوز العملاق صاحب الزيِّ العسكريِّ العتيق، الذي أخذ يرمقه بعينيَّه من أعلى إلى أسفل بمظهرٍ يشي بالسلطة.

- يهودي؟ - سأل نابحًا.

- كلاً. - أجاب فولكر من دون أن يرفع صوته.

وفيما هما على تلك الحال، تعالت صيحات الآخرين المفعمة بالإحباط لأنَّهم لم يعثروا على سُكَّان شقة آل أدلر. ظهر على الدَّرَج رجلان مُتقدَّمان في العمر بعض الشيء. وقفا في وجه فولكر.

- كم يهوديًا يعيش هنا؟ - سأله أحدهم.

- لا أدري.

- أفسح الطريق، سوف نفثَّش شقتك!

- وبأيِّ سلطة؟ - سأل الكولونيل رافعًا يده إلى حزام المسدس اللوغر.

تساور الرجال فيما بينهم سريعًا، ثم استقرُّوا على أنَّ ذلك العجوز لا يستحقَّ العناء، فهو من الجنس الأريِّ مثلهم، ومُسَلَّحٌ أيضًا. نزلوا إلى شقَّة آل أدلر لمساعدة الباقين في تخريب كلِّ ما طالته أيديهم، بدءًا بالخزف وصولًا إلى قطع الأثاث، وإلقاء كلِّ ما يحلو لهم من النوافذ. تعاون عددٌ منهم على سحب البيانو إلى الشرفة بنيةِ إلقائه إلى الشارع، ثم اتَّضح أنَّه أثقل من المُتوقَّع فاستقرُّوا على نزع أحشائه.

استمرَّ التخريب دقائق قليلة، ولكنَّ آثاره كانت مدوِّية، وكأنَّ قنبلةً يدويَّةً قد انفجرت في المكان. وقبل الانسحاب من الشقَّة أفرغوا حاوية القمامة فوق الأسيرة، ومزَّقوا قماش الأثاث بالسكاكين، وسرقوا قطع الفضَّة

التي تعتزّ بها راشيل أدلر. وأخيرًا سكبوا الوقود على البساط وأشعلوا النار فيه. ثم اندفعوا إلى الشارع حيث اختلطوا بالجموع المُتوحّشة.

انتظر الكولونيل وقتًا كافيًا حتى يتأكّد أنّهم قد ذهبوا، ثم نزل إلى بيت أدلر المنهوب. تأكّد له أنّ النار ما زالت مُنحصِرةً في البساط. وبالدفّة والهدوء المعهودَيْن فيه، التقط طرف البساط وطواه حتى يخنق ألسنة النار. ما لبث أن تناول بضعة أغطية من حجرة نوم، وضغطها فوق البساط حتى يتأكّد أنّه لن يستمرّ في الاحتراق. ردّ مقعدًا مقلوبًا على الأرض إلى مكانه، ثم جلس وهو يجاهد حتى يلتقط أنفاسه. «لم أعد الرجل الذي كنته»، غمغم أسيفًا لمضيّ الأعوام.

مكث هناك مُنتظرًا ريشما يهدأ الطبل الذي يدوي في صدره، وأخذ يقدر الموقف الذي كان أسوأ كثيرًا مما قد خُيّل إليه قبل ساعات، حين سمع عبّر الراديو نداءً للتظاهر ضدّ مؤامرة اليهود. باسم هتلر، أعلن وزير البروباغندا الألمانيّ أنّ الحزب لن ينظّم المظاهرات ردًا على اغتيال الدبلوماسيّ في باريس، ولكنّه سوف يسمح بها. وقال إنّ مشاعر السخط التي عمّت الشعبين الألمانيّ والنمساويّ مُبرّرة تمامًا. كانت تلك دعوةً إلى النهب، والتخريب، والمذبحة. خلص الكولونيل إلى أنّ تلك الحشود المسعورة، التي بدت لأوّل وهلة وكأنّها عصابة لا تهدف إلى شيء سوى العنف، لم تكن مدفوعةً بنزوةٍ مباغته. بل إنّها قد استعدّت لذلك، وحددت أهدافها، وتمتعت بحصانةٍ مُطلقة. لا بدّ أنّ المعتدين قد تلقّوا تعليماتٍ بالامتناع عن المساس بأملّك غير اليهود، ما يفسّر السبب الذي جعل عمليّات النهب في البناء تقتصر على آل أدلر وآل إيشتين وآل روزنبرغ. لم تنطلي الثياب المدنيّة التي ارتداها أولئك الحثالة على فولكر، فهو يعرف أنّها جماعاتٌ من الشباب أعضاء الميليشيا النازيّة، أولئك الذين فرضوا العنف بوصفه إستراتيجيةً

سياسيَّة في الأعوام الأخيرة، وفرضوا الخوف شكلاً من أشكال الحكم منذ ضُمَّت النمسا إلى ألمانيا.

وبينما هو يستردّ قواه، سمع خطوات في الرواق. وما هي إلا لحظة حتى وجد نفسه وجهًا لوجهٍ أمام رجلٍ يصرخ محمومًا، ويحمل الراية النازيَّة مُلوَّحًا بها كالرمح. «أدلر! أدلر!»، مضى يصرخ ملء صدره، فنهض الكولونيل بشيءٍ من المشقَّة، واستلَّ المسدس اللوغر من غمده.

- مَنْ أنت؟ وماذا تفعل هنا؟ إنَّها شقَّة رودلف أدلر! - انتهره الرجل المجهول.

لم يحر قولكر جوابًا. كما لم يتحرَّك عندما هدَّده الآخر رافعًا صاري الراية على بعد سنتيمترين من أنفه.

- أين هو؟ أين هو أدلر؟ - كرَّر الرجل سؤاله.

- هل لي أن أعرف من يبحث عنه؟ - سأل قولكر وهو ينحني الصاري جانبًا بظاهر يده وكأنَّه يطرد ذبابة.

عند ذاك وحسب، انتبه بيتر شتاينر إلى عمر الكولونيل وإلى زيِّ الحرب الكبرى الذي يرتديه، وأدرك أنَّه ليس ضابطًا نازيًّا. في حين رأى قولكر الرجل الآخر وهو يفلت الراية من يده رافعًا يديَّه إلى رأسه في لفطة يأس.

- أبحثُ عن صديقي... صديقي رودلف. هل رأيته؟ - سأل شتاينر بصوته الذي جاء مبحوحًا من فرط الصراخ.

- لم يكن هنا حين هاجموا الشقة. أفترضُ أنَّه لم يكن في عيادته أيضًا. - أجاب قولكر.

- وماذا عن راشيل؟ وصامويل؟ أتعرف شيئًا عن أسرته؟

- إنَّهما بأمان. لو عثرتَ على دكتور أدلر، فأخبرني. أعيش في الشقة رقم عشرين بالطابق الثاني. أنا الكولونيل المُتقاعد تيوبالد فولكر.

- أنا بيتر شتاينر. لو حضر أدلر، فأخبره بأنني أفتش عنه، واطلبُ منه أن ينتظرني هنا. سوف أعود. تذكّر اسمي، بيتر شتاينر.

عازف الكمان

فيينا، نوفمبر - ديسمبر 1938

لن يعود رودلف أدلر إلى بيته أبدًا، ولن يرى راشيل وابنه صامويل مرةً أخرى. ليلتذاك لم تخيّم العتمة، بين التاسع والعاشر من عام 1938، في ليلة الزجاج المُحطّم. بل إنّ المحارق ونيران الحرائق ظلّت تضيء السماء حتى مطلع الفجر.

حصل بيتر شتاينر على سوارٍ مُزيّن بالصليب المعقوف، وتسَلَّح بشعار الحزب المُمرّق المُلوّث بالغبار والرماد، ومضى يجوب أنحاء الجوار سائرًا في كلّ الاتجاهات ويُعدّ قائمةً في ذهنه لحصر الضحايا والخراب. وأخيرًا، قرب الثالثة فجراً، عرف أنّ بعض سيّارات الإسعاف قد نقلت الحالات الأشدّ خطورة، فاتّجه إلى المستشفى، حيث ادّعى أنّه قائد كتيبة شبه عسكريّة حتى يُسمَح له بالدخول. تكدّس الضحايا في الأروقة، بينما سعى الأطباء والمُمرّضون لعلاج أكبر عددٍ ممكنٍ من المصابين، لأنّهم

لم يتلقوا الأمر بالامتناع عن استقبال اليهود أو الإبلاغ عنهم بعد. وفي ظل تلك الفوضى أخبره أحد الممرضين بأنه لم يصدر سجل رسمي بأسماء الواصلين إلى المستشفى حتى ذلك الوقت، واقترح عليه أن يلقي نظرة في قاعات الطوارئ والأروقة التي تراصت فيها الأسيرة.

مضى شتاينر يجوب القاعات واحدة تلو أخرى، مُستنفذ القوى. وفيما هو على وشك المغادرة والاستسلام، سمع صوت صديقه يناديه. كان شتاينر قد مرّ أمام سريره، غير أنه لم يتعرفه. بينما استلقى رودلف أدلر على ظهره، وقد عُصِبَ رأسه بضمادة مضرّجة بالدماء، وتورّم وجهه بشدة حتى غابت قسماته بين السحجات والجروح والرضوض. كاد يعجز عن الكلام، بأسنانه التي انكسر عددٌ منها. واضطّر شتاينر إلى أن يقرب سمعه من فم المصاب حتى يكشف طلاس تلك المهمة.

- راشيل.

- ششش، رودي، لا تتكلم. أسرتك بخير. استرح، أنت في المستشفى. لقد صرتَ أمنا هنا. - أجاب شتاينر وقد طفرت الدموع من عينيه تحت وطأة الإجهاد والتأثر.

مكث إلى جوار صديقه على مدى الساعات التالية، وهو يهوّم ناعسا، مُستلقيا على الأرض عند أقدام سرير المستشفى، مُنصتا إلى صديقه الذي يئن ويهذي. توقفت إحدى الممرضات مرتين لتتأكد من أنّ المصاب ما زال يتنفس، ولكنها لم تحاول التحقق من هويته ولا ممّا يفعله الرجل الآخر الجالس هناك. اكتفت بالسوار ذي الصليب المعقوف، فلم تسأله عن شيء. نهض بيتر شتاينر مع شروق الشمس بصعوبة بالغة، وقد ألمته عضلات جسده كلها وأحسّ بعطش بالغ وكأنه تائه في الصحراء.

- سوف أخبر راشيل بأنني قد عثرتُ عليك، ثم أعود لأبقى معك حتى يُخلى سبيلك من المستشفى. - قال لصديقه، ولكنه لم يتلقَ ردًّا واحدًا.

وفي بيت آل شتاينر، ظَلَّتْ زوجة بيتر مستيقظةً في انتظاره. حتى هي لم تنم في تلك الليلة، بل إنَّها ظَلَّتْ إلى جوار الراديو الذي أذاع أنَّ اليهود هم الذين قد أثاروا أعمال الشغب. أخبرها بيتر بالحقيقة بين رشفات القهوة الداكنة الممزوجة بالبراندي. وبعد أن اغتسل وارتدى قميصًا نظيفًا، ذهب إلى البناء حيث يسكن آل أدلر، حيث رأى لدى وصوله عددًا من أصحاب الأقمصة البنيّة المُروّعين وهم يشرفون على بعض النساء اللاتي ركن لتنظيف بقع الطلاء والدّماء عن الأرض، بينما راح الفضوليّون يراقبونهنّ مستهزئين. تعرّف السيّد روزنبرغ، التي كانت زبونةً دائمةً في صيدليّته. للحظة، شعر باندفاعٍ تحدّوه إلى التّدخل. وإن طغّت الحاجة الماسّة إلى التحدّث مع راشيل، فتسلّل مُحاولًا ألا يلفت الانتباه.

تحطّم زجاج مدخل البناء، كما رُسِمَت على الجدران صلبانٌ معقوفةٌ سوداء بفرشاة الطلاء. ولكن الآن يجري العمل على كنس الأرض. كما حضر فتّي لقياس أبعاد الزجاج تمهيدًا لاستبداله. وفي طريقه إلى أعلى، تأكّد لبيتر أنَّ الشقّة المقابلة لشقّة آل أدلر في الطابق الأوّل قد انبجج بابها وبقي مُعلّقًا من مفصليّة واحدة. ألقي نظرةً إلى الداخل، فوجد أنّها قد تعرّضت للنهب أيضًا. وفي الشقّة رقم عشرين بالطابق الثاني، استقبله تيوبالد فولكر حليق الذقن، مُبلّل الشّعر، وقد ارتدى زيّه العسكريّ المُرصّع بالنياشين.

- لا بدّ أن أتحدّث إلى السيّد أدلر. - قال له شتاينر.

- أخشى أن ذلك غير ممكن . - أجاب الكولونيل ، الذي لم يُبدِ أدنى استعدادٍ لأن يقدم تلك المعلومات إلى أحدٍ كائنًا من كان، دُعُ عنك أن يقدمها إلى الرجل الذي كان يلوح بالراية النازية في الليلة البارحة.

- أتعرف مكانها؟ - ألح شتاينر في السؤال .

- لا أستطيع أن أخبرك بذلك .

- اسمع، سيّدي ... أعني، كولونيل، يمكنك الوثوق بي . أعرف رودلف أدلر منذ قرابة عشرين عامًا، وأنا أعزّ أصدقاء الأسرة . بل إنَّ صامويل عندي في منزلة الابن . لا بدّ أن أتحدّث إلى راشيل . زوجها في المستشفى، ولقد تعرّض لإصابة خطيرة .

- سوف أبلغها بالرسالة، ولكنني لا أدري ماذا يمكنها أن تفعل في ظلّ الوضع الراهن . - أجاب الرجل العسكري .

- أخبرها بأن تستعدّ للهجرة في أقرب وقتٍ ممكن . يجب عليهم أن يسافروا إلى خارج البلاد حالما تتمكّن من إخلاء سبيل رودلف من المستشفى . لقد رحل آلاف اليهود، وحتى رودلف كان يخطّط لذلك . لا أحد بمأمنٍ هنا بعد ما جرى ليلة أمس . لا بدّ لهم من الرحيل، فمستقبل صامويل رهنٌ بذلك . أتفهمني؟
- أفهمك .

- كولونيل، يجب عليك أن تقنعها . راشيل ترتبط بأبيها وبيتها ارتباطًا شديدًا، ولكنها صارت مسألة حياةٍ أو موت . أوكد لك أنّني لا أبالغ .

- لا حاجة إلى أن تخبرني بذلك يا سيّد شتاينر .

- وأخبرها بأنهم لن يخسروا الشقة ولا العيادة. راشيل لا تعرف ذلك، ولكن الشقة والعيادة قد سُجِّلا باسمي، ولم يُعد من الممكن أن تصادهما السلطات.

عاد شتاينر إلى المستشفى. وفي وضح النهار، ظهر الخراب بكلّ أبعاده. تراءت الشوارع مفروشة بالنفايات والزجاج المُحطَّم والأنقاض، وظلّ الجمر مشتعلًا في المحارق وبقايا الحرائق، وبدت كسور هائلة في واجهات المتاجر والبيوت التي تعرّضت للهجوم بالمطارق. أمّا أفراد جهاز الأمن فلقد داهموا البيوت واحدًا تلو آخر، ومضوا يعبثون سيّاراتهم بالوثائق والملفات التي صُوِّدَت من المكاتب والمعابد قبل إضرام النار فيها. كما صدر أمرٌ بترحيل الرجال اليهود. واصطفّت طوابير طويلة من السجناء في طريقها إلى الشاحنات التي أقلتتهم في وقتٍ لاحقٍ إلى معسكرات الاعتقال، بينما ودَّعتهم عائلاتهم بالبكاء على الأرصفة. لزم أغلب الناس بيوتهم، وإن لم يعدم الأمر أولئك الذين راحوا يبصقون على موكب المُعتقلين أو يسبّونهم، مدفوعين إلى ذلك إمّا بالكراهية العرقية وإمّا بالرغبة في التودّد إلى النازيين.

وصل شتاينر إلى المستشفى، فوجد الوضع قد تبدّل. إذ حلّ الانضباط العسكريّ محلّ الفوضى التي سادت في الليلة البارحة، ولم يُعد أحدٌ يدخل أو يخرج إلّا من خلال نقاط التفتيش. شرعت السلطات في إعداد قائمةٍ بالجرحى، وتحديد اليهود الذين ما زال في وسعهم الوقوف على الأقدام تمهيدًا لترحيلهم مع الباقين. لم يتحقّق من وجود رودلف أدلر وسطهم، ولكنّه افترض أنّ إصاباته لا تسمح بالنقل.

في الأيّام التالية عادت الحياة إلى مسارها الطبيعيّ بدرجةٍ ما. وإن ترك ذلك الحفل الصاخب، حفل النار والدماء، شعورًا بالخزي بين

سُكَّانَ فيينا. أرغم المجتمع اليهودي على تسديد ثروة تعويضًا عن «خسائر الأمة الألمانية». أمّا عقاراتهم وغيرها من الممتلكات فمنها ما خضع للمصادرة ومنها ما استحوذ عليها الآريون، مثلما كان يخشى رودلف أدلر. كما أُغْلِقَتْ متاجر اليهود ومكاتبهم ومدارسهم. وعجز الأطفال عن الالتحاق بمدارس أخرى. وحين ذاع الخبر القائل بإمكانية الإفراج عن المحتجزين في معسكرات الاعتقال بشرط الهجرة الفورية إلى خارج البلاد، امتدّت طوابير دائمة، طوال الليل والنهار، أمام المكاتب المدنية والقنصليات، للحصول على جوازات السفر والتأشيرات. رحلت آلاف وآلاف العائلات بعد أن انتزع منها كل شيء إلا محتويات حقيبة سفر واحدة.

تلقت راشيل أدلر تحذيرًا من الذهاب إلى المستشفى للسؤال عن زوجها، وإلا فربما أُلْقِيَ القبض عليها. ولذا اضطررت إلى تفويض بيتر شتاينر وزوجته اللذين تناوبا على زيارة المستشفى مرّتين كل يوم وتعبئة الاستمارة نفسها لرؤية المصاب، ولكن سدى. لم تحاول تنظيف الفوضى التي سادت بيتها، فوضى السفينة الغارقة. ولكنها أخذت الأشياء الضرورية التي لا غنى عنها، ثم أحكمت إغلاق المكان، وانتقلت مع ابنها إلى شقة فولكر بصفة مؤقتة، لأنها أرادت أن تكون قريبة متى حضر زوجها. عرض عليها السيد والسيدة شتاينر أن تنتقل إلى بيتهما، ولكن لديهما ستة أبناء وجدة، وكلهم مكدسون في بيت صغير. تمكّنت من إقناع ليا بأن تذهب إلى ملاذ أقيم في الريف بترتيب من المعبد، إلى أن يتمكنوا من مغادرة البلد جميعًا. وهناك تبقى في أمان نسبي، لوقت قصير. ولكن الحق أن لا يهوديًا واحدًا كان في أمان.

أصبحت راشيل تمضي يومها من مكتب إلى مكتب، من طابور إلى طابور، في محاولة للحصول على المستندات اللازمة للهجرة،

بينما اعتنى فولكر بابنها صامويل . أمّا الكولونيل العجوز، الذي أمضى سنواتٍ طويلاً في عزلةٍ ويأسٍ وألمٍ، فلقد وجد في ذلك الطفل ذي الموهبة المُبكرة والأعوام الخمسة الحفيدَ الذي كان ليحظى به لو نجا ابنه بحياته من الحرب . تولّى الكولونيل دورَ الجدِّ في جديّةٍ بالغة، حتى إنّه لم يترك الطفل وحيداً لحظةً واحدة . بل إنّه اضطرَّ إلى تغيير عادات الرجل الأرمِل . وفي مسعاه إلى تدليل الصغير تعويضاً له عن الأيّام الأخيرة، وعن الحيرة بشأن مصير أبيه، أخذَه الكولونيل إلى المنتزه والمتاحف والحفلات الموسيقيّة وإلى السينما لمشاهدة «المهرجان البطولي»، ذلك الفيلم الكوميديّ الرومانسيّ الذي لم يفهمه أيُّ منهما . وبدوره حرص صامويل على أن يردَّ له الجميل بمعزوفات الكمان التي أصغى إليها الكولونيل مفتوناً . عرف فولكر أنَّ أيّامه الرائعة مع الصغير معدودة .

بعد المذبحة بأيّامٍ قليلة، عندما لم يُعد هناك أدنى مجالٍ للشك في أنَّ تلك القبضة الحديدية التي أحاطت بأعناق اليهود سوف تخنقهم حتى الموت، جاءت راشيل تحمل خبر حصولها على موعدٍ مع قنصل تشيلي في اليوم التالي .

- تشيلي؟ إنّها بعيدةٌ جدّاً يا فراو أدلر! - صاح فولكر .

- وأيّ خيارٍ نملك سيّدي الكولونيل! إنّه الموعد الوحيد الذي نجحتُ في الحصول عليه . قيل لي إنّ ذلك الموظّف يبيع التأشيرات . ولكنّه لا يقبل النقود، لا يقبل سوى الذهب والحلي . من حسن الحظّ أنّ لديّ خاتم الماس وعقد اللؤلؤ اللذين ورثتهما عن أمّي . أملُ أن يكفي ذلك ...

- سيّديتي، إنّه رجلٌ بلا ضمير . قد يخدعك .

- ولهذا أحتاجُ إليه. هل يمكنك أن ترافقني؟ ارتدِ زيَّ العسكري، فهو لن يجرؤ على العبث معك. سوف أحصل على التأشيرات، ونغادر حالما يعود رودلف.

اتَّفقا على ذلك، ولكن في الليلة نفسها جاء بيتر شتاينر يحمل خبرًا مؤسفًا جديدًا، فأبلغهم بأنَّ رودلف أدلر قد رُحِّل إلى معسكر اعتقالٍ في داخاو.

- لقد اقتيد إلى هناك منذ عدَّة أيَّام، وإن لم نستطع التأكد من ترحيله حتى اليوم. ليس في حالةٍ تسمح له بالنجاة في ذلك المكان. - قال الصيدلاني.

- لا بدَّ من إنقاذه سريعًا! - صاحت راشيل، مذعورة.

- راشيل، لو استطعتم إثبات الهجرة الفوريَّة لبات الأمر أسهل. لا يرغب النازيون في وجود اليهود هنا.

- أملُ الحصول على تأشيراتٍ إلى تشيلي.

- إلى أين؟ - سأل شتاينر، مُتفاجئًا.

- تشيلي، في أميركا الجنوبيَّة.

- قد يستغرق ذلك طويلاً. - تدخَّل فولكر.

- ربما كان عليك أن ترحلي مع صامويل، ولاحقًا نرسل رودلف إلى هناك... - اقترح شتاينر.

- كلاً! لن أذهب إلى أيِّ مكانٍ من دون زوجي.

مرَّت الأيام وضعُف احتمال إنقاذ زوجها، فتزايد شعورها باليأس أكثر فأكثر. ظلَّ وضع اليهود في النمسا يتردَّى ساعةً بعد ساعة، وأبَّت راشيل أن تتخيَّل وضع رودلف. حضرت إلى أوَّل موعدٍ مع القنصل

التشيليّ وهي في غاية الانفعال، حتى اضطرّ فولكر إلى الردّ عن الأسئلة بنفسه.

كانت القنصلية تقع في مكتبٍ كئيب، وسط غيره من المكاتب المتطابقة، في واحدٍ من الأبنية القبيحة القليلة بوسط المدينة. وقف عددٌ من الأشخاص ينتظرون دورهم في مكتب الاستقبال الذي خلا إلا من مقعدين ومكتبٍ للسكرتير، ذلك الرجل ضئيل الجسد، المُتغَطِّس، الذي ينفر من الناس. مرّر فولكر إلى ذلك الرجل بضع أوراقٍ مائيّة، فتمكّنّا من تجاوز الطابور، وإلاّ كان يصبح لزامًا عليهما الانتظار بضع ساعات.

ارتاب القنصل في أمرهما منذ البداية، وقابلهما بحذر. وحين تجرّأت راشيل على أن تقترح دفع مقابل التّأشيرات لها هي وزوجها وابنها ونسيبتها، ردّ القنصل بجفاءٍ قائلاً إنّهُ سوف يأخذ طلبها بعين الاعتبار، ولكنّ الإجراءات سوف تأخذ مسارها الطبيعيّ الذي يستغرق من شهرٍ إلى شهرين، وبعد ذلك يردّ عليها في الوقت المناسب. أدركت أنّها قد أخطأت حين ذهبت إلى ذلك الموعد برفقة فولكر. لأنّ ذلك الرجل العسكريّ المهيّب قد أورث القنصل شعورًا بالخوف. لا بدّ أنّ ذلك القنصل شديد التّكثّم في معاملاته غير المشروعة. «سوف نذهب إلى قنصليات أخرى»، قال فولكر وهو في طريقه إلى الخروج، ولكنّ راشيل قد انتبهت إلى الطريقة التي رمقها بها الرجل من قدميها إلى رأسها، فاتّخذت قرارها بأن تعاود المحاولة.

بعد أيّام أفلحت في الحصول على موعدٍ آخر مع القنصل من دون أن تُخبر أحدًا بذلك. ارتدت ثوبًا ناعمًا بقطّع مائلٍ يبرز انحناءات جسدها، ووضعت على كتفيها وشاحًا من فراء الثعلب، وانتعلت حذاءً بكعبٍ عالٍ، وترتّنت بعقد اللؤلؤ وخاتم الماس اللذين تنوي رشوته بهما. ذهبت وحدها.

كان الدبلوماسي رجلاً مُدَّعيًا، له شاربٌ رفيعٌ وشعرٌ مُضْمَخٌ بالدهان مُلتصقٌ برأسه، ينتعل حذاءً بكعبٍ عالٍ تعويضًا عن قامته القصيرة. استقبلها في المكتب حيث دار اللقاء في المرة السابقة، ذلك المكتب ذو الأسقف المرتفعة وقطع الأثاث الداكنة المصنوعة من الجلد المهترئ، الذي يضم صورةً لرئيس تشيلي ولوحاتٍ حربية. أُسدلت ستائر المكتب، مع أنَّ الوقت لا يزال ظهرًا. كان مصدر الضوء الوحيد مصباحٌ فوق المكتب الثقيل. صافحها القنصل مستبقيًا يدها في راحة يده لثوانٍ بدت وكأنها لا تنتهي. كانت لغته الألمانية ضعيفةً إلى حدٍّ جعل راشيل تفكر أنها لم تفهم جيدًا حين أخبرها بأن الحلي مُجرّد إكراميةٍ لسداد رسوم القنصلية في واقع الأمر، ولكن امرأةً جميلةً مثلها يمكنها الحصول على كلِّ ما تصبو إليه. وبينما هو يقودها إلى أريكةٍ مُنتفخةٍ بلون الشكولاتة، واضعًا يده على خصرها، أردف أنه رجلٌ رومانسي. تهَيَّأت راشيل أدلر لدفع الثمن الذي يطلبه ذلك الرجل.

استمرت التجربة المهيينة أقلَّ من عشر دقائق. ثم عقدت راشيل العزم على أن تنساها فورًا. كانت حلقةٌ عديمة الأهمية في ذلك الواقع المأساوي الذي تعيشه منذ شهرٍ طوال. بعد ذلك هندم القنصل ثيابه، وصَفَّف شعره بالمشط، ثم احتفظ بالخاتم واللؤلؤ في صندوقٍ بمكتبه، وأعطاهَا موعدًا في أحد الفنادق خلال الأسبوع القادم، زاعمًا بأنه سوف يسلمها التآشيرَات آنذاك، بكلِّ تأكيد. لم تكن راشيل في موقفٍ يسمح لها بالمفاوضة. ولم يهتمها شيءٌ سوى إنقاذ أسرتها.

بحلول الأول من ديسمبر عام 1938، كانت راشيل قد حضرت ثلاثة مواعيد مع القنصل التشيلي، ولكنها ما زالت تنتظر أن يسلمها التآشيرَات حتى تسافر إلى بلده. خافت ألا يفِي ذلك الرجل بوعده

حتى يشبع منها. لم ترد التفكير في احتمال أن يحجم عن تسليمها المستندات التي وعد بها، بعد أن اغتصبها واستحوذ على حليها الخاصة. بمشقة، استطاعت راشيل أن تستمر في حياتها مستعينة بالقطرة والأقراص المهدئة التي يوفرها لها بيتر شتاينر. باتت تحس بغصة في حلقها، وتلتقط أنفاسها بصعوبة كالغريقة، وتعجز عن إخفاء رعشة يديها. لم تعترف لأحد بما يجري في حجرة الفندق، حيث تقابل القنصل التشيلي، ولكن الكولونيل فولكر بدأ يرتاب في الأمر.

- هل بلغت أخبار بشأن زوجك يا سيّدة أدلر؟ - سألها.

- لقد اكتشف بيتر أنه يعاني وهناً شديداً، وأنه لم يتعاف من الضرب الذي تعرّض له، ولكنّه ما زال يتحمّل الوضع حتى الآن. كما أكّد لي بيتر أنّ رودلف يتلقّى رسائلتي، ولكنّه لا يستطيع الردّ.

- سيّدتي، لقد طالت مسألة تشيلي أكثر ممّا ينبغي، وأنا لا أثق بذلك الرجل. ربما احتال عليك. أعتقد بأنّ الضرورة تقتضي إرسال صامويل إلى برّ الأمان.

- كولونيل، أفعل ما بوسعي.

- ليس لديّ أدنى شكّ، ولكن لا يمكن أن نستمرّ في الانتظار. كما تعرفين، لقد عرضت بريطانيا العظمى أن تستقبل عشرة آلاف طفل يهوديّ دون السابعة عشرة من العمر. كما تطوّعت عائلات إنجليزيّة كثيرة لرعاية أولئك الأطفال. يمكن لصامويل أن يمضي بعض الوقت هناك، حتى يستقرّ بكما المقام أنتِ وزوجك في تشيلي أو في مكان آخر، وبعد ذلك يلتئم شملكم من جديد.

- وهل أفترق عن صامويل؟ كيف يخطر لك أمر كهذا!

كان آخر ما يريده العسكريّ العجوز أن يفقد ذلك الطفل الذي شعر نحوه بمودّة ضاربة في العمق. ولكنّه أقدر من راشيل أدلر على رصد الخطر، ويعرف أنّ تلك الفرصة السانحة للهرب لن تستمرّ إلا قليلاً جدّاً، ولا بدّ من اغتنامها قبل أن يحظرها النازيون. لقد تأكّد له أنّ البلاغة القوميّة لهتلر سوف تؤدّي إلى حربٍ أخرى، وعند ذاك يغدو إنقاذ صامويل أشدّ صعوبةً بكثير، إن لم يكن مستحيلاً.

- لقد غادرت برلين المجموعة الأولى، وقوامها نحو مئتي طفل. - قال لها فولكر- إنّها رحلة قصيرة، يقطعها الأطفال مع مرافقين ويستقبلون في إنجلترا. لقد نجحت تلك المرأة الهولنديّة الرائعة، التي تدعى خيرترويدا فيسمولر ماير، في الحصول على إذنٍ بسفر ستّمئة طفلٍ من النمسا. أتفهّم أنّ الأولوية للأيتام وأبناء العائلات الأشدّ فقراً والأطفال الذين أرسل أبائهم إلى معسكرات الاعتقال، وصامويل يندرج في تلك الفئة الأخيرة. أرجوك يا سيّدة أدلر، فكّري في سلامة الطفل.

- أطلب منّي أن أرسل ابني وحيداً إلى بلدٍ آخر!

- إنّهُ حلٌّ مؤقّت. والطريقة الوحيدة لحماية صامويل. يجب عليك أن تسارعي باتّخاذ القرار. سوف يغادر القطار في غضون أيّام قليلة.

وافقه بيتر شتاينر الرأى. بين الرقابة والبروباغاندا بات التحقق ممّا يجري في البلد أمراً عسيراً. وإن أمكن القياس على الوضع في ألمانيا، الذي كان مشابهاً له في النمسا. ولقد بلغته أخبارٌ موثوقةٌ من بعض زبائن الصيدليّة ورفقاء لعبة البوكر.

وفي غمرة اليأس، طلبت راشيل مشورة أبيها وأخيها على أمل أن يجدا بديلاً. وإن أصرّ كلاهما على ضرورة الحصول على موقعٍ للطفل

ضمن مجموعة المرأة الهولندية. قالوا لها إن إنجلترا قريبة، وسوف تتمكن من زيارته، بل إنهما حتى هما يحاولان الذهاب إلى البرتغال مؤقتًا، ومن هناك إلى أي مكان يُسمح لهما بالذهاب إليه. تزايد عدد اليهود النازحين الهاربين من ألمانيا والنمسا، وبات الحصول على التأشيرة أصعب وأصعب بمضي الوقت.

- العائلة تتفكك. - قالت راشيل وهي تغص بالبكاء.

- الأولوية في هذه اللحظة لإنقاذ صامويل. - مضى يحثها والدها.

- في ظلّ الحيرة المروعة التي نعيشها، يجب علينا أن نسعى إلى البقاء معًا. لو افترقنا، فقد لا نلتقي مرةً أخرى أبدًا. - أصرت راشيل.

- عندما يتأكد سفرك مع رودلف إلى تشيلي أو أي بلد آخر، سوف ننتظر أن يستقرّ بكما المقام أولاً ثم نحاول اللقاء هناك.

- لا أستطيع الافتراق عن صامويل!

- هذا من أجل مصلحته. راشيل، يجب عليك أن تقدّمي هذه التوضيحية. هناك عائلات أخرى من المجتمع اليهودي تفكر في هجرة الأطفال. - قال لها أبوها.

حرصت راشيل على إخفاء مشاعر الخوف والهم التي تعتمل في نفسها، ولكن صامويل قد انتبه إلى ما يجري، وأكثر من السؤال عن أبيه. ذات مرة انتظر حتى غابت أمه لسؤال الكولونيل عن السبب الذي جعلهم يخططون لإرساله بعيدًا. جلس فولكر معه أمام خارطة مفتوحة فوق طاولة الطعام وأطلعته على موقع إنجلترا بالنسبة إلى فيينا، وكيف يمكن الوصول إلى هناك. كما أكد له أن الضرورة تقتضي الافتراق عن

والديّ، ولكنّه لن يفترق عنهما إلّا لمدّة قصيرة. طلب منه أن يفكر في الأمر وكأنّه مغامرة.

- لا بدّ أن أنتظر بابا. متى يعود؟ وأين هو؟

- لا أدري يا صامويل. لقد أصبحت رجلاً كبيراً. يجب عليك أن تساعد أمك، فلديها مشكلات كثيرة لأنّ والدك ليس هنا. أظهر لها أنّك سعيد بالذهاب في تلك الرحلة مع باقي الأطفال.

- ولكنني لست سعيداً، كولونيل. أنا خائف...

- صامويل، كلّنا نشعر بالخوف في كثير من الأحيان. حتى الرجال الشجعان يشعرون بالخوف، ولكنهم يتصدّون له ويؤدّون واجبهم.

- وحضرتك، هل خفت؟

- مرات كثيرة يا صامويل.

- أفضل البقاء هنا مع ماما ومعك حتى يعود بابا.

- وأنا أيضاً أريدك أن تبقى معي، ولكن هذا غير ممكن. سوف تفهم ذات يوم.

ما إن تقبّلت راشيل أدلر الفكرة، بقلبي كبير، حتى تسارعت الأحداث. في اليوم التالي حضر إلى شقّة فولكر مُمثّل عن المجتمع اليهودي لتقييم الوضع. ولما كان والد صامويل في معسكر الاعتقال، وزوجات السجناء مُهدّدات بالترحيل أيضاً، فلقد تقرّر وضع الطفل على القائمة. أوضح لهم الشخص المسؤول أنّ عمليّة هجرة الأطفال قد نُظّمت بعناية شديدة من جانب لجان يهوديّة تعمل على إنقاذ الأطفال من بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا أيضاً. كما تطوّعت بلدان أخرى بإيواء الأطفال، وإن لم يوفّر بلد من فرص السفر بقدر ما وفّرت بريطانيا

العظمى. تقرر سفر صامويل بالقطار إلى هولندا، بالقرب من روتردام، على أن يستقل العبارة من هناك وصولاً إلى مرفأ هارويتش الإنجليزي عبر القناة.

في الصباح الباكر من العاشر من ديسمبر، مضت راشيل والكولونيل بصامويل إلى محطة القطار. تحرّكت راشيل وكأنّها تسير نائمة، وقد غيّبتّها عن الوعي جرعة مفرطة من المخدر الذي يقدّمه إليها شتاينر. في اليوم السابق أصيبت بنوبة هلع شديدة إلى الحدّ الذي جعل قولكر يستدعي شتاينر. انفرد الصيدلانيّ بها في حُجرة مُقفلة. وبأشدّ العبارات حزمًا طلب منها أن تهدئي من روعها، فمن غير المعقول أن تنقل عدوى الخوف إلى ابنها. لقد بذل الطفل جهودًا محمودةً للحفاظ على الهدوء، ويجب عليها أن تساعدّه، كما أنّها لا تملك الحقّ في الانهيار أمامه، هكذا قال لها شتاينر. ثم حقنها بمُنوّم شديد المفعول، جعلها تنام لتسع ساعات. وفي تلك الأثناء، أعدّ الكولونيل حقيبة صامويل الصغيرة بالثياب التي اشتراها من أجله، مع مراعاة أن تكون فضفاضةً بعض الشيء لتدوم أطول وقتٍ ممكن. دسّ عشرة ماركاتٍ في جيب المعطف الجديد، كما ثبتّ أحد أنواط الحرب التي حصل عليها في طيّة المعطف.

- صامويل، إنّه نوط الشجاعة. لقد حصلتُ عليه في الحرب، قبل بضع سنوات.

- أهو لي أنا؟

- سوف أعيرك إيّاه، حتى أذكرك بالشجاعة التي يجب عليك التحلّي بها. متى أصابك الخوف فأغمض عينيك، وضمّ النوط بيدك، عندئذ تحسّ بقوة هائلة في صدرك. أريد منك أن تستخدمه حتى نلتقي

مرّة أخرى، وحينذاك يجب عليك أن تردّه لي. حافظ عليه. - قال له الكولونيل بصوتٍ جاء مُتهدّجًا من فرط الأسى.

يومذاك تجمّع حشدٌ غفيرٌ من الآباء والأبناء في محطة القطار. حفل المكان بأطفالٍ من شتى الأعمار، بل إنّ بعضهم لم يتمكّنوا من السّير وحدهم ومضوا ممسكين بأيدي آخرين أكبر منهم عمرًا. أجهدش كثيرٌ من الأطفال الأصغر عمرًا بالبكاء، وتشبّثوا بأبائهم. وعلى الرّغم من ذلك، فلقد عمّ هدوءٌ ونظامٌ لا يعيبه شيء. كانت هناك عشراتٌ من المُتطوّعات - أغلبهنّ من النساء - اللاتي تولّين كلّ حالةٍ من الحالات على مرأى من الحرس الذين راقبوا محيط المكان بالزيّ النازيّ المُوحّد، من دون أن يتدخّل أيّ منهم.

مضت راشيل وفولكر برفقة صامويل وصولاً إلى نقطة التفتيش، حيث تحقّقت شابةٌ من وجود اسمه في القائمة. اتّضح أنّها إنجليزيّة، وليست يهوديّة. علّقت بطاقة هويّةٍ من عنق صامويل. ثم ربّنت على وجنته وقالت له بلطفٍ إنّّه لا يستطيع أن يحتفظ بالكمان، إذ يحقّ لكلّ مسافرٍ أن يحمل حقيبةً واحدةً فقط، لأنّ المكان لا يتّسع للمزيد.

- أنستي، صامويل لا يفارق الكمان أبدًا. - أوضح لها فولكر.

- اتّفهم ذلك، أغلب الأطفال يريدون الاحتفاظ بأغراضٍ إضافيّة، ولكن لا يمكننا السماح باستثناء واحد.

- ولكن هذا الطفل قد سُمح له بذلك. - قال فولكر وهو يشير إلى طفلٍ في عمر الثالثة تقريبًا، مضى مُتشبّثًا بدُبّ صغيرٍ من القטיפّة.

حاولت الفتاة المُرتبِكة أن تتكلّم مع الكولونيل بالعقل وتقنعه بأنّها تنفّذ الأوامر وحسب. كان الوقت ضيقًا، بينما اصطفّ هناك طابورٌ طويلٌ من الأطفال في انتظار دورهم، وبدأ الناس يتحلّقون حولهم. نفذ

صبر البعض بسبب التأخير، واحتجّ آخرون قائلين إنّ السماح للطفل بأن يحتفظ بالكمان لا يكلف أيّ شيء، في حين أصرت الفتاة على الالتزام باللائحة.

وإذا بصامويل - الذي لم يقل كلمة واحدة منذ أن غادروا البيت - يضع الحقيبة المهترئة أرضاً، ثم يلتقط الكمان واضعاً إيّاه على كتفه، ويبدأ في العزف. وفي أقلّ من دقيقة واحدة خيم صمت مطبق حول ذلك الطفل المعجزة، الذي ملأ الهواء بنغمات سيرينيد لشوبرت. توقّف الزمن. أمّا الجموع المثقلة بهمّ الفراق الوشيك والريب الذي ألقى بظلاله على حياتهم، فلقد وجدت في الموسيقى سلواناً لدقائق رائعة قصيرة. كان صامويل صغيراً بالقياس إلى عمره، فأسبغ عليه المعطف الفصفاض مظهرًا هشاً ترقّ له القلوب. مضى يتمايل إلى إيقاع الموسيقى، مغمض العينين، في مشهد ساحر.

انتهى من العزف، وتلقّى التصفيق بجديّة المعهودة، ثم احتفظ بالكمان في حقيبته بحرص. في تلك اللحظة أفسح الناس طريقاً لسيدة ممتلئة، مُتَشَحِّة بالسواد، جاءت والألسنة تهمس باسمها: إنّها الهولندية التي أشرقت على هجرة الأطفال. مالت المرأة إلى صامويل وقد تحرّكت مشاعرها. شدّت على يده وتمنّت له رحلة سعيدة. «يمكنك الاحتفاظ بالكمان. سوف أرافقك إلى مقعدك»، قالت له.

عانقت راشيل ابنها بقوة، جاثية على ركبتيها، عاجزة عن كبح دموعها، ومضت تهمس إليه بالإرشادات والوعود التي لا تملك الوفاء بها: «إلى اللقاء يا حبيبي، لا تنس أن تتناول الحليب وتغسل أسنانك قبل الذهاب إلى الفراش. لا تُكثّر من أكل الحلوى. يجب عليك أن تحترم الأشخاص الذين سوف يستقبلونك، وتذكّر أن تقول «شكراً». سوف أراك في أقرب وقت، ما إن يعود بابا حتى نأتي إليك ومعنا العمّة

لياً، وربما جاءت الجدّة أيضاً. إنجلترا بلدٌ رائع الجمال، سوف تقضي وقتاً طيباً جداً. أحبك كثيراً، كثيراً...».

ومن بين صورِ الماضي كلّها كانت تلك الصورة هي الأشدّ نبضاً بالحياة، وظلّت بلا مساسٍ في ذاكرة صامويل أدلر حتى طعن في العمر: صورة العناق اليائس الأخير، وأمّه الغارقة في الدموع، التي استندت إلى الذراع القويّة للكولونيل فولكر العجوز ومضت تلوّح بمنديلها في المحطة، بينما القطار يبتعد.

يومذاك انتهت طفولته.

مكتبة
t.me/soramnqraa

صامويل

لندن، 1938 - 1958

استغرقت الرحلة من النمسا إلى إنجلترا ثلاثة أيام، تراءت لصامويل الصغير وكأنها لا تنتهي. في البدء مضى الأطفال يغنون، والمُتطَوِّعون يرفُّهون عنهم. ثم بدأ يغالبهم التعب والخوف بمضي الساعات، فأجهش الأطفال الأصغر سنًا بالبكاء مُنادين آباءهم. في اليوم التالي نام أغلبهم مُكوَّمين، إمَّا فوق المقاعد الخشبيَّة الصلبة وإمَّا على الأرض. بينما ظلَّ صامويل جالسًا، جامدًا، مُتَشَبِّثًا بالكمان، وفي صمتٍ مضى يردُّد صوت العجلات الحديدية فوق مسارات القطار: تراك - ترا - تراك. توقَّف القطار مرَّاتٍ كثيرة، فصعد إلى متنه الجنود لتفتيشه مُتَوَعِّدين، ولكنَّهم وجدوا أنفسهم أمام تلك السلطة الباردة التي تمتَّعت بها السيِّدة فيسمولر ماير. وأخيرًا، ذات مساءٍ ماطر، وصلوا إلى المرفأ الهولنديِّ المُثلَّج الذي خيَّمت عليه الكأبة، هناك حيث

ترجّلوا عن القطار صفًا واحدًا، ثم دخلوا إلى العبّارة برؤوس خفيضة وقوى مُستنفّدة. اضطربت المياه التي تراءت بلون البترول، وانخرط في البكاء كثيرٌ من الأطفال المذعورين الذين لم يسبق لهم أن رأوا البحر قط. أُصيب صامويل بدوار، وشرع يتقيًا مائلًا إلى السياج بنصف جسده الذي تناثر عليه الماء المالح.

وصلوا إلى إنجلترا، حيث كانت في انتظارهم العائلات التي عرضت أن تؤوي اللاجئين الصغار الذين جاء كلٌ منهم يحمل بطاقة هويّته على صدره. استقبلت صامويل امرأتان، أم وابنة. ولكنّ هاتين المرأتين قد طلبتا طفلةً في عمرٍ يسمح لها بالمساعدة في الأشغال المنزليّة، ولذا أمضت كلتاها وقتًا غير قليلٍ في مجادلة المُنظّمين، بينما ظلّ هو ينتظر واقفًا لصق الجدار، حاملاً حقيبته الصغيرة والكمان والمعطف المُلوّث بالقيء. أمضى معهما وقتًا قصيرًا. عملت المرأتان في مصنع للثياب العسكريّة. وعلى الرّغم من الأعوام العشرين ونيّف التي تفصل بينهما، كان الناظر إليهما يحسبهما توأمين، بالحكم على الطريقة المُتكلفة في الكلام ولفائف الشعر المُحكّمة والحذاء الذكوريّ ورائحة الأنفاس الكريهة. عاشتا في بيتٍ ضيّقٍ عالٍ، مُكتنّظٌ بالتمائيل الخزفية وساعات الوقواق والأزهار الصناعيّة ومفارش الكروشيه وغير ذلك من الأغراض المُتراصّة بدقّة في نظام لا يتبدّل، التي يرتاب المرء في فائدتها وفي ذائقة صاحبها. حُظر على صامويل المساس بأيّ من تلك الأشياء. كانت المرأتان صارمتين، في مزاجٍ عكِرٍ دائميًا، ولديهما عددٌ لا ينتهي من قواعد التعايش، بدءًا بعدّ قطع السكر وصولًا إلى تحديد موقع جلوس كلٍّ واحد، وموعد الجلوس أيضًا. لم تفهما كلمةً واحدةً من اللغة الألمانيّة، في حين لم يتكلّم الطفل شيئًا من الإنجليزيّة، الأمر الذي زاد من شعورهما بالسخط. أضف إلى ذلك أنّ صامويل بات يمضي ساعاتٍ في صمت، منزويًا على نفسه في الأركان،

ويتبَوَّل على نفسه في الفراش. بدأت خصلات شعره تتساقط، فما كان منهما إلا أن حلَقتا رأسه تمامًا.

سرعان ما ظهر بوضوح أنه ليس بالبيت الملائم لصامويل أدلر، وتسَلَّمته أسرة أخرى، فأخرى، فأخرى. لم يستمر صامويل مع أسرة واحدة منها لأنه كثير الإصابة بالأمراض، مكتئب. بعد عام أودع في دار للأيتام بضواحي لندن، في منطقة ريفيّة بديعة حافلة بالمروج والغابات. وفي قلب ذلك المشهد الريفيّ، تراءى البناء الحجريّ البشع - الذي سبق أن كان مستشفى إبان الحرب العالميّة الأولى - مُؤذياً للعين. كانت دار أيتام للأطفال الأكبر من صامويل عمراً، وخضعت لنظام يليق بقاعدة عسكريّة. خُصّص سريرٌ مفروشٌ بمرتبة هزيلة لكل واحدٍ من الفتيان الذين عاشوا على الأرز والبقول، شأنهم شأن الغالبية العظمى من الناس في زمن الحرب. درس الفتيان في فصولٍ مُثلّجة شتاءً خانقة صيفاً، وأكثروا من ممارسة الرياضة، لأنّ الغرض من ذلك المكان تأهيل شباب أقوياء العقل والبدن. وهكذا باتت خلافات الأطفال تُحلّ داخل الحلبة بقفازات الملاكمة، والأخطاء يُدفع ثمنها ضرباً على المؤخرة بالعصا، واعتُبر الجبن أسوأ عيبٍ قد يُوصم به المرء. في البدء كان صامويل يُعفى من بعض الأنشطة والعقوبات لأنّه مريضٌ بالربو، وأصغر كثيراً من باقي النزلاء. ولكنّه سرعان ما حُرِم من تلك المزايا.

لم يترك الطفل آلة الكمان طوال تلك الفترة. ولمّا مُنع من العزف على الكمان، مضى صامويل يؤلّف الموسيقى سرّاً، ويعزفها في ذهنه، في صمت الليل. لم يتخلّ يوماً عن نوط الحرب الذي ثبّته الكولونيل فولكر في طيّة معطفه حين رافقه إلى القطار. ألصق النوط في حقيبة الكمان لئلا يفقده. ولقد تحقّق صامويل من قدرات النوط السحرية التي سبق وأخبره بها الكولونيل: إذ يكفي أن يضمّه بيديّه حتى يتغلّب

على مشاعر الخوف. حرص على الاعتناء به، مُدْرِكًا أن الكولونيل قد أعاره ذلك النوط ولا بدّ من ردّه إليه.

في إنجلترا رُفِعَ شعار «ابقَ مُتفائلاً»، وقيل إن النصر أكيد، مع أنّ للجهود الحربيّة كلفةً فادحةً من الدماء والموارد. أمّا القصف الألمانيّ، الذي أسفر عن مقتل أكثر من أربعين ألف مدنيّ، وأحال مناطق كاملةً إلى رماد، فلقد انقطع من دون أن يحقّق الهدف النهائيّ: أي بثّ الرعب في نفس الشعب لإرغامه على الاستسلام. بعد مضيّ دقائق على ابتعاد طائرات العدوّ وانطلاق الأبواق مُعلِنَةً عن انتهاء القصف، كان الناس يخرجون من المخابئ وهم يصلحون وضع ثيابهم، مُتظاهرين بهدوءٍ لا يشعر به أحد. وبعد ذلك تبدأ جهود إطفاء الحرائق والبحث عن الناجين وسط الحطام. تقرّر الترشيح في كلّ شيء، إذ قلّ الطعام، ونفذ الوقود المُستخدم في النقل، وانعدمت التدفئة في الشتاء، وظلّت المستشفيات حافلةً بالنزلاء، وأصبح المرء يرى الجنود مبتوري الأطراف والأطفال الجياع في الشوارع. جاهد الناس للعيش بكرامة، من دون صخب. أما الوقار البريطانيّ بالغ الشهرة، فلقد ثبتت فائدته في مواجهة الأخطار وتحملّ المصاعب الجُمّة بشيءٍ من السخرية، وكأنّها تحدث في بُعدٍ آخر. «ابقَ هادئًا وامضِ إلى الأمام»، كما جاء في الشعار المطبوع الذي انتشر في الأمكنة كلّها آنذاك.

في عام 1942 أصيب صامويل بذات الرئة. وعلى سريره الحديديّ بالمستشفى، وسط دزينةٍ من المرضى المؤزّعين في ذلك الجناح، مضى صامويل يجاهد حتى يلتقط أنفاسه، مُتأرجحًا بين لهيب الحمّى ونوبات البرد التي تبثّ في جسده رجفة. في لحظةٍ بعينها، حدّثه هاجسٌ بأنّه على مشارف الموت، فقرّر أن يخبر والدَيْه بذلك. سبق أن

كتب إليهما مرّاتٍ عديدة، ولكنّه لم يتلقَ ردًّا على رسائله. لم يتلقَ إلاّ رسالتين قصيرتين في العام الأوّل من الغربة. في لحظات اليقظة، كتب إلى أبويّه رسالةً على ورقة دفترٍ بمشقةٍ بالغة. ولم يقدر أحدٌ على مساعدته لأنّ الرسالة بالألمانيّة.

«عزيزتي ماما، عزيزي بابا:

أنا مريض. أخبركما بذلك لعلّكما تذهبان للقاءني في المدرسة فلا تعثران عليّ هناك. المستشفى كبيرٌ جدًّا، والناس كلّهم يعرفونه هنا. في بعض الأحيان أجد نفسي طافيًا في الهواء، وأراني بالأسفل مُستلقيًا على الفراش. لا يعرفون إن كنتُ سأموت. ولكنّي أودُّ أن أترك لكم الكمان تذكاريًا، من باب الاحتياط. كما أودُّ أن أطلب منكما أن تردّا نوط الحرب إلى السيّد الذي يعيش في الطابق الثاني. النوط في حقيبة الكمان. أرجو أن تغفرا لي الأخطاء الإملائيّة، فأنا لا أكاد أتذكّر كيف أكتب بالألمانيّة. ابنكما صامويل».

وجّه الرسالة إلى «هير رودلف أدلف وفراو راشيل أدلر، فيينا، النمسا»، وطلب من إحدى المُمرضات أن تضعها في صندوق البريد، فما كان من المرأة الصالحة إلاّ أن سلّمت الرسالة إلى لوك إيفانز، علمًا منها أنّها لن تصل إلى وجهتها أبدًا، لأنّ الفتى لم يتلقَ زيارةً من أحدٍ سوى لوك وليديا إيفانز. كان هذان الزوجان من جمعيّة الأصدقاء الدينيّة، ولقد نذرا نفسيهما لإنقاذ الأطفال في مناطق النزاعات الحربيّة منذ أعوام، كما فعلا إبان الحرب الأهليّة الإسبانيّة، وبعد ذلك في أوروبا، بالتعاون مع منظمّاتٍ يهوديّة. رآهما صامويل عجوزين طاعنين في العمر، مع أنّهما لم يتجاوزا الأربعين ونيّفًا. أما الحبّ الجارف الذي جمع بين الزوجين، فلقد جعلهما أكثر فأكثر تشابهًا، حتى صارا وكأنّهما توأمان،

كلاهما قصير القامة، نحيل، له شعرٌ أصفر بلون القش، يضع على عينيه نظارةً مستديرة العدسات.

مرضت ليديا بداء باركنسون، الذي جعلها شبه مقعدةٍ بمضي الوقت. ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ظاهراً عليها حين تعرّف بها صامويل. أرغمهما المرض على التخلّي عن مهمّتهما في جبهة القتال والعودة إلى إنجلترا، حيث شرع الزوجان يساعدان أطفالاً مثل صامويل. لم ينجب السيّد والسيدة إيفانز، فوقع كلاهما في حبّ ذلك الفتى صاحب الذكاء الثاقب، والرهافة الأليمة. حمله الزوجان من المستشفى، حيث قضى بضعة أسابيع، إلى بيتهما. وهكذا لم يُعد صامويل إلى دار الأيتام. بل إنّه قد عثر على البيت الذي كان في أمسّ الحاجة إليه.

أصبح السيّد والسيدة إيفانز أسرته، كما ألحقاه بإحدى مدارس جمعيّة الأصدقاء الداخليّة، وإن قضى معهما العطلات الأسبوعيّة والإجازات. حاولا توفير تربية دينية لصامويل، علماً منهما بأصله. أرسلاه إلى الدروس في أحد المعابد لبعض الوقت. ولكن مساعهما لم يستمرّ لأطول من بضعة أشهر. لم يشعر صامويل بأنّه جزءٌ من ذلك المجتمع، ولم يول الدّين اهتماماً برغم الجهود التي بذلها رجل الدّين. حتى المسيحيّة لم يشعر بالانجذاب إليها. ولكن المدرسة التي التحق بها كانت ليبراليّة ولم ترغمه على التحوّل إلى المسيحيّة. تقاسم صامويل وأعضاء جمعيّة الأصدقاء القيم نفسها: البساطة، والسلام، والحق، والتسامح، وقوّة الصمت. تلك القيم التي جاءت أنسب ما يكون لطباعه الشخصية.

وجد الاستقرار بفضل السيّد والسيدة إيفانز والمدرسة: فتباعدت نوبات الربو والكوابيس المزعجة. كما توقّف تساقط الشعر من تلقاء نفسه، بعد أن عذّبه طوال سنوات. تلاشت الرقع الخالية من الشعر، ونما

شعرٌ كثيفٌ مُمَوَّجٌ، بات واحداً من أبرز السمات التي تميّزه منذ ذلك الحين. أحبّ صامويل الدراسة ولعبة كرة الراغبي، الأمر الذي ساعده على الاندماج مع أنّه لم يحظَ بأصدقاء. كانت كرة الراغبي هي الرياضة التي لم يمارس سواها مدى الحياة، لأنها إجباريّة، كما أنّها سمحت له بالتنفيس عن مشاعر الإحباط بدفع الآخرين وعرقلتهم والتمرُّغ في التراب. وفي طور المراهقة، تميّز صامويل لأنّه تمكّن من العودة إلى العزف على آلة الكمان أخيراً وانضمّ إلى أوركسترا المدرسة. أمضى زمناً طويلاً لم يتدرّب خلاله على العزف، فلم يُعدّ المعجزة الموسيقيّة التي كانها في الماضي، مع أنّ حبّه للموسيقى لم يتبدّل.

كان صامويل في الثانية عشرة من العمر حينما انتهت الحرب، في مايو من عام 1945. ولسوف يتذكّر دائماً أجراس الاحتفال، والفرح الذي عمّ الشوارع والبيوت والمدرسة وكلّ مكان، والأحضان والصيحات والضحكات. ثم هدأت النفوس لاحقاً، فاستطاعت أوروبا أن تقدّم تقريراً بكلفة ذلك الانتصار الدامي: المدن المُدمّرة، والأرض الخربة، ومعسكرات الاعتقال حيث أباد النازيون اثني عشر مليون شخصٍ نصفهم من اليهود، والمجازر، والضحايا الذين لا يُحصى لهم عدد، وجموع اللاجئين الباحثين عن موضعٍ للراحة. فكّر صامويل أنّ والدَيْه ربّما كانا ضمن أولئك اللاجئين. لعلّهما يفتّشان عنه، وربّما حضرا إلى المدرسة سائليْن عنه قريباً. لن يتعرّفا صامويل متى رأياه، ولكنّه سوف يتعرّفهما، لأنّه قد ألصق صورتهم في جوف حقيبة الكمان، إلى جانب نوط الكولونيل قولكر. حلّ كمانٌ جديدٌ في موقع كمان الطفولة، ولكنّ تلك الآثار المُقدّسة ما زالت ترافقه حيثما ذهب. ظنّ صامويل أنّه من المستحيل أن يكون أبواه قد تغيّرا كثيراً في تلك الأعوام، أعوام الفراق الستّة. ظهر أبوه في الصورة بالنظارة والشارب وقد ارتسمت على

وجهه أمارات الجدّة. بخلاف أمّه، تلك المرأة الجميلة صاحبة العينين السوداوين والشعر المُموج التي ارتسمت على وجهها ابتسامة واسعة. ظهر والده ببدلة داكنة وصدارٍ عفا عليه الزمن قليلاً وبابيون. أمّا هي فكانت ترتدي بلوزةً بيضاء وسترةً داكنةً في طيّتها دبّوس زينة، وتعتمر قُبعةً تشي بالدلال.

ولكنّه لن يعرف عن أسرته شيئاً قبل مضيّ عدّة أعوامٍ أخرى. في عام 1942، اتّفقت القيادات النازية على تنفيذ «الحلّ النهائي»، كما أطلق على إبادة اليهود، وإن لم تُعرَف تفاصيل الهولوكوست إلّا بعد أمِدٍ بعيد. انضمّ السيّد والسيدة إيفانز إلى إحدى المنظّمات المُكرّسة لمساعدة ملايين النازحين تحت وطأة الحرب، ولكنّ جهودهما في سبيل العثور على السيّد والسيدة أدلر قد ضاعت هباء. حاول كلاهما أن يجنّب صامويل مشاهدة الأفلام الوثائقية عن معسكرات الاعتقال. وعلى الرّغم من ذلك، فلقد ذهب الفتى إلى السينما ذات سبت، حيث عُرضت قبل الفيلم نشرة أخبارٍ حافلة بمشاهد مُروّعة، ظهر فيها ناجون هزلت أجسادهم حتى صارت كالهياكل وأكوامٌ من الجثث والعظام. دبّ الرعب في نفسه، وأبى التفكير في احتمال وجود والدَيْه وسط أولئك الضحايا.

بعد الانتهاء من الدراسة، حان دوره في الالتحاق بالخدمة العسكرية الإلزاميّة، ولكنّه أعفي من الخدمة بسبب داء الربو، فضلاً عن إصابة الظهر التي تعرّض لها وهو يلعب كرة الرّاغبي. وبفضل منحةٍ دراسية، تمكّن من الالتحاق بأكاديمية الموسيقى الملكيّة، أقدم أكاديمية موسيقى في إنجلترا، التي تأسّست عام 1822، ولم يُقبل المُتقدّمون إليها بسهولة.

أما ذلك اليوم المُشرق - أوّل يوم له في الأكاديمية، حين بدأ يدرس الموسيقى دراسةً منهجيّة- فلقد كان واحدًا من الأيام الأشدّ ظلمةً مدى حياته، في واحدةٍ من تلك المصادفات الغامضة.

عاد إلى بيت السيّد والسيدة إيفانز سيرًا على قدميه حتى يصفّي ذهنه، لأنّه قد بلغ من السعادة حدًّا جعله يبدو كالمخمور. وصل إلى البيت قرب الساعة مساء. وما كاد يتجاوز عتبة الباب حتى أحسّ بتوجّسٍ قويٍّ يداهمه وكأنّه لكمّة في المعدة. اعترضت ليديا طريقه كي تحذّره. «مهلاً، صام...»، أسعفها الوقت كي تقول له، وقد تعلّقت بصداره، ولكنّ الفتى لم يمهلهما ما يكفي من الوقت لمتابعة حديثها. وجد في الصالة امرأةً شابة، متينة الجسد، شقراء جدًّا، حتى بدت وكأنّها مصابةٌ بالمهق.

- صامويل...؟ أنا هايدي شتاينر؟ أتذكرني؟ - سألته بالألمانيّة. كلاً، كيف تذكرني وقد كنت طفلاً صغيراً عندما التقينا للمرّة الأخيرة! أنا ابنة بيتر شتاينر.

حتى ذلك الاسم لم يبدُ مألوفاً لصامويل. لم يتحدّث الألمانية طوال أعوام، ولكنّه استطاع أن يفهمها. ظلّ يترقّب أن تستمرّ في الكلام، والغصّة في فمه ومعدته تشتدّ أكثر فأكثر. حمّن أنّ الأمر مُتعلّق بأبويه، بالحكم على اللغة التي تحدّثت بها إليه المرأة.

- لقد نجحتُ في العثور عليك لعلمي أنّك قد جئتَ إلى إنجلترا في عمليّة هجرة الأطفال، ونظرًا إلى احتفاظ مُنظّمي الهجرة بسجّلات كلّ طفل. في الملفّ الخاصّ بك وردت البيوت ودار الأيتام التي نزلت بها قبل أن يستضيفك السيّد والسيدة إيفانز، ومدرسة جمعيّة الأصدقاء أيضًا.

أضافت أنها لم تتمكّن من البحث عنه قبل ذلك، لأنّ المنهزمين لم يتمكّنوا من استئناف حياتهم إلّا بعد مضيّ أعوام. لقد باتت ألمانيا خربة، مُهانة، مُفقّرة، وقاسمتها النمسا المصير ذاته.

- في البدء كُنّا نفتش عن بقايا الطعام في حاويات القمامة. -
قالت - ولقد اشتدّت وطأة الجوع حتى لم تبقَ كلابٌ ولا قططٌ على قيد الحياة. حتى الفئران قد أكلناها.

كان بيتر شتاينر، والد هايدي، قد اشتبه في وجود خطرٍ يهدّد حرّيته في ظلّ النظام النازي. حدّره أصدقاؤه من ذوي الشأن، وأخبروه بأنّ جهاز الغِستابو يراقبه بتهمة التعاطف مع الشيوعيّة. فما كان منه إلّا خبأً نقوده لحماية الأسرة في حال وقع له شيء، ولكنّه لم يتخيّل أنّ الهزيمة سوف تجعل تلك النقود أوراقاً بلا قيمة. كما احتفظ وسط المدّخرات بعقد بيع وشراء عيادة رودلف أدلر وشقّته مُرفقاً برسالةٍ يقرّ فيها بأنّها صفقةٌ صوريّة، وأنّ أدلر هو المالك الشرعيّ.

- أنا أسفة يا صامويل. لقد تهدّم البناء تحت وطأة القصف. -
قالت له هايدي.

أدرك أنّ المرأة تحاول أن تكسب الوقت بتلك المُقدّمات المُطوّلة. وفيمْ قد تهّمه بعض الأملاك في فيينا؟ لا يُعقل أن تكون قد سافرت من مسافةٍ بعيدةٍ لهذا السبب.

أخبرته هايدي بأنّ لها أختاً ماتت مريضةً بالتيفويد، وأخرى اختفت عندما احتلّ الروس النمسا، وأخوَيْن استُدعي كلاهما إلى الجيش في عمر المراهقة ولكنّهما لم يرجعا من ساحة القتال. من الأشقاء شتاينر الستّة، لم ينجُ بحياته سوى هايدي والأخ الأصغر. كما نجت الأمّ أيضاً، ولكنّها نزلت بإحدى دور الرعاية.

- اعتُقل أبي عام 1943 بتهمة الشيوعيّة، كما صُوِّدَت الصيدليّة
وبيتنا أيضًا. مات أبي في أوشفيتس. - قالت له.

- أنا في غاية الأسف لتلك المأساة التي حلّت بأسرتك. شيء
مُرّوع... أخبريني، أتعرفين ماذا جرى لوالديّ؟

- صامويل، إنّ ما يجب عليّ أن أخبرك به شيءٌ مُؤسِفٌ جدًّا.
ولكنّي جئتُ لهذا السبب. لا يمكنك أن تقضي حياتك في شكّ،
فذلك أسوأ من الحزن... لقد اعتُقل والدك من أحد المستشفيات،
حيث نزل مُصابًا بإصاباتٍ خطيرةٍ بعد تلك الليلة المُرّوعة، ليلة الزواج
المُحطَّم، بيومين أو ثلاثة أيّام... تردّدت هايدي، ولم تدرِ كيف تتابع
حديثها.

- أرجوك، أحتاج إلى أن أعرف. ماذا جرى له؟

- آخر ما عرفنا عنه أنّه قد مات بعد وصوله إلى داخاو بوقتٍ قصير،
متأثرًا برضّة دماغيّة، بشهادة سُجناء آخرين.

- إذن فأُمّي لم تكن على علمٍ بأنّها قد ترمّلت حين أرسلتني إلى
إنجلترا. - قال صامويل وقد غصّ صدره بالنشيج.

- صحيح.

- وماذا عن أمّي؟ ماذا جرى لها؟

- لم تكن أفضل منه حظًا. لقد أضاعت فرصة السفر في انتظار
أبيك. أخفاها عن الأنظار جاراها، عسكريّ متقاعدٌ يدعى تيوبالد فولكر،
وأسرّتي أيضًا. في البدء عاشت مع الكولونيل الذي شملها بالحماية
ما وسعه ذلك. وعندما أُصيب بمرضٍ عضال، هيأ والدي مخبأً لها في
مخزن الصيدليّة الذي يقع في القبو. وهناك اضطّرت أمك إلى العيش

فترة غير قصيرة. اعتقل أفراد الأمن والدي وداهموا الصيدلية، فعثروا عليها. لم يكن هناك مُتَسِّعٌ من الوقت لتحذيرها.

- وماذا حدث لها؟

- صامويل، سامحني لأنني قد جئتُ إليك بأخبارٍ في غاية الأسف... لقد اقتيدت إلى رافنسبروك.

- معسكر اعتقال النساء؟

- أجل يا صامويل، لقد ماتت هناك أكثر من ثلاثين ألف سجينّة. من بينهم أمك وعمّتك ليا.



- صامويل، انعم بوقتٍ طيب، وحاول الاستمتاع بالحياة. يجب عليك أن تعيش الحياة التي لم يعيشها أبواك. - قالت له ليدا إيثانز في إحدى المرّات. وعلى الرّغم من ذلك، فلطالما كان مفرطاً في الجدّيّة، وبات كثير السكوت مُتأثّرًا بالمصير المأساويّ الذي لقيه أبواه. لم يدر كيف ينعم بوقتٍ طيّبٍ كما أوصته ليدا.

عمل صامويل أوّل ما عمل في أوركسترا لندن الفيلهارمونيّة المرموقة، مع أنّه لم يتجاوز العشرين آنذاك، وتلك سنٌ صغيرةٌ جدًّا للالتحاق بمؤسّسةٍ رفيعةٍ كهذه. عرف أنّ الأوركسترا تبدو للعين المُجرّدة أرقى نماذج العمل الجماعيّ، وإن ظلّ كلّ موسيقيٍّ في واقع الأمر جزيرةً قائمةً بذاتها، السمة التي جاءت ملائمةً لشخصيّته الانعزاليّة على أكمل وجه.

اتّخذ الأوركسترا ملاذًا، ولم يعرف المتعة إلّا في الموسيقى، فلا شيء يُقارَن بتجربة الغوص في الموسيقى وكأنّها محيط، والإبحار

بسلاسة وسط الأمواج والتيارات، والانضمام بألة الكمان إلى تلك الجوقة المهيبة التي تشارك فيها باقي الآلات الموسيقية، كل بصوتها المُميّز. في تلك اللحظات ينمحي الماضي، ويحسّ صامويل بأنه يذوب، وبأن جسده يتلاشى وروحه تسمو في حرية وجذل مع كل نغمة. كان صامويل كلما فرغ من العزف يُفاجأ بموجة التصفيق الهادرة التي تردّه إلى المسرح دفعةً واحدة. بعد ذلك يذهب باقي أعضاء الأوركسترا إلى إحدى الحانات لاستعادة الحيوية بكؤوس الشراب، بينما يمضي هو سائرًا إلى الشقة التي استأجرها في حيّ المهاجرين الوافدين من الكاريبي. كان يغطّي حقيبة الكمان بغطاءٍ من البلاستيك لوقايته من المطر والضباب، بينما يسير وهو يدندن المقطوعات التي انتهى من عزفها قبل قليل. كانت تلك الساعة والنصف من التمشية بخطى بطيئة في الشارع المعتم أقرب ما عرف صامويل من التسلية.

أمّا في غير أيام الحفلات الموسيقية، فكان يخرج للنزهة أو التجديف في نهر التيمز. ولقد ضلّ طريقه أكثر من مرّة عبْر التلال وباغته ضبابٍ شديد الكثافة وهو في النهر، فاستغرق عدّة ساعاتٍ في العودة إلى نقطة الانطلاق. وجد التمرين في العزلة والهواء الطلق كالموسيقى: لأنّه يبتّ في نفسه سلامًا. أكثر من زيارة السيّد والسيدة إيفانز. لم يكن له أصدقاء في مثل عمره، وسخر من إصرار ليديا على البحث عن خطيبةٍ من أجله. حتى لوك قد سخر منها قائلاً: «اتركيه يا ليديا، فهو ما زال أصغر عمرًا من أن يتزوَّج». بينما ظلّ صامويل أنّه لن يجد امرأة تحبّه أبدًا.

تبدّل كل شيءٍ وهو في الخامسة والعشرين من العمر، عندما استقرّ على السفر إلى الولايات المتحدة في إحدى الإجازات وقد عقد النية على أن يدرس ثقافة الجاز التي اعتبرها الحدث الأكثر أصالةً

في مجال الموسيقى الغربيّة منذ القرن التاسع عشر. افتتن بطاقة الجّاز وحرّيّته، وتلك الجرأة التي يمزج بها شتّى الأساليب ويعيد الابتكار في كلّ مرّة، والإبداع الجامح الذي تميّز به عازفو الجّاز الذين يستغرقون في حالة من السموّ والنشوة. كما افتتن بنبوغ النجوم من أمثال مايلز ديفيس ولويس أرمسترونغ وإيلا فيتزجيرالد وبيلي هوليداي وراي تشارلز وغيرهم كثيرين من الفنانين الذين مضى يستمع إلى أسطواناتهم مرّةً تلو أخرى في حالة من الهوس. شعر بحاجته إلى الاستماع إلى موسيقى الجّاز مباشرة، والذوبان في الإيقاع المُتقطّع، في شجن موسيقى البلوز، بينما تجرّفه تلك القوّة التي لا تُقاوم، قوة الآلات الموسيقيّة وهي تتجاذب أطراف الحديث فيما بينها، وتناديه. ولذا بات لزامًا عليه أن يذهب إلى موطن الجّاز الأصليّ، إلى نيو أورلينز.

ليتيسيا

إلموسوتيه، بيركلي، 1981 - 2000

كانت ليتيسيا كورديرو تحمل الجنسيّة الأميركيّة. وعلى الرّغم من ذلك، فما إن يراها المرء حتى يخمّن أنّها قد جاءت من مكانٍ آخر، بالنظر إلى بشرتها التي تبدو بلون الكراميل، وشعرها الأسود الذي تضمّنه في ضفيرة قصيرة، وملامح السكّان الأصليّين المرتسمة على وجهها. أحياناً تُسأل ليتيسيا إن كانت من إحدى قبائل أميركا الشماليّة، لأنّها تتحدّث إنجليزيّة لا تشوبها لكناتٌ أجنبيّة. لم تبقَ لها جذورٌ في أمكنةٍ أخرى، ولم تُعد لها جذورٌ مُمتدّةٌ إلّا في كاليفورنيا. أخبرها والدها بوجود بعض الأقرباء الذين تربطهما بهم صلة قرابة بعيدة في السلفادور، ولكنها لا تعرف أيّاً منهم. لم يبقَ من الأسرة إلّا هي ووالدها.

كانت ليتيسيا قد وصلت إلى الولايات المتّحدة مُتشبّثةً بأبيها، إدغار كورديرو، الذي عبر نهر غراندي سباحةً في مطلع يناير من عام 1982، بعد

مذبحة الموسوتيه بأربعة وعشرين يومًا. فلما جاءت على ذكر تلك الوقائع. ولم تتحدّث عنها إلى والدها، لأنّ الرجل قد أودع الألم في خزانة محكمة الإغلاق من خزائن الذاكرة مدى الحياة. وحده الصمت يصون الألم، أمّا الكلمات فترقّق الذكريات وتمسخها، وهو لا يريد أن ينسى شيئًا. هكذا فكّر إدغار كورديرو. حتى ليتيسيا لم تذكر شيئًا من ذلك للأمركان، لأنّ أحدًا لا يعلم شيئًا عن الموسوتيه في بلدها الجديد. ولو أخبرتهم، لما صدّقها أحد. في حقيقة الأمر، لا يستطيع تحديد موقع السلفادور على الخارطة إلّا قلة قليلة. بينما صارت المآسي التي شهدتها ذلك البلد القريب وكأنّها تاريخ قديم، تاريخ أمكنة نائية. يتشابه المهاجرون الوافدون من أميركا الوسطى، فكلّهم فقراء، لهم بشرة داكنة، من كوكب آخر، يأتون إلى الحدود من تلقاء أنفسهم، مثقلين بحمولتهم من المشكلات.

تذكّرت أشياء من عهد الطفولة: رائحة الدخان المتصاعد من موقد الحطب، والخضرة الكثيفة، ومذاق الذرة الرقيقة، وجوقة الطيور، والفطائر المُقدّمة على الفطور، وصلوات الجدّة، وبكاء الإخوة وضحكاتهم. لم تنسَ أمّها يومًا، وإن لم تكن لديها إلّا صورة وحيدة لأمّها، التّقطت في ميدان إحدى القرى، حيث تظهر حبلى في ابنها الأول. احتفظت بها ليتيسيا كالأثر المُقدّس في صندوق كان عندها في مقام الهيكل المتنقل، وضعت فيه بضع صور لوالدها أيضًا، وعقد زيجتها الثالثة - الزيجة التي لا يهتمها سواها - ، وأول سنّ تسقط من فم ابنتها، وغير ذلك من الآثار المُقدّسة. أمّا الشيء الذي تذكره بوضوح أكبر من تلك الحقبة فهو المذبحة، مع أنّها لم تكن هناك حين وقعت. ولكنّها راحت تلملم تلك الصور مدى الحياة، وظلّت تبحث وتبحث في محاولةٍ منها لفهم ما جرى. حتى صارت وكأنّها قد عاشت تلك المذبحة، من فرط ما بحثت.

على مدى أجيال، سكنت عائلتها قريةً إلموسوتيه بسلفادور، التي ضُمَّت أكثر من عشرين بيتًا وكنيسةً صغيرةً وبيتًا للكهنة ومدرسة. كان الكوخ المصنوع من الألواح الخشبية والطين حيث سكنت عائلتها يشبه سائر البيوت، ويتألف من حجرتين عاش فيهما الأبوان والأبناء والجدّة. لطالما جاء من الراديو صوت إحدى الإذاعات التي تبث الأخبار والموسيقى الشعبية. وكانت هناك لوحة مرسومة باليد تصوّر أبويها يوم الزفاف، حيث يظهر كلٌ منهما مشدودًا، وقورًا. أضف إلى ذلك تمثالًا صغيرًا من الجصّ لعذراء السلام، شفيعة السلفادور. كان آل كورديرو، شأن سائر أهل القرية، من الإنجيليين، بخلاف سُكّان المنطقة الذين يعتقد أغلبهم الكاثوليكيّة، وإن لم يمنعهم ذلك من الإيمان بعذراء السلام. كانت ليتيسيا تنام فوق حصيرة مفروشة على الأرض مع اثنتين من أشقائها، بينما تنام الجدّة على الفراش إلى جوار حفيدها الذي عجز عن المشي لأنّه قد وُلد بعيبٍ في العظام، ويشارك الأبوان في فراشٍ آخر مع الابنتين الأصغر عمرًا. امتلك آل كورديرو دجاجاتٍ وكلابًا وقططًا وخنزيرًا واحدًا، فكانت الحيوانات تهيم طليقة، وكذلك الأطفال الذين لا يراقبهم أحد. كانوا يلعبون في كهوف الجبال وفي برك المياه ووسط الأجسام. منذ نعومة أظفارهم، كان الأطفال يقدّمون المساعدة في الأشغال المنزليّة وزراعة الأرض. كما رافقت ليتيسيا أمّها لغسل الثياب في النهر، حيث تفرك الثياب بالصابون وتضربها بالأحجار كي تزيل عنها الوسخ بعد أن تنقعها في ماء الرماد طوال الليل. كانت الصغيرة تذهب إلى المدرسة سيرًا على قدميّها وهي تحمل بيديها الصندوق الذي لا تملك سواه حتى لا يبلى، ثم تنتعله متى وصلت إلى هناك. كثر الطُلاب في تلك المدرسة الصغيرة، لأنّهم يحضرون من القرى القريبة. في حين خلّت المدرسة إلّا من

مُعَلِّمةٌ وحيدة، تعلَّمهم نصوصًا مكتوبةً على أوراقٍ اصفرَّت بمضيِّ الأعوام، وتفرض الاحترام بنظامٍ قائم على المكافأة بالحلوى والعقاب ضربًا بالمسطرة على راحة اليد. اُشتغل أبوها بالزراعة شأن باقي الرجال في تلك الأمكنة، وامتلك قطعة أرضٍ زرع فيها الذرة واليوكا والأفوكادو بالاشتراك مع الجيران. قال إنَّهم فقراء، ولكنَّهم أقلُّ فقرًا من غيرهم، لأنَّهم ليسوا مُضطَرِّين إلى العمل حتى تنقضم ظهورهم في مزارع القهوة الخاصَّة بمُلاك الأراضي، كما أنَّهم لا يتصوِّرون جوعًا. كان قدَّاس الأحد هو الحدث الأسبوعي، علمًا أنَّ الأحد هو يوم العطلة الذي يرتدون فيه ثياب الخروج ويتغنَّون بالأناشيد ويصلُّون تقرُّبًا إلى يسوع ويبتهلون حتى تلد الحيوانات ويبرأ المحصول من الآفات، وحتى يتركهم المقاتلون وعناصر حرب العصابات في سلام. كما ابتهل آل كورديرو من أجل ليتيسيا التي أُصِيبَتْ منذ شهورٍ بمغصٍ لم يخفَّف منه الينسون والنعناع والبقدونس المغلي. كانت معموديَّة الأطفال في الثامنة من العمر أهم الاحتفالات التي يحييها الناس بالخروج في المواكب صباحًا، ثم بطقوس الغمر في ماء النهر، ثم بالموسيقى والأطعمة والرقص ليلاً. وتمهيدًا لتلك المناسبة صنعت الجدَّة ثوبًا أبيض حتى ترتديه ليتيسيا في العام التالي.

اشتدَّت آلام الطفلة أسبوعًا تلو أسبوع، فعزفت عن الطعام وصارت تستغرق في النوم طوال الوقت وتمضي كالمُسرَّنة، بينما انتفخت معدتها. بلغت من الوهن حدًّا جعلها تُعفى من غسل الثياب مع أمِّها أو مساعدة جدِّتها في المطبخ، وإن لم يُسمَح لها بالتغيُّب عن الدروس. ذات مرَّة تقيَّأت في فناء المدرسة، فرافقتها المُعلِّمة مساء ذلك اليوم إلى البيت كي تتحدَّث إلى والدها.

- دُون إدغار، ابنتك تلفظ دمًا من فمها. إنَّه شيءٌ في غاية الخطورة.

- تتقياً في بعض الأحيان. لقد فحصها طبيب الحكومة، الذي مرّ من هنا قبل أربعة أسابيع أو خمسة، على ما أذكر.

- وماذا قال لك؟

- قال إنّها مصابةٌ بعسر هضم وأنيميا. كما وصف لها قطرةً وأوصاها بتناول الكثير من اللحم والفاصوليا، ولكن كلّ شيءٍ يصيبها بوعكة. ما زالت على حالها. بل ويسعني القول إنّ حالها قد ساءت يا سيّدي المعلّمة.

- لا بدّ من حملها إلى المستشفى.

- ولكن ذلك شيءٌ باهظ التكلفة، سيّدي المعلّمة.

- سنرى ما يمكن عمله. - أجابت.

وفي يوم الأحد، عرض راعي الكنيسة المُتنقّل وضع الفتاة على الحضور في الكنيسة. وكما جرّت العادة كلّما جدّت حالةٌ طارئة، أسهم كلّ منهم بأقصى ما يمكنه الإسهام به في صندوق التبرّعات التي رُصدت كاملةً لدفع تذكرتين بالحافلة وجزءٍ من تكاليف السفر. أعدت الجدّة شنطةً بأفضل ثياب الطفلة، حتى تذهب إلى العاصمة بصورةٍ لائقة. كما أعدت سلّة طعامٍ مُزوّدةً بالخبز والجبن ونصف دجاجةٍ محمّرة. لم تتمكّن الأمّ من المساعدة في التجهيزات إلّا قليلاً جدّاً، لأنّها قد خرجت قبل وقتٍ قصيرٍ من ولادةٍ شاقّةٍ طويلةٍ تركتها في غاية الإجهاد، ولكنّها رافقت زوجها وابنتها إلى محطة الحافلة. كما وصل بعض الجيران وراعي الكنيسة والمعلّمة في الوقت المناسب لوداعهما. وبعد تلاوة صلاةٍ قصيرةٍ من أجلهما، قدّم الراعي إلى ليتيسيا صليباً صغيراً من البلاستيك، وأوضح لها أنّه يضيء في الليل كما يتوهّج حبّ يسوع في زمن العتمة.

كان من المحتمل أن تجد ليتيسيا مشقّة بالغّة في الرحلة بالحافلة المزدحمة بالركّاب الكبار والأطفال والدجاجات الحيّة والصّرر بكلّ صنوفها عبّر الطرقات الملتوية التي تنتشر فيها الحفر. ولكنّ المعلّمة أعطتهما قارورةً من مُهدّئ الناردين الذي تتناوله لعلاج الأرق. تناولت الطفلة منه جرعة، فاستغرقت في النوم طوال ساعاتٍ مُتّكئةً على أبيها. بعد ذلك سمحت لها جرعة ثانية من المُهدّئ بمواصلة النوم في المدينة، عندما اضطرّا إلى المبيت على دكّة بأحد الميادين.

وفي المستشفى، قيل لهما بضرورة التسجيل من أجل الحصول على موعدٍ بعد شهرين. ولكن في تلك اللحظة بالتّحديد، بينما كان إدغار كورديرو يعبّي الاستمارة، أتت رجرجة الحافلة مفعولها بأثر رجعيّ، فإذا بالابنة تسقط على ركبتيها وتقيأ دماً عند قدمي موظفة الاستقبال. سرعان ما حُمِلت الطفلة على سرير المستشفى. فرآها والدها تغيب عن الأنظار خلف أحد الأبواب. وبعد ساعاتٍ طوال، علم أنّ ليتيسيا كانت مُصابةً بقرحةٍ ثاقبةٍ في المعدة، وأنّها قد خضعت لجراحةٍ عاجلة. أوضحوا له أنّها قد فقدت كثيراً من الدماء، وصارت في حاجةٍ إلى نقل دم، وأنّها سوف تبقى في المستشفى إلى حين استقرار الحالة. قيل له إنّّه لا طائل يُرتجى من الانتظار، والأفضل أن يتّصل بعد أيّامٍ ليتحقّق من إمكانيّة إخلاء سبيلها من المستشفى. سُمح له برؤيتها لبضع دقائق، ولكنّ الطفلة ما زالت غائبةً عن الوعي تحت تأثير المخدّر، فلم يملك إلّا أن يطبع قبلةً على جبينها مُبتهلاً إلى يسوع حتى يشملها بالحماية.

مضى إدغار كورديرو يطلب من قادة الشاحنات توصيله في طريقهم حتى يرجع إلى القرية، لأنّه لا يستطيع استخدام تذكرة الحافلة ويجب عليه الاحتفاظ بها لرحلة العودة مع ليتيسيا.

بعد الجراحة التي خضعت لها ليتيسيا بيومين، كان بطنها مُضَمَّدًا، بينما انتشرت في ذراعَيْها الرضوض بتأثيرٍ من الإبر التي تلَقَّتها تحت الجلد وإبر القنية الطَبِّيَّة. ولكنَّها بدأت تأكل الطعام المهروس وتسير في الأروقة مُسْتِنْدَةً إلى العُكَّازِ عدَّةَ مرَّاتٍ كُلَّ يومٍ لتقوية الساقين، كما طُلِبَ منها. في البدء أصابها دوار، وأحسَّت بركبتيَّها رخوتين وكأنَّهما من الجيلاتين، غير أنَّها لم تتراجع، لأنَّها عقدت العزم على التعافي سريعًا حتى تعود إلى أسرتها. ومضت تنتظر بفارغ الصبر أن تحمل شقيقها المولود حديثًا بين ذراعَيْها.

قدَّم ذلك المستشفى العام خدماته إلى منطقةٍ شاسعة، فقيرة الدخل، ولذا كثر المرضى وشحَّت الموارد وبات الأطباء في عجلةٍ من أمرهم طوال الوقت. في حين لم تقدر المُمرَّضات المرهقات اللاتي يتلقَّين أجرًا هزيلًا على مواكبة ضغط العمل الشديد. تقشَّرت الجدران بفعل الرطوبة، وانتشرت بقع الأكسدة في الحمامات، وفاضت حاويات القمامة بمحتوياتها. بينما اهترأت الملاءات إلى حدٍّ جعلها تبدو شفَّافة، هذا في حال توافرت الملاءات من الأساس، لأنَّ بعض الأسيرة قد خلَّت إلاً من غطاء بلاستيك تُفرَّش به المرتبة. اضطرَّ المرضى إلى الانتظار شهرًا لتلقِّي العلاج، المصير الذي كان ينتظر ليتيسيا لولا أنَّها قد غرقت في الدماء يومذاك. وعلى الرِّغم من ذلك، فلقد تميَّزت الرعاية الطَبِّيَّة بالجودة، الأمر الذي عوَّض ضعف إمكانيَّات المستشفى.

كانت ليتيسيا هي الطفلة الوحيدة في جناح الكبار الذي لم يعرف الصمت أبدًا، لأنَّه شهد حركةً مستمرةً من جانب الموظَّفين وكأنَّه سوق. ومع ذلك، شعرت ليتيسيا بالوحدة وكأنَّها في أحد الكهوف حيث كانت تلعب الغميضة مع باقي الأطفال. ألفت حضورَ

أسرتها والنوم إلى جوار أشقائها، وتعوّدت على حدود الكوخ والقرية. حنّت إلى أمّها، وخافت أن يقع لوالدها شيء يمنعها من الذهاب إليها. أرادت التحقّق من إضاءة الصليب في العتمة. ولكن ذلك المكان لا يعرف الليل، لأنّ المصابيح تبقى مُضاءة طوال الوقت. كانت تبكي في صمت، حتى لا تزعج أحداً.

وفي اليوم الخامس أُخلي سبيلها من المستشفى، فراحت تنتظر والدها وهي تحمل شنطة الثياب، بعد أن اغتسلت وجدّلت ضفائرها كالمعتاد واستعاضت عن الضمادة الكبيرة بلاصقي على بطنها. ودّعت مُوظّفي المستشفى والمرضى في الجناح وهي تستعجل الذهاب. وصل أبوها، فكادت لا تتعرّفه. إذ جاء كالشخّاذ القذر، بشعرٍ أشعث ولحية خفيفة، وقد ارتسمت على وجهه أمارات الرعب وكأنّه قد أبصر الجحيم بعينه. قطعت المُمرضةُ المسؤولة عن الطابق روحاتها وغدواتها لحظة لتخبر إدغار كورديرو بالتعليمات الضروريّة. قالت له إنّ مرحلة النقاهة تسير على خير ما يُرام، ومن المُتوقّع أن تتعافى ليتيسر تماماً في غضون أسبوعين شريطة الاهتمام بالتغذية والراحة. كما أوصت بالأكل تبذل جهداً كيلا تنفتح الغرز.

- لا أحسّ بأيّ ألمٍ يا بابا. يمكنني أن أتناول الطعام من دون أن أتقيأ. - أردفت الصغيرة.

أمسك إدغار بيدها حاملاً الشنطة على كتفه، وخرج إلى ضوء الظهيرة المُتوهّج.

- بابا، أعود إلى البيت بالحافلة نفسها؟

- لن نعود أبداً يا ليتي. - أجاب والدها وهو يغصّ بالبكاء العميق الذي قطع صوته.

بعد أعوامٍ طوال، عَزَمَت ليتيسيا على التحقُّق بقدر الإمكان من أحداث ديسمبر من عام 1981، ذلك الشهر المُرَّوع الذي حدَّد شكل حياتها. قَضَت الضرورة بالانتظار أطول من عقدٍ كاملٍ حتى تنجلي الحقيقة رويدًا رويدًا، فليس من مصلحة حكومة السلفادور أو حكومة الولايات المتَّحدة أن تُعرَف تفاصيل ما حدث في الموسوتيه وغيرها من قرى المنطقة. قُوبِلَت المذبحة بالإنكار، كما حُظِر التحقيق في الواقعة لحماية القتلة. ارتكَبَت المذبحة الداميةَ فرقةً من العسكريين الذين درَّبَتهم السي أي إيه في «مدرسة الأميركتين» سيئة السمعة، التي تقع في بنما، لمكافحة مُتمرِّدي جبهة فارابونديو مارتني⁽¹⁾. أمَّا تدخُّل الأميركان دفاعًا عن مصالحهم السياسيَّة والاقتصاديَّة، فلقد سمح بالقمع الدامي الذي تكبَّده البلد طوال أعوام. في واقع الأمر كانت حربًا على الفقراء - كما حدث في بلادٍ أخرى إبَّان الحرب الباردة - ، بغرض استئصال الحركات اليساريَّة من الجذور، ولا سيما حركات حرب العصابات.

لم تضمِّ الموسوتيه أيًّا من عناصر حرب العصابات، بل إنَّها قد خلَّت إلَّا من أهالي القرية المزارعين، وكثيرٍ من أهالي سائر القرى علمًا منهم أنَّ الجنود قادمون، وظنًّا بأنَّهم سوف يكونون بمأمنٍ في الموسوتيه. وإن خاب ظنَّهم. ففي العاشر من ديسمبر جاء جنود كتيبة أتلاكاتل بالمرحليَّات يحدوهم غضب الحروب. وما هي إلَّا دقائق معدودة حتى احتلُّوا عدَّة قرى في المنطقة. كانت المهمَّة التي عُهد بها إليهم تقضي بترويع المجتمعات الريفيَّة حتى لا تدعم المُتمرِّدين. وفي اليوم التالي، فرَّق الجنودُ أهالي القرية، الرجال إلى جانبٍ والنساء إلى جانبٍ آخر والأطفال في بيت الكاهن، الذي كان يُطلَق عليه «الدير». شرع

1 - فارابونديو مارتني (1893 - 1932): مُتمرِّدٌ وناثُرٌ شيوعيٌّ من السلفادور.

الجنود يعذبونهم بحثًا عن معلومات، وحتى الأطفال لم يستثنوهم من التعذيب. اغتصبوا الفتيات ثم أعدموا الجميع، بعضهم رميًا بالرصاص وبعضهم الآخر بنصل السكين أو الساطور. بل إنهم قد أحرقوا بعض القرويين وهم على قيد الحياة. أمّا الأطفال فلقد طعنهم الجنود بحِراب البندقيات، ثم أطلقوا عليهم نيران المدافع الرشاشة وأحرقوا الدير، حتى صارت الأجساد الصغيرة المُتفحّمة عصيّة على التمييز. وبدماء أحد الأطفال، كتبوا على جدار المدرسة: «مع كلّ طفلٍ قتلٍ نتخلّص من رجل عصابات». حتى الحيوانات أُرذوها قتيلة، وأضرَموا النار في البيوت والحقول، ثم تركوا الجثث مبعثرةً والجمر مشتعلاً. أتمّ الجنود مهمّتهم على أكمل وجه: وطمسوا أكثر من ثمانمائة شخصٍ من الوجود، نصفهم أطفالٌ يبلغ مُتوسّط أعمارهم ستّة أعوام. وقضوا على كلّ شكلٍ من أشكال الحياة هناك.

شهد عقد الثمانينيّات عمليّاتٍ كثيرةً من هذا القبيل إبان الحرب الأهليّة التي استمرّت اثني عشر عامًا وأسفرت عن خمسةٍ وسبعين ألف قتيل، أغلبهم قُتلوا على أيدي الجنود.

وصل إدغار كورديرو إلى قريته بعد أن مرَّ يومان على المذبحة التي وقعت بينما كان هو وابنته في العاصمة. انسحب الجنود، ولم يُعدّ هناك سوى الجثث التي تتعفّن تحت أشعة الشمس ويحوم حولها الذباب. وهكذا عرف بما حدث من دون أن يُخبره أحد. لم تعرف ليتيسا ما إذا تمكّن والدها من دفن أمّها وأشقائها وجدّتها، لأنّه لم يخبرها بما رأى قطّ. «الأفضل ألاّ تعرفي»، هكذا كان يجيبها كلّما سألت.

وحين أخلي سبيلها من المستشفى، لم يُدلّ أبوها إلّا بتفسيرٍ واحد، قال فيه إنّ الجنود قد داهموا القرية ولم تُعدّ الأسرة على قيد

الوجود. والآن بات لزامًا عليهما السفر بعيدًا، وبدء حياة جديدة. لم تفهم الصغيرة مدى جسامه المأساة، ولكنها أحسّت بها وكأنّها خواء عظيم في منتصف الصدر. لم تكن في حالة تسمح لها بالذهاب في تلك الرحلة التي خطّط لها والدها، فاضطرّوا إلى البقاء لأكثر من أسبوعين في المدينة حيث لا يعرفان أحدًا، بلا نقود. التجأ الأب والابنة إلى كنيسة إنجيليّة، وفرت لهما ملاذًا للمبيت ليلاً، كما وفرت لهما فطورًا من القهوة والخبز، وإن لم يُسمح لهما بالبقاء هناك نهارًا. كان إدغار يترك ابنته في ظلّ الأشجار بأحد المنتزهات، ويخرج باحثًا عن أيّ عملٍ مُتاح ليجني ما يكفي لسدّ الرمق بالكاد. وبينما هي جالسة وسط الأشجار، وحيدة، جائعة، مضت ليتيسيا تستردّ عافيتها بالقدر الذي يسمح بالبدء في المسيرة إلى الشمال.

قطعا معظم المسافة سيرًا، كما طلبا من قادة الشاحنات أن يأخذوهما في طريقهم، وتسلفًا أسطح قطارات الشحن لأنّهما لا يحملان نقودًا لتذاكر السفر، وأكلا ممّا يجود به المحسنون والكنائس والملاجئ التي تساعد المهاجرين. في بعض الأحيان كان يُسمح لهما بالبقاء يوميًا أو يومين في فناء أحد الملاجئ، حيث يُقدّم إليهما صحن من الطعام الساخن وخرطومٌ للاغتسال بالماء. وفي مرّاتٍ أخرى كانا يبيتان ليلتهما متعانقين في إحدى الأراضي الخلاء التي يلوذ بها مسافرون آخرون مثلهم، يتعاونون فيما بينهم على الاحتماء من المعتدين ورجال العصابات وملاحقة الشرطة. لم يكن لديهما مُرشد - أي مُهرّب - يدلّهما على الطريق، فتبع تيار المهاجرين من الرجال والنساء والأطفال على أمل الوصول إلى الشمال. كانا أبطأ من أغلب المهاجرين بسبب ضعف ليتيسيا. واضطرّ والدها إلى حملها على كتفيه والسير مدفوعًا بالألم والغضب في أجزاءٍ من الطريق. أمّا عبور نهر غراندي في الليل، وهي

مشدودةً بالحبل إلى صدر أبيها الذي تشبَّث بإطارٍ من المطَّاط بكلتا يَدَيْهِ، فكانت واحدةً من ذكرياتها الأشدَّ هولًا. في تلك الرحلة فقدت ليتيسيا الصليب الذي يضيء في العتمة. وصارت تستيقظ في بعض الأحيان صارخة، وقد تملَّكها إحساسٌ حيٌّ بالخوف والبرد والعتمة والصمت والصلوات وتيار الماء الجارف.

كانت أيامها الأولى في الولايات المتَّحدة عصبية. استطاع إدغار كورديرو أن يحصل على بعض الأشغال هنا وهناك، في حصاد الفاكهة وصنع الأجر وحمل الجوانات. ولكن شيئًا لم يستمرَّ. أكثرًا من التنقُّل، وسكنا مع عائلات المهاجرين أو في غرفٍ تعيسةٍ بالإيجار، وهما على أتمَّ استعدادٍ للمغادرة من جديدٍ برغم انتظام الطفلة في الدراسة دائمًا. لم يَكُن والدها يغضب منها ما لم تحصل على درجاتٍ ضعيفة. ولم يضربها إلا مرَّةً يتيمة، حين سرَّقت طلاء شفاهٍ من السوبرماركت.

ساعدتهما الكنائس الإنجيليَّة المُخصَّصة للجالية اللاتينيَّة. كانت كنائس جَوَّالة، مثل مرتاديهما من المهاجرين الذين لا يحمل أكثرهم أوراقًا، ويتنقَّلون من مكانٍ إلى مكانٍ بحثًا عن عمل. وسط أولئك الذين يشاطرونه الإيمان وجد والد ليتيسيا سلوئًا، فصار يحضر الطقوس الدينيَّة عدَّة مرَّاتٍ كلَّ أسبوع، ويصرَّ على قراءة كتابه المُقدَّس بالإسبانيَّة. لم تحظ ليتيسيا ووالدها بحياة اجتماعيَّة سوى تلك التي عاشاها من خلال الطقوس الدينيَّة، فهناك شعر كلاهما بأنَّه جزءٌ من أحد المجتمعات، ولم يعودا وحيدَيْن. ساعد أفراد ذلك المجتمع بعضهم بعضًا، ونظَّموا الأنشطة الرياضيَّة للأطفال، وورش الخياطة، ومباريات لعبة البينغو للكبار، وفطور يوم الأحد الذي تُقدِّم خلاله الفطائر والشكولاتة الساخنة، ولقاءات الإقلاع عن الكحول، وأكثر من ذلك بكثير. كان راعي الكنيسة يستقبلهما على الباب، والناس يبادرونهما

بالتحية. عرف بعض الحضور اسميهما، وسألوهما إن كان ينقصهما شيء. تذكر ليتيسيا التراتيل التي كانوا ينشدونها بحرارة، فأصبحت لا تفارق ذاكرتها. قال راعي الكنيسة إنَّ الرَّبَّ يحبُّ الجميع، بغضِّ النظر عن لون البشرة، ولكنه يرفض الأثمين. وفي نهاية الطقس الديني، كان يدعو أولئك الذين ينبغي لهم الاعتذار أو طلب المغفرة من الآخرين أو الصفح عنهم حتى يتقدّموا إلى الأمام. عندئذٍ يتقدّم نصف الحاضرين، فيتعانق الناس، ويدخل بعضهم في نوبةٍ وقد غلبتهم العواطف الجياشة. في حين يبكي إدغار لأنّه لا يملك الصفح عن قتلته أسرته.

لم يجد والد ليتيسيا سوى الأشغال الأبخس أجراً، فهو لا يحمل أوراقاً ولا يتكلّم الإنجليزّيّة، بل إنّ ابنته تترجم من أجله. لم يدرس الرجل إلّا بضعة أعوامٍ في المرحلة الابتدائيّة، ولكنه يأمل أن تتعلّم ابنته، ويؤمن بأنّها سوف تحصل على منحةٍ دراسيّةٍ بنعمة يسوع.

وفي أشدّ فترات العوز، تعرّفا بكروس توريس، ذلك المكسيكيّ الذي يعيش في الولايات المتّحدة منذ أعوامٍ طوالٍ ويقود فريقاً من اللاتينيّين، ويعمل في مجال الإنشاء. أتقن كروس استخدام الإسمنت والأجر والخشب والحجر، كما أجاد السباكة وأعمال الكهرباء، وعرف كيف يستبدل الأسقف وينشئ المسابح. أخذته شفقةٌ بإدغار، ذلك الرجل الصموت الحزين الذي فقد كلّ شيء، ولكنه يتشبّث بابنته وكأنّها طوق نجاة. خمّن أنّ ليتيسيا هي السبب الوحيد الذي ما زال الأب يعيش من أجله. وفي حماية كروس توريس، تحسّن وضع إدغار كورديرو. كانت شركة كروس الصغيرة تقع في شمال كاليفورنيا، فأقنعه بالذهاب إلى هناك مُتعهّداً له بالألّا ينقصه العمل. كما وجد له بيتاً من حجرتين بسعرٍ ممتازٍ في بيركلي، إذ ضمّت المدينة بعض البيوت ذات

الإيجار المُثَبَّت بموجب القانون. كان البيت أشبه بحظيرة في أرذل العمر، وإن وجده إدغار وابنته قصرًا منيفًا.

بدلاً من إتمام الدراسة، هربت ليتيسيا مع حبيبها الأوّل قبل الانتهاء من الدّراسة في المرحلة الثّانويّة. وعلى الرّغم من الفقر والانفصال عن الجذور والصدمة التي تعرّضت لها في حياتها، كانت ليتيسيا فتاةً في غاية اللطف، تتحدّث إلى الغرباء في الشارع وتبدي استعدادًا دائمًا للاحتفال ويجري الإيقاع في دمائها. وقعت في حبّ شابّ أميركيّ أشقر، رياضيّ، مولع بالحفلات الصاخبة مثلها، واستحوذ عليها ذلك الشغف المُطلَق المعهود في عمر السادسة عشرة. في واقع الأمر، قابلته ليتيسيا بحانة لا ينبغي لها أن تدخل إليها، أوّلاً لأنّها قاصر، وثانيًا لأنّ والدها لو عرف لأصابته أزمةٌ قلبيّة. كان في غاية الصرامة، يلتزم بتعاليم دينه الأخلاقيّة بحذافيرها، تلك التعاليم التي تحظر الكحول والموسيقى الشعبيّة والثياب المثيرة وحمّامات السباحة العامة والرقص بأشكاله كافّة.

- من الجائز أن تحمل فتاةً عذراء لمُجرّد أنّها تسبح مع الرجال!
- قال مُحدّرًا.

- أوه، بابا! في حمّامات السباحة كثيرٌ من الكلور، ولذا لا ينجو واحدٌ من تلك الكائنات في الماء. - أجابت ليتيسيا، وإن لم تكن مُتأكّدةً من صحّة كلامها.

أمّا ذلك العشيق، الذي يحترف السباكة ويدمن الكحول، فلقد حصل على شهادة ميلادٍ زائفةٍ ورد فيها أنّ ليتيسيا أكبر من عمرها الحقيقيّ بعامين حتى يتسنّى لها الزواج. وفي وقتٍ لاحقٍ ثبت أنّ تلك الحيلة كانت هديّةً من العناية الإلهيّة، لأنّها سمحت لهما بالافتراق من

دون الحاجة إلى الخوض في إجراءات الطلاق. لم يُعترف بتلك الزيجة قط، وإن اكتشفت ليتيسيا ذلك بعد وقتٍ طويل، بعد أن نفذ صبرها.

خدعت الشابة أباهَا مَرَّتَيْن، مرّة حين تركت المدرسة وولّت هاربة، ومرّة حين تخلّت عن الدين. «حتى إن هجرت يسوع، فهو لن يهجرِكَ أبدًا»، راح يكرّر عليها، ويصلي جاثيًا على ركبتيه من أجل خلاص ابنته. ولكن الدّين رهْنٌ بالآيمان، وهي ليست مؤمنة. بل إنّها كثيرة السؤال. وعلى الرّغم من ذلك، فلقد آمنت بقدرة القدّيس يهوذا في الحالات الميؤوس منها، والقدّيس كريستوفر شفيع المسافرين. كانت تحمل رسمًا له في الحافظة حتى ينجّيها من الحوادث. تركت ليتيسيا الطائفة لأنّها لم تحتمل أن يخبرها راعي الكنيسة كيف تفكّر وكيف تعيش، ولمن تصوّت في الانتخابات أيضًا. أراد أحدهم أن يرغمها على احتمال زوجها السبّاك الذي كان يضربها لأنّ الرّب لا يقبل المرأة الهوائية المكابرة التي تحسب نفسها ندًا للرجل، علمًا أنّ الكتاب المقدّس قد حسم المسألة بكلّ وضوح، إذ ورد فيه أنّ: حواء قد خُلقت من ضلع آدم، ولذا فهي مدينة له بالخضوع. مع أنّ راعي الكنيسة يبدي قدرًا أكبر من التساهل مع الرجال.

ما لبث أن تحوّل شغف الزوجين المُتوهّج إلى عدوانية: فدبت بينهما الشجارات بسبب الغيرة والنقود وسُكر الزوج، ولأنّها قد سئمت تقليب الهامبرغر في ماكدونالدز والعيش مديونةً بينما هو يبذّر راتبه. خلاصة القول إنّ أيّ ذريعة باتت صالحةً لاندلاع الشتائم والصيحات والضربات. كانت للسبّاك مسيرة قصيرة جدًا في رياضة المصارعة الحرّة، خرج منها بأنفٍ مكسور، وعدّة وشومٍ قاتمةٍ تصوّر التنانين والأرواح الشريرة، ونزعة لا تُقاوم إلى العنف. لم تستمرّ العلاقة إلّا قليلًا، فسرعان ما أدركت ليتيسيا أنّها تعيش مع رجلين. أولهما يعرفه الجميع، مُحبّ

للصخب، خدوم، كريم، يجني مالاً وفيراً من حرفته، ولكنه لا يدخر لأنّ لديه استعداداً دائماً للمراهنة وإقراض الأصدقاء وشراء الأغراض الزائدة عن الحاجة. وقعت ليتيسيا في حب تلك النسخة من الرجل، قلب الحفلات النابض. ولكنها اكتشفت أنّه يحمل في داخله وحشاً رابضاً، يظهر على السطح تحت تأثير الكحول. لم يلاحظ عليه بوضوح أنّه يعاقر الكحول بتلك الكمّيات، وأنّه في بعض الأحيان يؤدّي واجباته وهو تحت تأثير الشراب طوال أيام. ولكنه متى غرق في قاع القارورة، بات وحشاً مخيفاً. لأنّ الشراب يضرّم في نفس الرجل غضباً عصياً على السيطرة، سبق أن استغلّه في حلبة المصارعة الحرة. أمّا في الحياة العادية، فلم يجد مخرجاً للتنفيس عن ذلك الغضب الذي يتراكم في الأوردة. وهكذا عاشت ليتيسيا وهي تراقبه لرصد علامات السكر الخطيرة، وإلا أوسعها ضرباً إن لم تنجح في النجاة بنفسها في الوقت المناسب. تحمّلت طوال عامين على أمل أن يتغيّر، كما يتعهّد إليها كلّما تصالحا. حتى كانت تلك الليلة حين همّ بضربها، فإذا بها تنقضّ عليه مُندفعةً كثيران المصارعة، وعاجلته بضربة رأسٍ هائلة في صدره. بُوغت الرجل، واختلّ توازنه، فسقط بظهره على طاولة المطبخ المصنوعة من الجرانيت. ارتطم مؤخّر عنقه. وظلّ جامداً، مضرباً بالدّماء. أمّا هي ففقطعت اثنين وعشرين مُربّعاً سكنيّاً بخطى واسعة، في الطريق إلى أبيها. لم يخطر لها على بالٍ أن تطلب النجدة. رآها والدها تصل وقد خيم عليها هدوءٌ غامر، وتلطّخ حذاؤها بالدماء، في ساعةٍ متأخرة. قالت إنّها قد أردت زوجها قتيلاً. ثم اتّضح أنّه لم يمُت، كلُّ ما في الأمر أنّه قد سقط مغشياً عليه. وبدءاً من تلك اللحظة، بات الرجل يحترمها. فلم يجرؤ على الاعتراض حين أخبرته بأنّها سوف تهجره. ومن ذلك الوقت فصاعداً لا رآته ليتيسيا ولا سمحت لأحدٍ بأن يهددها مرّةً أخرى.

ثم جاء رجلٌ آخر ليشغل محلَّ السِّبَّاك. تزوَّجته ليتيسيا من دون حاجةٍ إلى شهادة ميلادٍ زائفة. ولكنَّه سرعان ما اختفى من حياتها بدوره. تعرَّفت به في المطعم حيث عمل كلاهما نادلاً. كان رجلاً طيِّباً، غير أنَّه بعد الزواج بشهورٍ قليلةٍ تورَّط مع امرأةٍ أخرى «ساقطة ومبتذلة»، حسبما وصفَتها ليتيسيا في المرَّات النادرة التي جاءت فيها على ذكر تلك المرأة. في الواقع لم يترك لها ذلك الزوج إلَّا ذكرياتٍ شديدة الندرة، إلى حدٍّ جعلها تنسى حتى اسمه بمضَيِّ الأعوام.

لم تعرف ليتيسيا عن السلفادور سوى أقلَّ القليل، واقتصرت معرفتها بذلك البلد على الأشياء التي تسنَّى لمُعَلِّمة المدرسة الريفية في الموسوتيه أن تعلِّمها إيَّها. ولكنَّها اكتشفت ذلك البلد في المكتبة العامة. فهناك، وعن طريق الإنترنت والكتب والمجلَّات، شاهدت مئات الصور ورأت المساحات الخضراء الاستوائية والمياه في كلِّ مكانٍ والفاكهة والأزهار التي تبدو بألف لونٍ والجبال والبراكين والمحيط الهادي الأزرق. قرأت كتاباً عن الطيور يظهر على غلافه طائر المظموط، الطائر الوطني للسلفادور، بريشه اللامع وذيله الطويل. لم يُعد شيءٌ واحدٌ يربطها بتلك الأرض، وإن صار لها كثيرٌ من الأصدقاء القادمين من السلفادور بمنطقة الخليج، في نطاق مجتمع المهاجرين. وهكذا تمكَّنت من الحفاظ على اللهجة وبعض التقاليد والموسيقى والطعام، غير أنَّها لم تشاطرهم الحنين إلى الوطن. كثيرٌ منهم يزور عائلته كلَّ عام. أمَّا هي فلم تذهب إلى هناك سوى مرَّةٍ واحدة. «وماذا أفعل هناك؟»، هكذا كانت تردُّ كلَّما سألها أحدهم. لم يَكُن لها أهلٌ ولا معارف، كما بلغها أنَّ الوضع خطير. بعد توقيع معاهدة السلام بين الحكومة وحركة حرب العصابات عام 1992، انتهت الحرب رسمياً، وإن لم ينتهِ العنف. كان

أولئك المجرمون ومهزّبو المخدرات - الذين امتلأت أجسادهم بالوشوم من الرؤوس إلى الأقدام واكتظّت بهم السجون - ينتمون إلى عصابات مارا سيئة السمعة، التي لم تتمكّن حكومة واحدة من تفكيكها.

في الثانية والعشرين من العمر، بين السبّاك مدمن الكحول والنادل الذي غادر مع الساقطة، سافرت ليتيسيا إلى السلفادور. أبى والدها أن يرافقها، وهو الذي أقسم ألاّ يطأ بقدمه تلك الأرض المضرجة بدماء عائلته مرّة أخرى. حاولت ليتيسيا أن تحدّد مواقع بعض الأقرباء، علماً منها بوجود أبناء عمومية تجمعهم بها صلة قرابة بعيدة. ولكنّها لم تبقَ هناك وقتاً كافياً للبحث عنهم. ذهبت إلى الموسوتيه مباشرة لمواجهة الذكريات والكوابيس.

وجدت مرشداً على استعدادٍ لمرافقتها إلى قرية العائلة، ولكنّه أخبرها بأنّها لن تجد شيئاً هناك. ظلّت الحكومة تنكر المذبحة لأكثر من عشر سنوات، فتخلّصت من الأدلّة وأخرست التقارير التي أدلى بها الناجون على استحياء. وعلى الرّغم من ذلك، فلقد ذاعت الأخبار القائلة بانتهاء الحرب الأهليّة. لأنّ الناس جميعاً يذكرون ما حدث في تلك المنطقة. وصلت ليتيسيا والمرشد إلى المنطقة بالحافلة، ثم اضطرّاً إلى مواصلة الطريق سيراً. ميّزت ليتيسيا المنظر، مع أنّ الخضرة صارت أشدّ كثافةً بكثير، والجوّ أشدّ حرارةً ممّا تذكره. استغرقا وقتاً طويلاً في السّير، ومضيا يشقّان طريقهما في بعض المناطق لأنّ الدرب يغيب بين حينٍ وآخر، ولكنّ المرشد يحفظ المسار. أخبرها بأنّه كان في العاشرة من العمر حين وقعت المذبحة، ولكنّه قد نجا بحياته مُختبئاً في التلال التي لاذ بها القرويون خلال الحرب الأهليّة. كان الجنود يحضرون كلّ شهرين أو ثلاثة أشهرٍ لتنفيذ واحدةٍ من عمليّاتهم المشؤومة، وعندئذٍ يهرول الناس إلى الكهوف. قال لها إنّ ذلك الوضع قد استمرّ لسنوات،

فكبر وهو في حالة دائمة من الهرب، وما عاد يملك أن يبقى ساكنًا. هو أيضًا قُتِلَت عائلته كاملةً في الشهر نفسه، ديسمبر من عام 1981. نفَّذ الجنود الأوامر، ونكّلوا بالقرويين، لأنَّ أحدًا لن يحاسبهم على ما اقترفوا.

- لماذا قتلوا الأطفال؟ حتى وحوش الجبال لا ترتكب فظائع من هذا القبيل. لقد ارتكب تلك المذابح رجالٌ من القرويين الفقراء، مثل الضحايا.. - قال لها.

لم تجد ليتيسيا لماضيها أدنى أثر. لم تجد أثرًا واحدًا لأُمّها وإخوتها وجدّتها. وفي ذلك الموضع الذي شغلته قريةٌ صغيرةٌ في الماضي، لم تبقَ سوى عظام مطمورة تحت الأرض أو متشابكة بالأعشاب، وبقايا بعض الأكواخ. لم يُعد هناك أحد. سرى في الهواء طنين الحشرات وهمس الأرواح الضائعة. وبكاء الأطفال. ولكنّه ربما كان صوت النسيم الذي يمرّ من خلال القصب.

فارق إدغار كورديرو الحياة بعد أن ارتبطت ليتيسيا بزوجها الثالث، بيل هان. لم يسعفه الوقت ليتعرّف بحفيدته التي انتظرها بحماسة جارفة. أخبرته ليتيسيا بأنّها سوف تسمّيها أليسيا، على اسم أمّها.

عُثِر على إدغار كورديرو جالسًا في مقعده، مُستندًا برأسه إلى الكتاب المقدّس المفتوح على الطاولة. لم يكن مريضًا أو طاعنًا في السنّ. كلّ ما في الأمر أنّ حياته قد انطفأت، فرحل في سلام. قال راعي الكنيسة إنّه قد حلّق إلى السماء بين ذراعي يسوع، الرّب. تولّى كروس توريس إقامة الجنازة، وتكفّل بكلّ شيء بدءًا من النعش وصولًا إلى الأزهار، ثم دعا المُعزّين إلى تناول الطعام في مطعم مكسيكيّ.

كانت ليتيسيا في الشهر السابع من الحمل آنذاك، فمضت مُتَشَبِّهَةً بذراع زوجها، وقد برز بطنها وانتفخ وجهها من فرط البكاء. غير أنَّها لبَّت الدَّعوة خشيَّةً أن يأخذ كروس الأمر على محمل الإهانة.

- الآن وقد رحل السيّد إدغار، فاذكري أنّني في مقام أبيك الروحي يا ليتيسيا. يمكنك أن تقصديني ما دمت في حاجةٍ إلى شيء.
- شكرًا جزيلاً يا سيّد كروس. ولكنّها زوجتي، ومن واجبي الاعتناء بها. - تدخّل بيل هان، باحترام.

- إنّها الحقيقة، ولكن المرء لا يعرف ما ينتظره أبدًا. ليتيسيا، أملُ أن نبقى على اتّصالٍ دائمًا.

جاء بيل هان من نسل الرّوّاد الذين قطعوا قارّة أميركا الشماليّة سيرًا على الأقدام في عام 1849 يحدوهم إلى ذلك حلم الثراء بالذهب. عاش أكبر أجداده حياتهم في فقرٍ طاحن، ومضوا يطاردون ثروةً مُتملّصَةً لم يفزُ بها أحدُهم في أيّ وقت. مرّ بعض أسلافه بفترات ازدهارٍ قصيرة، ولكن قَدَر تلك العائلة أن تبذل جهدًا كبيرًا لقاء القليل. مزهوًا بتلك السلالة التي انحدر منها، نذر بيل نفسه لدراسة «حمّى الذهب» التي اندلعت في سان فرانسيسكو. بل إنّهُ قد نجح في جمع رسائل ومستنداتٍ لأسلافه. وبفضل ذلك الفضول الذي دفعه إلى استكشاف التاريخ، حصل بيل على وظيفةٍ في متحف أوكلاند، حيث كان يجني راتبًا متواضعًا ولكنّه يسمح له بأن يوفّر مستوىً لائقًا من المعيشة لزوجته. لم يرد أن تعمل لا في أثناء الحمل ولا بعد الولادة، حين تُضطرّ إلى الاعتناء بالطفلة الوليدة. كان رجلًا انطوائيًا، جيّاش المشاعر. ما كاد يرى ليتيسيا في بهو المتحف حتى وقع في حبّها من أوّل نظرة. اخترقت دفاعاته بمظهرها وثقتها بنفسها وابتسامتها حين أعربت له عن الامتنان، لأنّه قد

أرسلها إلى مكان الكافتيريا. تركت ليتيسيا في نفسه أثرًا شديدًا إلى الحد الذي جعله يترك موقعه ليتبعها ويطلب منها الإذن في الجلوس إلى طاولتها، مُتغلبًا على خجله المُتوارث. ومن تلك اللحظة اتبع إستراتيجية مُنظمة لغزو قلبها، إلى أن تحقّق له ذلك. مرّ على زواجهما أكثر من عامين بقليل. ولم تكن ليتيسيا قد عرفت من السعادة بقدر ما عرفت مع ذلك الرجل صاحب المظهر البسيط، الذي كان لديه احتياطي لا ينضب من الحنان وحسّ دعاية مفاجئ.

ولكنّ المرء لا يعرف ما ينتظره أبدًا، كما تكهّن كروس توريس في يوم الجنازة. أمضى بيل بضعة أسابيع مُصابًا بصداع شديد، كان يتخفّف منه بحفنة من المُسكّنات. ترك الصداع عينيه مُلبّدتين وعنقه مُتيبّسًا، ولكنّه ظلّ يؤجّل زيارة الطبيب على أمل أن تختفي الأعراض من تلقاء نفسها بمضيّ الوقت، كما تختفي المتاعب كلّها تقريبًا. مساء ذلك اليوم، في موعد إغلاق المتحف، وبينما كان يتحقّق من كلّ شيء حتّى يسلم الدورية للحراسة الليلية، تفجّر في دماغه تمدّد من الأوعية الدموية. وإذا بوميض من الألم يغشى بصره، فسقط أرضًا. وهناك عُثِر عليه بعد ساعتين.

عرفت ليتيسيا عن طريق رجل الشرطة الذي ذهب إلى بيتها طالبًا منها أن ترافقه للتحقّق من هويّة الجثة. أحسّت وكأنّ هوة قد انشقت تحت قدميّها. حضرت غارقة في الدموع، وبين ذراعيها طفلتها الصغيرة، إلى تلك القاعة المُثلّجة حيث وُضع زوجها. وبينما هي تطبع قبلة مُطوّلة على شفّتيه، كرّرت عليه الوعد الذي قطعه كلّ منهما للآخر مرّات كثيرة: معًا إلى الأبد.

في البدء ظلّت الأرملة الشابة حبيسةً في تلك الشقّة الصغيرة التي تقاسمتها هي وزوجها، مُتشبّهةً بابنتها، عاجزةً عن الخروج، يائسة.

لم ترغب في رؤية أحد. وإن طرق الناس بابها مُحَمِّلين بالطعام والعزاء. كان بيل خدومًا، وليتيسيا مفعمةً بالموَدَّة والبهجة، دائمة العطاء. والآن حانت ساعة الأخذ. ولكن بعد أسابيع رجع الأصدقاء والجيران كلُّ إلى حياته الخاصَّة، فأحسَّت بذلك العبء الهائل يثقل كاهلها، عبء الوحدة. وهي التي تعودت الاعتماد على بيل، وألقت رعايته المُستمرَّة، والنوم إلى جواره، تتوسَّطهما الابنة الصغيرة. لم تعمل منذ أكثر من عامين، ولم يبقَ في حسابها المصرفي إلاَّ أقلُّ القليل، وبات لزامًا عليها أن تعتني بآليسيا الصغيرة. لم تملك رفاهية الاستمرار في البكاء.

في عام 2000 أتمَّت السابعة والعشرين، وصارت لديها ابنة تبلغ ثمانية عشر شهرًا وحياءٌ مُحطَّمة. عند ذاك ظهر كروس توريس من جديد وكأنَّه مبعوث السماء. رآها حزينة، فقيرة، لا عون لها، فاستأجر من أجلها حجرةً لائقةً تعيش فيها عامًا، ورصد لها معاشًا إلى أن تتمكَّن من الاعتماد على نفسها. كان يعمل على إعادة تصميم بيتٍ عتيقٍ بتلال بيركلي، في مشروع طويل الأمد يتطلَّب عملاً شاقًّا. قدَّم ليتيسيا إلى مالكة البيت التي كانت تحتاج إلى مَنْ يساعدها في النظافة وغيرها من الأشغال المنزليَّة، فأسندت إليها العمل مغمضة العينين، من دون أن تطرح سؤالًا واحدًا. واكتفت بتوصية كروس.

سيلينا

سان فرانسيسكو، نوغاليس، 2019

في الثالث والعشرين من ديسمبر حضرت سيلينا دوران إلى شركة «لارسون، مونتان أند لامبرت» للمحاماة، بإحدى ناطحات السحاب في شارع مونتغومري، قلب المركز المالي بسان فرانسيسكو. كانت الشركة تشغل الطوابق العلوية الثلاثة وتطلّ على مشهدٍ رائع للمدينة. فولاذ، وإسمنت، ونوافذ واسعة، وقطع أثاثٍ من الجلد والألومنيوم، ونباتات حية، وألوان محايدة، وصور فوتوغرافية تظهر فيها السحب والكثبان الرملية... كان المرء يحسّ بتلك الأجواء المُفعمة بالسلطة والكفاءة والعجلة والتدرّج الوظيفيّ حالما يصل إلى باب الشركة الزجاجيّ المزدوج الذي يحمل أسماء الشركاء المساهمين بالحصص الكبرى منقوشةً بالذهب. طلبتُ موظفة الاستقبال من سيلينا أن تنتظر، من دون أن تقدّم إليها مقعدًا، ثم اتّصلت عبّر التليفون الداخليّ. ابتسمت الفتاة لاهية، وخمّنت أن الغرض من ذلك التهذيب المُثلّج، الذي يكاد يصل

إلى حدِّ العدوانيَّة، أن يترك في نفوس الزائرين أثرًا قويًّا. ولكنها لا تتأثر بسهولة.

انتظرت خمس عشرة دقيقة واقفةً على قدميها، شاخصةً إلى الكثبان الرملية والسحب المعلقة على الجدران. وفي تلك المدة رأت عددًا من الأشخاص يدخلون ويغيبون عن الأنظار في أحد الأروقة مُحَمَّلِينَ بالصواني المغطاة. وأخيرًا حضرت امرأة في منتصف العمر، يبدو عليها الإحساس بالضيق من الكعب العالي والبدلة الرسمية المُكوَّنة من تنورة وسترة أضيق ممَّا ينبغي.

- سيلينا دوران؟ صباح الخير. أنا مساعدة السيد لامبرت.

- لديّ موعد معه. - قالت سيلينا.

- أجل، طبعًا. اتبعيني من فضلك. معذرة على الفوضى. إنه آخر يوم عملٍ قبل إجازة أعياد الميلاد. ولدينا حفل نهاية العام هذا المساء. فكرت سيلينا في الصواني التي رأتها تمرّ، وتخيَّلت الجمبري المقلّي وأضلاع الخنزير المشوية وأسياخ اللحوم. كانت سيلينا قد تناولت فنجانًا من القهوة وقطعتين من التوست على الفطور في الخامسة صباحًا حتى تلحق بأول طائرة من توكسان إلى سان فرانسيسكو في السابعة وخمس عشرة دقيقة. والآن كاد النهار ينتصف، وأحسَّت بالجوع.

أرشدتها المساعدة إلى باب مزدوج في آخر رواقٍ فسيح. ثم طرقت الباب بمفاصل أصابعها طرقاتٍ رقيقة. فتح رالف لامبرت الباب بعد دقيقتين. كانت سيلينا تعرفه من خلال الصور المنشورة في الصحف والصيت الذائع، لأنَّه واجهة شركة المحاماة الذي عُرف بحسم قضايا بارزةٍ لصالح مُوَكَّليه القادرين على دفع أتعابه الفلكية. بلغ رالف

لامبرت من العمر ستين عامًا ونيّفًا. وتراعى لها أقصر قامَةً وأشدّ نحولًا ممّا توقّعت بالحكم على الصور الفوتوغرافيّة.

- أهلاً بك، نحن في انتظارك. - قال.

دخلت سيلينا إلى قاعة مؤتمراتٍ مترامية الأطراف، تغطّي النوافذ الواسعة جدارًا كاملاً منها. استقرّت في القاعة طاولةً مُمتدّة، يجلس إليها نصف دزينةٍ من الأشخاص. بينما ظلّ باقي الحضور وقوفًا. لا بدّ أنّهم الشركاء الأصغر عمراً، طبقاً لتقديرات سيلينا.

- الأنسة سيلينا دوران، من مشروع ماغوليا. - أعلن لامبرت وهو يشير إلى سيلينا حتى تجلس على أحد المقاعد.

تركت حقيبتها الهائلة المصنوعة في غواتيمالا أرضاً، بالقرب من الباب. ثم أزاحت خصلةً من الشعر خلف أذنها. تجاهلت المقعد، ووقفت عند رأس الطاولة في مواجهة المجموعة.

عرفت سيلينا بضرورة الحفاظ على مظهرها في مناسبة كهذه، كما كرّرت عليها جدّتها في كثيرٍ من الأحيان. كانت الراحة عندها أهمّ من المظهر الحسن في مهنتها العاديّة، ولذا ألقت سيلينا الجينز والقميص والحذاء الرياضي. ولكنّها بذلت جهداً كبيراً فجرّ ذلك اليوم لتزيّن بالشكل الذي ترضى عنه جدّتها، فعقّصت شعرها وزيّنت شفّتيها وارتمدت ثوبها الأسود الذي تطلق عليه «ثوب التسوّل» لأنّها لا ترتديه إلّا لجمع التبرّعات. وجدت أنّ ذلك الثوب يضيف عليها مظهرًا جادًا.

على مسافةٍ قصيرةٍ منها جلس إلى الطاولة فرانك أنجيليري، المحامي الشاب، نجم الشركة الذي أطلق عليه الآخرون لقب «الأثير» من خلف ظهره، وتناقلت الألسنة الحاسدة شائعاتٍ تقول إنّ طفل رالف لامبرت المُدلل، لأنّه يحجز له أبرز المُوكّلين. بل إنّ قد عهد إليه بقضيّة

أپرستين قبل وقتٍ قصير. ألقى فرانك نظرةً فاحصةً على الفتاة الواصلة حديثاً، غير أنه لم يتمكن من تصنيفها. أعدّ نفسه خبيراً في تقييم وضع أيّ شخص مجهولٍ من أوّل نظرة، القدرة التي أفادته في تلك المهنة. من المؤكّد أنّها لاتينية، بالحكم على الاسم. ولكنّها لا تلائم الصورة النمطيّة، لأنّها فارعة القوام، بيضاء البشرة. وجدها شديدة الجاذبيّة، وإن كانت لديها بضعة كيلوغراماتٍ زائدةٍ من وجهة نظره. أيّ مشروعٍ لعين هذا؟

- صباح الخير. أعملُ في مشروع ماغوليا للمهاجرين واللاجئين - قدّمت الشابة نفسها - ، وكما تعلمون، هناك أزمةٌ إنسانيّةٌ خطيرةٌ على حدود المكسيك. لقد تبنّت الحكومة سياسة عدم التسامح المطلق، وأمرت بتفريق العائلات التي تصل لطلب اللجوء. كما كان يحدث بالفعل حتّى قبل صدور أمرٍ رسميٍّ بذلك. وهكذا أرغم آلاف الصغار على مفارقة عائلاتهم، بل إنّ بعض أولئك الأطفال من الرضّع الذين انتزعوا من بين أذرع أمهاتهم. حتّى إنّني قد اضطرّرتُ إلى مرافقة طفلي يبلغ من العمر عامّاً واحداً للمثول أمام القضاء في غياب أبويّه، بينما الطفل نائمٌ في عربته الصغيرة.

كانت تلك الأخبار معروفةً لعموم الناس منذ شهر مايو في العام الماضي، عندما أذيع أوّل تقريرٍ صحافيٍّ في التلفزيون، فثار غضبٌ جارفٌ على الصعيديّين المحليّ والدوليّ. لم يبقَ أحدٌ غير مكترثٍ أمام الصور التي يظهر فيها الأطفال مُكوّمين في الأقفاص، مبعثرين على الأرض، قذرين، مستغرقين في البكاء. وأخيراً رضخت الحكومة للضغوط واضطرّت إلى التراجع عن القرار الصادر. ولكن ما حدث قد فرّق بين آلاف القُصّر وبين آبائهم. أوضحت سيلينا أنّ الصغار ما زالوا مرغمين على الافتراق عن عائلاتهم بذرائع مختلفة. وأنّه قد تعذّر تحديد مواقع

آباء المئات من الأطفال المحتجزين في المراكز لغياب السجلات الوافية. لأنَّ أحدًا لم يفكر في لَمْ شمل تلك العائلات. أضف إلى ذلك وجود الآلاف والآلاف من القُصّر المحتجزين الذين جاؤوا بمفردهم، فضلًا عن غيرهم من القُصّر الذين ما زالوا يتوافدون إلى البلد حتى الآن.

- يسعى مشروع ماغوليا إلى مساعدتهم. - تابعت حديثها- لسنا الوحيدين، بل إنَّ هناك منظماتٍ أخرى مماثلة. كما تطوَّع نحو أربعين ألف محامٍ وطالب قانونٍ للعمل في تلك القضية بلا أجر. حتى القاتل المتسلسل يملك الحقَّ في توكيل محام. بينما لا يملك المهاجرون والألاجئون ذلك الحقَّ. كلُّما مثل أحد الأطفال أمام القضاء في غياب التمثيل القانونيِّ الملائم، حُكِمَ بترحيله. لا يكاد يُستثنى من ذلك أحد. أمَّا في حال وجد الطفل مَنْ يدافع عنه، فيمكنه الحصول على حقِّ اللجوء في كثيرٍ من الأحيان.

- لقد طلبتِ الآنسة دوران مساعدة شركتنا، وسوف نقدِّمها إليها، طبعًا. - أردف رالف لامبرت.

خمنَ فرانك أن ما يجري جزءٌ من الحملة المُنظمة لتحسين صورة الشركة التي اشتهرت بالنجاح في الدفاع عن مجرمين ثبت اقترافهم الجرائم، ولكنَّهم يدفعون ثرواتٍ طائلة. وبعد أن كانت شركة المحاماة تفتخر بالأمر في الماضي، صارت تسعى إلى إخفائه، لأنَّ رياح المجتمع قد بدلت وجهتها. وصار الناس أقلَّ تحمُّلاً لحصانة أصحاب الثراء الفاحش. ما يفسِّر اللفتات الخيريَّة المفاجئة وتنصيب النساء في مراكز حساسةٍ وتوظيف أصحاب البشرة المُلوَّنة. لم تعد تلك المكاتب العريقة تقتصر على الرجال من أصحاب البشرة البيضاء.

كانت للهجرة حمولةً سياسيةً كبيرة، قد تُحدث من المشكلات أكثر ممّا تدرّ من الفوائد. وإن افترض فرانك أنّ لامبرت قد حسب حساب تلك المجازفة. تركت الطلاقة الهادئة التي تمتعت بها الفتاة في نفسه أثراً قوياً، بينما شعر بالخزي لأنّه لم يسبق له أن انتبه إلى مأساة الحدود.

سألت سيلينا إن كان في وسعها استخدام برنامج باورپوينت لدقائق قليلة، فأصدر لامبرت أمراً مقتضياً. ضغطت مساعدته زراً في الحائط، فانسدلت الأستار بهدوء. بينما وضع شخص آخر على الطاولة جهاز عرضٍ موجهًا إلى شاشة الجدار. وفي أقلّ من دقيقةٍ أوصلت الجهاز بالكمبيوتر الخاص بها. كانت مُتمرسّة، تعرف أنّ جذب انتباه المستمعين أهمّ ما في الأمر. تعاقت الصور على الجدار سريعاً، وظهرت فيها: عائلاتٌ من أميركا الوسطى في رحلتهم الخطيرة من قراهم وصولاً إلى الحدود؛ مئات الأشخاص الذين يستلقون على أسطح قطارات الشحن ويسيرون في الصحراء ويسبحون في النهر؛ دوريات حرس الحدود والمدنيّون المسلّحون الذين أخذوا على عاتقهم واجب المراقبة وفرض القانون رمياً بالرصاص؛ الزنازين التي يُطلق عليها «الثلاجات»، هناك حيث يُزجّ بالأشخاص الوافدين من مناخٍ دافئٍ في درجات حرارةٍ شديدة الانخفاض. كما عرضت الصور لحظاتٍ تنفطر لها القلوب، يظهر فيها الضباط وهم يقتادون أطفالاً مستغرقين في الصراخ، بينما يتوسّل الآباء والأمّهات باستماتة. أوضحت سيلينا أنّ تلك الممارسة ما زالت قائمةً حتى الآن، ولكن في السرّ، إذ صارت الآن تجري تحت جنح الليل. لم يحرك أحدهم ساكناً. وساد القاعة صمتٌ ثقيل. تأثّر كثيرٌ منهم بصورةٍ واضحةٍ للعيان، بينما راحت امرأتان تجعّفان دموعهما.

- وكيف نستطيع المساعدة؟ - سألت واحدة منهما.

- نحن في حاجةٍ إلى محامين مُتطوِّعين للدفاع عن القُصَّر ووضع حدٍّ لذلك العذاب إلى الأبد. حتى لا يتكرَّر أبدًا، أبدًا. - قالت سيلينا.

- لا أعرف شيئًا عن قانون الهجرة...

- الأمر بسيط. سوف نقدِّم إليك التدريب اللازم.

- يمكنك الاعتماد عليَّ إذن.

- ما اسمك؟

- روز سيمونز. لا أعرف إن كنتُ مفيدةً لكم، فأنا لا أتحدَّث الإسبانية.

- لدينا مترجمون. شكرًا جزيلاً يا روز.

- أنسة سيمونز، سوف تقدِّم إليك الشركة تسهيلاتٍ في مواعيد العمل وتحافظ على راتبك كما هو. ولكن لا يمكنك أن تهملِ التزاماتك هنا، فهذا العمل الإضافي لحسابك الخاص. - أوضح لامبرت.

- مفهوم، سيد لامبرت.

- روز، لن تندمي. أوكد لك. - أردفت سيلينا.

تضرَّج وجه فرانك. وتراءى له أنَّ سيلينا دوران قد رشقته بنظرات عينيها، واستقرَّت عليه، واختارته من بين الجميع، وأصدرت عليه حكمًا.

- لا مجد ولا ثراء في هذا العمل. ولذا تجد أغلب المشتغلين به من النساء. حتى العناية بالأطفال المحتجزين في المراكز والرعاية الاجتماعية والنفسية تتولَّاها النساء. - قالت سيلينا.

وفي اندفاعٍ عصيَّةٍ على السيطرة، رفع فرانك يده مُعلنًا أنَّه هو أيضًا مُتاح. وإذا بدهشةٍ تعمُّ الحضور إزاء تلك اللفتة التي بدرت منه،

فلا أحد يتوقع شيئاً كهذا من «الأثير»، أكثر أعضاء الفريق طموحًا. أشار إليه لامبرت حتى يتبعه إلى الرواق، ثم أوصد الباب خلفه.

- كيف تظن أنك سوف تفعلها يا أنجيليري؟ يجب عليك أن تنذر نفسك بالكامل لقضية ألپرستين.

- في وقت الفراغ.

- ليس لديك وقت فراغ. ولا إجازات.

- سوف أذهب لتمضية أعياد الميلاد مع أبويّ في بروكلين. لن أبقى هناك لأكثر من يومين، وسأحمل ملفّ ألپرستين معي. ولكنني أذكرك بأننا لا نملك صنع المعجزات، فربما أدانه أيّ عضوٍ من أعضاء هيئة المُحلّفين، علمًا أنّ واحدةً من ضحاياه قد تعرّضت للتخدير والاغتصاب وهي في الرابعة عشرة من العمر.

- أنجيليري، تجنّب تقديمه للمحاكمة بأيّ ثمن. لو ارتكبت خطأ واحدًا فربما انتهت مسيرتك.

- لا تشغل بالك.

بانتهاء الاجتماع لملّمت سيلينا دوران أوراقها والكمبيوتر الخاص بها، وشرعت تدوّن بيانات روز سيمونز وفرانك أنجيليري، وتوضّح لهما الالتزامات المترتبة على الانضمام إلى مشروع ماغنوليا. في البدء تنتظرهما دورة تمهيدية عن الجوانب القانونية للمسألة، وبعد ذلك يُعهد إليهما بقضية أو اثنتين على سبيل التدريب. سوف يتعرّفان بالقصّر الموزعين على شتّى مراكز الاحتجاز، ثم يتعيّن عليهما تحضير الدفاع ومرافقة الأطفال متى حان موعد المثل أمام القضاء، الأمر الذي قد يستغرق وقتًا غير قليل لأنّ المحاكم مثقلة بالآلاف والآلاف من القضايا المتأخرة. - هكذا أخبرتهما.

- أحذركما من هذا العالم، فمتى دخلتما إليه لم يُعد الخروج ممكنًا. - أردفت وهي تغمز بعينها غمزة تواطؤ.

- أمّا وقد أوقعت بنا يا أنسة دوران... - قال فرانك.

- لك أن تنادينني باسمي، سيلينا.

- سيلينا... أمّا وقد أوقعت بنا، فأقلّ شيء أن تقبلي دعوتنا إلى الغداء. - اقترح عليها فرانك.

- من جانبي، لا أستطيع. - اعتذرت روز. اليوم يصل والدا زوجي من ميزوري لتمضية أعياد الميلاد معنا.

- وأنا ذاهبة إلى لوس أنجلوس مساء اليوم. - قالت سيلينا.

- أتعيشين هناك؟

- بل في أريزونا، ولكنّ عائلتي تعيش في لوس أنجلوس. سوف أقضي عشية عيد الميلاد معهم، وفي اليوم التالي أعود إلى العمل.

في صمت، أعرب فرانك عن امتنانه للسماء لأنّ روز سوف تتركه وحده مع سيلينا، التي أقنعها بأنّ لديها فائضًا من الوقت لتلحق بطائرة المساء. ثم أخذها إلى بوليفار، واحد من المطاعم الباهظة حيث يتناول رؤساؤه في العمل غداءهم مُرفقًا بشامبانيا دوم بيرينيون. أمّا تلك الفتاة الشابة، صاحبة الحذاء المهترئ، والمعطف الذي يبدو وكأنّها قد حصلت عليه في متجرٍ للثياب المُستعملة، والحقيبة كثيرة الألوان التي تشبه حقائب السفر، فكانت على طرف النقيض من النساء الراقيات اللاتي يزهو برفقتهنّ في العلن. أراد أن يبهرها، فحيّا النادل باسمه. ولكنّها كانت تتكلّم عبّر الجوّال بالإسبانيّة في تلك اللحظة. قدّمت إليهما طاولة في الركن الخلفيّ من المطعم، بالقرب من النافذة. أمّا النادل، الذي

يتذكَر جيِّدًا أسماء الزبائن ممَّن يقدِّمون الإكراميات بسخاء، فلقد أحضر إليهما كأسَيْن من نبيذ الپروسيكو قبل أن يناولهما قائمة الطعام.

- إنَّه نبيذُ فَوَّازٍ من منطقة فينيتو في شمال إيطاليا. - ألقى فرانك على سيلينا درسًا.

- لا بأس به. - أدلَّت برأيها بعد أن شربته دفعةً واحدة.

أدرك فرانك أنَّه لو طلب قارورةً فاخرةً لأهدرها عليها، وهي التي لا تعرف الفارق بين نبيذ كينتيسا الفاخر ونبيذ الطهو الرديء. لقد ارتكب غلطتين، الأولى عندما تطوَّع وهو لا يملك معلومات كافية، والثانية حين دعا تلك المرأة إلى الغداء. وما هو الآن قد تورَّط في كلا القرارَيْن اللذين اتَّخذهما في ساعة نزوة، مُندفعًا بالانجذاب الجنسي إليها. اتَّخذ قراره الأوَّل حتى يثبت لسيلينا أنَّه رجل مبادئ، مرهف المشاعر. واتَّخذ قراره الثاني حتى يمهِّد الطريق للقاء أكثر حميميةً في المستقبل القريب، متى رجع من بروكلين. «يا لي من أحمق»، راح يفكر، وقد طغى الشكر على مشاعر الاستياء. ولكن ما هي إلا دقائق قليلة من الحديث حتى انجلت الشكوك.

شربا قارورة كينتيسا وكلُّ منهما يحكي حياته. أو بمعنى أصحَّ، انطلق فرانك يتحدَّث أغلب الوقت، بينما أصغت إليه سيلينا وقد اعترأها بعض الشرود. فُوجئت به يسترسل في الكلام عن مشقَّات العمل وخبرته في المحاكم، ويذكر لها أنَّه قد تخرَّج في جامعة ييل المرموقة - لأنَّ الشيء بالشيء يُذكر - في حين لم يسألها عن المهمة التي سوف يُعهد بها إليه. لم ترغب في الاستعجال، فهناك مُتسعٌ من الوقت حتى يهبط ذلك المتغطرس على الأرض، كما راحت تفكر لاهية.

طلبت سيلينا فيليه مينيون مع البطاطس المقلية، فكاد فرانك يعلّق بشيء عن الكالوريز والكوليسترول، ثم تمالك نفسه في الوقت

المناسب. وقع اختياره على سمك التربوت المطهو على البخار، لأنه حريص على رشاقة جسده، وأغلب الفتيات اللاتي يوقع بهن نباتيات، يحرصن على تناول القليل من الطعام. لا يذكر فتاة واحدة تأكل الخبز أو الحلوى كما فعلت سيلينا دوران، التي التهمت صحنها وأضافت إلى السلطة مزيجاً من التوابل والزيت.

طال الغداء، فاستقرّ فرانك على توصيل سيلينا إلى المطار بدلاً من حضور حفلة المكتب اللعينة. وهكذا يمكنه أن يقضي معها نصف ساعة أخرى. لم يثبط عزيمته كونه مضطراً إلى الذهاب مرة أخرى إلى المطار بعد نصف ساعة، لأنّ موعد رحلته قد اقترب.

التهمت سيلينا حلوى البروفيتولز والشكولاتة بلذّة تليق بمن لم يأكل شيئاً منذ ساعات طوال، بينما راح هو يخبرها بأعياد الميلاد التي يقضيها في بروكلين، حيث تعيش عائلته منذ جاء الأجداد مهاجرين من صقلية. وتلك هي المناسبة الوحيدة التي يجتمع خلالها أفراد العائلة كلهم، فلا أحد يتغيّب عن ذلك اللقاء الذي يحضره الأبوان والجدّ والجدّة والإخوة والأصهار والأحفاد، وبعض أبناء العمومة، وجارة وحيدة سبق أن كانت مغنية أوبرا، والعمّ لوكا المخبول.

- يتسلّح بمسدّس من زمن غاريبالدي⁽¹⁾ ويزهو بأنّه قد حارب في صفوف الكتائب الدوليّة خلال الحرب الأهليّة الإسبانيّة. لو صحّ ادّعاؤه، لكان يبلغ من العمر الثالثة بعد المئة. ولكن لا يبدو عليه أنّه قد تجاوز التسعين! - أردف فرانك.

1 - چوسيبى غاريبالدي (1808 - 1882): ثائر وعسكري وسياسي، من رموز حرب الاستقلال في إيطاليا.

- احكِ لي عن أبويك. - طلبت منه كيلا تُضطرَّ إلى الكلام،
فيتسنَّى لها التركيز في الطعام.

- يملك أبوي أفضل مطعم إيطالي في بروكلين. أعتقد بأنَّ أبي
لم يقرأ في حياته كتابًا واحدًا، ولكنَّه أرغم كلَّ ابنٍ من أبنائه على دراسة
أحد التخصصات. أمَّا أمِّي فهي قوَّة من قوَى الطبيعة. تلقى الناس بلطفٍ
معظم الوقت، ولكنَّها إن غضبت فعليك بالهرب. تضربنا بمغرفةٍ من
الخشب. ذات مرَّة ضربت رأسي بغطاء قدر الإسباغيٲتي. لم أتألم، ولكني
ما زلتُ أجنبُّ الاقتراب منها في أثناء الطهو. لم يحدث أن وجَّهت إلينا
كلمةً واحدةً بالإنجليزية. ففي عائلتي نتخاصم ونتصالح بالإيطالية.

- وفي عائلتي نفعَل الشيء نفسه بالإسبانية. سوف تنفعك اللغة
الإيطالية لأنَّها تشبه الإسبانية قليلًا. - قالت سيلينا.

- لقد درستُ الإسبانية في الثانوية وفي الجامعة، ولكن يجب عليَّ
أن أراجع ما قد درست.

- فرانك، إنَّ أولئك الأطفال - الذين سوف يصبحون مُوَكِّليكَ
في المستقبل - يفهمون المعنى المُراد بمُجرَّد ابتسامةٍ أو نبْرةٍ ودود، ولا
يحتاجون إلى أكثر من كلمتين قليلة. حتى أنا لغتي الإسبانية ليست
مثالية، غير أنَّها قد تحسَّنت في هذا العمل. - أوضحت له.

- ولكنَّك تتكلَّمين الإسبانية على الأقل.

- الفضل يرجع إلى جدَّتي الكبرى، فلطالما تحدَّثت إليَّ بالإسبانية.

- قلائل من الناس يمكنهم الزهو بأنَّ لهم جدَّةً كبرى. - عقب فرانك.

- في عائلتي عدَّة أجيالٍ من النساء الخالدات. أمَّا الرجال
فيغادرون أو يفارقون الحياة. لا يستمرُّ معنا الرجال إلَّا قليلًا. ولذا أخذنا

كلُّنا اسم دوران عن جدّتي الكبرى، التي وُلِدَتْ في المكسيك شأن جدّتي، العرّافة. في حين وُلِدْتُ أنا وأمّي وأختي وابناها هنا.

- «عرّافة»؟

- وسيطةٌ روحانيّة. إنّها ملكةٌ يُولَدُ بها المرء. بعض الموتى يتّصلون بجدّتي، ويظهرون لها في بعض الأحيان.

- أنتِ تمزحين!

- جدّتي ذائعة الشهرة. ألم تسمع عن دورا دوران؟ لقد صدرت بشأنها عدّة تقارير صحافيّة. كما أنّها شاركت في برنامج يحقّق في الظواهر الخارقة أجّرتّه جامعة تشايمان. يحضر رجال الشرطة والناس من كلّ مكانٍ لطلب مشورتها.

- فيم يطلبون مشورتها؟

- ذلك رهنٌ بالحالة.

- حسنًا، أعطيني مثالًا.

- في واحدةٍ من الحالات الأخيرة، سُئِلَتْ جدّتي عن طفلٍ مفقودٍ في التاسعة من العمر، فحدّدت موقع الجثّة في جوف إحدى الآبار.

- وهل استطاعت تحديد القاتل؟ - سأل فرانك وهو يداري ضحكته.

- لم يُقتل، بل إنّهُ قد سقط.

- وكيف عرفتِ جدّتك؟

- أحيانًا تصلها الإجابة على شكل حلم، وأحيانًا أخرى على شكل إحساسٍ جارِفٍ أو توجُّس. وفي بعض الأحيان تزورها روحٌ هائمة. كما حدث في حالة الطفل الصغير. إذ كانت جدّتي قد ذهبت لتوصيل

ابنّي أختي من المدرسة إلى البيت، وفيما هي تنتظر جالسةً على دكةٍ في المنتزه، ظهر طفلٌ إلى جوارها. أحسّت جدّتي بجسدها مثلاًجاً من الرأس إلى القدمين، وبقلبها يخفق بشدّة. أخبرها الطفل بموقعه، ثم اختفى من فوره.

- أن يكبر المرء مُحاطاً بالموتى، لا بدّ أنّه شيءٌ يقشعر له البدن.
- قال فرانك، ساخراً.

- أنا لا أراهم ولا أسمعهم. لم يزعجني الموتى يوماً. - أجابت وهي تمسح آخر آثار الشكولاتة بإصبعها.

كانا آخر من غادر المطعم. مشيا إلى السيارة، ثم أقلّها فرانك إلى المطار. اتّفقا على اللقاء في أريزونا بعد أعياد الميلاد، وقالت إنّها سوف ترسل إليه الدورة التمهيدية التي ينبغي له أن يدرسها في تلك الأثناء. أوضحت له أنّ القضاة لا يملكون الوقت الكافي للاطلاع على هذا الكمّ الكبير من الأوراق، ولا بدّ من التبسيط والتحرّك بسرعة. صحيح أنّ الحجّة القانونيّة شيءٌ أساسي، ولكنّ اللعب على إثارة المشاعر أهمّ. كلُّ شيءٍ رهنٌ بالقضاة. بعضهم مُتفهّمون، وبعضهم أوغاد. أمّا القضاة الجدد، فكلّهم من الأوغاد.

رافقها فرانك إلى أبعد نقطةٍ يمكن الوصول إليها في المطار، ثم تابعها بعينيّه وهي تعبر نقطة التفتيش الأمنيّ، وتغيب في الداخل. ظلّ ينتظر أن تلتفت المرأة لتودّعه بإشارةٍ من يدها، وذلك أقلّ ما يستحقّ بعد أن نذر لها عدّة ساعاتٍ من وقته، غير أنّها قد خيّبت رجاءه.

عاشت سيلينا مع اختصاصيّة اجتماعيّة أخرى في شقّةٍ بمدينة نوغاليس التي تقع في ولاية أريزونا الأميركيّة، على بعد عشر دقائق من

مدينة نوغاليس التي تقع في ولاية سونورا المكسيكية. ومع أنه مُجرّد حلّ مُؤقت، فلقد امتدّ لعامين. والآن حان الوقت لوضع مشروعات أكثر استقرارًا، كما قال لها ميلوش دوديك، خطيبها الأبدي. مشروعات من قبيل الزواج، على سبيل المثال، والعودة إلى لوس أنجلوس، حيث تعيش عائلتها، وحيث ينتظرها ميلوش بنفاد صبرٍ وإحباط كلاهما في ازدياد مُستمِر. ظَلَّتْ تختلق أعذارًا لتأجيل الزواج، فما عاد يدري كم من الوقت قد مرَّ وهما معًا. أجمع آل دوران على أن ميلوش فرصةٌ ممتازة: لأنّه شابّ، موفور العافية، لا تُعرَف له عادات سيئة، ويجني أكثر ممّا يجنيه الأطباء من عمله في قيادة الشاحنات العملاقة للنقل الثقيل عبْر أنحاء البلد، ذلك العمل الذي يتطلّب استقرارًا عاطفيًا وقدرةً على التحمّل البدنيّ. قدّم لخطيبته حياةً آمنةً وحُبًّا تجاوز التجارب التي خاضها طوال أعوام. كان يحلم بالأبناء والبيت الدافئ والزوجة السعيدة التي تنتظر عودته من الأسفار في البيت، وهو السائق الذي يقود شاحناتٍ بطيئة، ويسافر في رحلاتٍ طويلةٍ جدًّا. طبقًا لنساء آل دوران، فإنّ سيلينا لا تدرك أيّ حظٍّ قد ابتسم لها، وأين تجد رجلًا آخر يمكنها السيطرة عليه بمُجرّد لفتةٍ واحدة؟ أين تجد رجلًا آخر يتغيّب معظم الوقت؟ ما من امرأةٍ عاقلةٍ ترغب في زوجٍ بدوامٍ كامل! لقد أحبّها ميلوش منذ كانت مراهقة، وأوشكا على الزواج مرّتين، ثم دبّ شجارٌ بينهما، وافترقا، ثم عادا إلى التلاقي والبدء من جديد. لقد تعب كلاهما من تلك الحال. ووجد ميلوش من الفرص ما يكفي ويفيض ليكون مع نساءٍ أخريات. كان يستغلّ بعض الفرص أحيانًا، ولكنّه لا يذكر حتى أسماء أولئك النساء. لأنّ سيلينا حبّه الوحيد.

قبل مشروع ماغنوليا، شغلت سيلينا وظيفةً لدى إدارة الخدمات الصحيّة، حيث اكتسبت خبرةً في الشؤون الإداريّة والتنظيم. صارت

تجني في وظيفتها الجديدة أقل من نصف راتبها السابق، ولكنها قد عثرت على مكانها الصحيح في العالم. عرفت بأمر افتراق العائلات على الحدود، فقررت أن تغتنم أيام الإجازة التي تراكمت في رصيدها حتى بلغت ثلاثة أسابيع من أجل تقديم المساعدة. عرفت بأمر مشروع ماغنوليا، القائم منذ قرابة ثلاثين عامًا على وجه التقريب، فتطوعت للعمل فيه رغم اعتراضات خطيبها وعائلتها. كانت واحدة من آلاف الغاضبين الذين تطوعوا للمساعدة. وما هو إلا أسبوع واحد من العمل مع الأطفال حتى قررت التخلي عن وظيفتها. لم تعد إلى لوس أنجلوس، بل إنها سرعان ما انضمت إلى فريق ماغنوليا. ومنذ ذلك الحين بدأت تعمل نهارًا وتحضر دروس القانون والطب النفسي عبر الإنترنت ليلاً. حلمت بإمكانية العودة إلى الجامعة للدراسة فور انتهاء الأزمة القائمة على الحدود، الأمر الذي من شأنه أن يرفع حجم الديون التي في عنقها بسبب القرض الدراسي، ولكنه يستحق العناء.

أبلغها فرانك بوصوله في الخامس والعشرين من ديسمبر حتى يراها ويتعرف بالطفلة التي سوف يتولّى قضيتها أيضًا. ركب الطائرة وهو لم يتجاوز وليمة أعياد الميلاد الباذخة بعد. كانت أمه تبدأ في الطهو قبل أسبوع كامل، فتعد أطباق المانيكوتي والجمبري سكامبي والسلطعون وثعبان البحر المقلّي وسلطة الأخطبوط وشرائح لحم ويلينغتون، وكعكتها الشهيرة، كعكة الأرز والسبانخ. فضلًا عن حلوى الكانولي وعصيدة اللوز وتشكيلة هائلة من الكعك المصنوع في البيت. كان طعام أعياد الميلاد يبدأ قرب الرابعة مساءً، ويمتد إلى الساعة التي يصطفون فيها للذهاب إلى قدّاس منتصف الليل، في واحد من التقاليد التي يراعيها أفراد الأسرة جميعًا، مع أن أكثر من نصفهم لأدريون. ولطالما كانت هناك

مكرونة نيوكي بصلصة الطماطم التي تُجهَّز على سبيل الاحتياط، لعلَّ أحدهم ما زال جائعًا. أمَّا لو فاض شيءٌ من الطعام، فتأخذ أمُّه الأمر على محمل الإهانة. وفي تلك القبيلة المُحِبَّة للحياة، وحده فرانك ظلَّ نحيفًا، الأمر الذي يملأ عينيَّ أمِّه بالدموع كلِّما فكَّرت في ابنها المسكين الذي يعيش وحيدًا ويتصوَّر جوعًا في سان فرانسيسكو، تلك المدينة الموبوءة بالملحدين والمُشرِّدين ومدمني المخدرات والمثليين. كانت ترسل إليه كرات اللحم المُجمَّدة عبْر البريد السريع كلَّ أسبوعين.

في الرحلة إلى أريزونا مرورًا بدنفّر، حظي فرانك بسبع ساعاتٍ لدراسة قضية أُلپرستين، قطب التجارة المُقَرَّب من الرئيس، المُتَّهم بالإتجار بالقُصْر واختلاس الأموال العامة وغسيل الأموال. ظهر فرانك في نشرة الأخبار التي أذيعت عبْر التلفزيون وهو يقف خلف ذلك الرجل، فكادَتْ أمُّه تصاب بأزمة قلبية. أراد أن يوضّح لها عبْر التلفون أنَّ الكلَّ يملك الحقَّ في التمثيل القانوني، وأنَّ موكِّله بريءٌ حتى تثبت إدانته، فإذا بها تقاطعه صارخةً بالإيطالية: «لقد كسرت قلبي! يا للعار! ابني أنا يدافع عن رجلٍ يستغلُّ الأطفال جنسيًا!». ثم أغلقت السماعة في وجهه. وكانت على حقٍّ، فذلك المدعو أُلپرستين شخصٌ بغیض. في وقتٍ لاحقٍ بعث إليها فرانك رسالةً في علبة شكولاتة حتى يصلحها. أحسَّ بالإرهاق بسبب رحلة الطيران الليلية من سان فرانسيسكو إلى نيويورك والطعام الباذخ الذي تناوله في بيت أبويِّه وقلة النوم، ولكنَّه أراد أن يرى سيلينا مرَّةً أخرى. بل إنَّها هي السَّبب الأساسي الذي جعله يقطع ذلك الماراثون الجويِّ، برغم إمكانيَّة عقد اللقاء عبْر برنامج زوم. لقد فكَّر فيها فرانك أكثر ممَّا ينبغي، مع أنَّها بعيدة عن نموذج الأنثى المثالية كما رسمها في مخيلته. أضف إلى ذلك أنَّها لم تبدُ مُهتَمَّةً به بصفة خاصَّة، نظرًا إلى لغة جسدها التي تشي بعدم الاكتراث.

الشيء الذي وجدته فرانك مثيرًا للفضول . ربّما كانت طريقة غير مألوفة من طرائق الدلال، مضى يفكر . ولكنّه سوف يعطيها فرصة أخرى .

استأجر سيّارة في مطار توكسان، وما هو إلّا قليل حتى وصل إلى مدينة نوغاليس، التي استقرّت وسط منظرٍ صحراويٍّ من التلال والجبال، هناك حيث يفصل بين المدينة وبين توأمها المكسيكيّة جدارٌ الحدود العازل، ذلك الأفعوان الداكن الممتدّ . توقّع طقسًا حارًا، ولكنّ الطقس في ذلك الفصل ألطف من برد ديسمبر في نيويورك . كان مكتب مشروع ماغنوليا مُقفلاً في تلك الساعة، فاستقبلته سيلينا في شقّتها، ما تراءى له علامةٌ مُبشرة . أحسّ بالإجهاد، ولكنّه يستطيع أن يغتسل ويحلق ذقنه إذا سمحت له باستخدام الحَمّام، ثم يدعوها إلى العشاء . كان الوقت هناك أبكر منه في نيويورك بثلاث ساعات .

ترأى البناء كتلةً من الإسمنت شأن عدّة أبنيةٍ أخرى في ذلك الشارع الذي خلا من كلّ أثرٍ للأشجار . تعطلّ المصعد، فصعد فرانك على درج الخدمة المريب، حتى وجد نفسه أمام بابٍ أخضر . فتحت له الباب امرأة قدّمت نفسها على أنّها رفيقة سيلينا في الشقة . ناولته كوبًا من الماء، وأزاحت القطّ عن الأريكة حتى يجلس فرانك الذي يعاني حساسيّةً من القطط .

كان البيت يتألّف من صالة/قاعة طعام، تفصلها عن المطبخ الصغير طاولةٌ وطرفةٌ تنتهي بحمّامٍ وتضمّ بايّن، افترض فرانك أنّهما حجرتا النوم .

ترأى كلّ جدارٍ مطليًا بلونٍ مختلف، فيما يُفترض أنّه مجموع ألوان الصحراء: السماء والطيني والقرقة والعشب والحجر . وذلك شيءٌ مُجهّد للعين . أمّا الأريكة المُستعملة، ذات النقوش المُربّعة، التي

تعيش حياتها الثانية، وربما الثالثة، فلم تُدخِل أدنى تحسين على ديكور المكان. وبشيءٍ من الحنين مضى فرانك يفكر في شقته البيضاء، العارية، المُرتبة، البسيطة، الذكورية.

قالت له المرأة إنَّ سيلينا سوف ترجع بعد قليل، ثم ودَّعته لأنَّ لديها موعدًا. وصلت سيلينا بعد نصف ساعة، فوجدت فرانك مستلقيًا على الأريكة، يغطّ بنعومة، وقد استقرَّ القطُّ فوق جسده. فما كان منها إلا أن وضعت الوسادة تحت رأسه ودثَّرتَه بغطاء، لأنَّ درجات الحرارة تنخفض كثيرًا في الليل، ثم ذهبَت إلى حجرتها برفقة القطِّ.

أفاق فرانك على ذلك الضوء الذي لا يرحم، ضوء السادسة فجرًا، وعلى رائحة القهوة. للحظة، لم يدِر أين هو. كان حلقه جافًا، بينما ألقت لحيته الخفيفة بظِّلها على ذقنه الذي لم يحلِّقه منذ يومين. شمَّ رائحةً كريهةً تنبعث منه، وأحسَّ بجسده دبًّا يسيل منه العرق. جاءت سيلينا دوران وقد غسلت شعرها وارتدتَ الجينز، فوضعت أمامه فنجانًا من القهوة.

- قُمْ يا فتى، أماننا أشياء كثيرة، فنحن نبدأ يومنا مُبكَّرًا هنا.

- أحتاج إلى الاغتسال. لديّ قميصٌ نظيفٌ في الحقيبة.

أشارت إلى الحمام، ثم شرعت تضع الطعام للقطِّ وتقلي اللحم المقدَّد وتخرط الخضراوات لتحضير العجَّة. لا تأكل سيلينا في البيت سوى الفطور، ثم تتناول الشطائر والمياه الغازية طوال البقية الباقية من اليوم. بعد نصف ساعة خرج فرانك أنجيليري من الحمام وكأنَّه رجلٌ جديد. كان يعتني بنظافة بدنه كثيرًا، ويحبُّ الاغتسال تحت الدشِّ بمياهٍ شديدة السخونة لوقتٍ طويل، ويسافر مُحمَّلًا بنصف دزينةٍ من

مستحضرات التجميل في عبوات صغيرة، ولا يستخدم مستحضرات الفنادق أبدًا. انبعثت من غسول الحلاقة والكولونيا نفحة مرفهة من المسك، الذي قرأ عنه فرانك أنه يثير الشهوة الجنسية. كانت العجة قد بردت بحلول ذلك الوقت، ومضت سيلينا تتحدث عبر الجوال بالإسبانية. تحيل فرانك أنه اتصال العائلة اليومي الذي سبق أن حدثته عنه. ودعّتهم سيلينا عبر التليفون، ثم أحضرت ملفًا وبسطت محتوياته على الطاولة.

- موكلتك تُدعى آنيتا دياس، وتبلغ من العمر سبعة أعوام. -
أوضحت لفرانك - أرغمت آنيتا على مفارقة أمها، ماريسول دياس، في أواخر شهر أكتوبر. نزلت آنيتا في أحد الملاجئ منذ ثمانية أسابيع. بينما اقتيدت الأم إلى مركز احتجاج بتكساس. في واقع الأمر، يُعد ذلك المكان سجنًا خاصًا، ويُعرف بالإساءة إلى النزلاء والتنكيل بهم، ويقع في منشأة هائلة محاطة بالسلك الشائك في موقع منعزل. بعد قليل نُقلت مرة أخرى إلى مكان آخر لدواعٍ صحيّة على ما يبدو، لأنها قد وصلت مصابةً بهزالٍ شديدٍ من جراء الرصاصة التي أُصيبَتْ بها في بلدها، فضلًا عن متاعب السفر الشاق. ولكن هذه المعلومات ليست أكيدة. يُفترض أنها قد رُحلت بعد ذلك.

- إلى أين؟

- لا نعلم. العائلة من السلفادور، ولكن لا يوجد دليل على ترحيل ماريسول إلى بلدها، فغالبًا ما يُترك المُرحّلون في المكسيك، على الجانب الآخر من الحدود. لم نتمكن من تحديد موقع ماريسول.

- كيف وصلت إلى هنا مع ابنتها؟ - سألها.

- لقد حضرت كليهما إلى معبر حدودي لطلب اللجوء في منتصف أكتوبر، هنا في نوغاليس. رُفِض طلب اللجوء بالاستناد إلى

الأمر الرئاسي الساري الذي نصّ على عدم السماح لأحدٍ بالمرور، كائنًا من كان. وهكذا لم تتمكّن من العبور. بعد عشرة أيّامٍ عبرت ماريسول بصورة غير مشروعة، ثم ظهرت في الولايات المتّحدة، حيث أُلقي القبض عليها وهي مع الطفلة في الصحراء. وفي نقطة حرس الحدود، أوضحت للضابط أنّها تخاف على حياتها وحياة ابنتها، وأنّهما هاربتان من رجلٍ يلاحقهما. كانت تعرف أنّه قاتل، يحاول أن يريدها قتيلا. أبدت للضابط الجرح الحديث الذي تركته في صدرها الرصاصة التي كادت تودي بحياتها. كلّ ذلك واردٌ في التقرير. أمّا الشيء الذي لم يرد في التقرير فهو ردّ الضابط: «لا أصدّقك، كلّهم يقولون الشيء نفسه، وأنا لا أتلقّى راتبي حتى أسمح لك بالدخول إلى الولايات المتّحدة».

- البلد مُلزَم بتوفير الحماية لطالب اللجوء بمقتضى القانون. - قال فرانك.

- من الناحية النظرية. أمّا في الواقع فهم يُعاملون كالمجرمين. لا أحد يريدهم. لقد دخلت سياسة عدم التسامح المطلق حيّز النفاذ بهدف الردع، عن طريق التفريق بين الأطفال والآباء.

- وماذا عن ابنة ماريسول؟

- نزلت بملجأ للقصر، كما قلْتُ لك. تمكّنت من السماح لأنيتا بأن تتحدّث إلى أمّها عبر التليفون مرتين. ثم فقدنا أثر ماريسول لاحقًا.

- كيف يُعقل هذا!

- إنّها الفوضى، وسوء النية، والإهمال، والإفلات من العقاب. لن يدفع أحدٌ ثمن شيءٍ واحدٍ ممّا يجري، لأنّ الأوامر صادرة من البيت الأبيض. - قالت سيلينا.

- هل تحدّد موعد لجلسة الطفلة؟

- ليس بعد. وتلك هي مهمّتك يا فرانك، يجب عليك أن تتجنّب أن يحكم القاضي بترحيلها. لا بدّ من كسب الوقت اللازم حتى نعثر على الأمّ أو أحد الأقرباء القادرين على تولّي أمرها في الولايات المتّحدة. لقد تعرّضت أنيتا لضغوطٍ حتى تطلب النقل طوعاً، مع أنّ خطر الموت يهدّدها في بلدها حسبما قالت الأمّ.

- ولكنّها في السابعة من العمر! - قال فرانك مندهشاً.

- إنّه أمرٌ شائع، يحدث طوال الوقت. لقد قدّر لي أن أتولّى قضيةً عبثيّة: سأل القاضي مُوكلي إن كان يختار الترحيل الطوعيّ حتى يرجع إلى بلده، ولكن كيف يُفترض بطفلٍ رضيعٍ يبلغ من العمر عامًا واحدًا أن يردّ؟ ولكن أنيتا طفلةٌ في غاية الذكاء. ترفض العودة إلى السلفادور من دون أمّها.

قالت له إنّ ماريّسول قد أخبرتها خلال أحاديثهما القصيرة بأنّها هي وابنتها قد أمضتا ثلاثة أيّامٍ في الزنزانة التي يُطلق عليها «الثلاجة» مع غيرهما من النساء والأطفال الذين كان بعضهم دون العامين. وهناك كاد المُحتجّزون يتجمّدون من البرد القارس، واضطّروا إلى النوم على أرضٍ من الخرسانة وهم ليس لديهم ما يتدبّثون به سوى غطاءٍ من الورق المُفضّض. ومع أنّه لا يُفترض أن يقضي المحتجّزون في تلك الزنازين أطول من بضع ساعاتٍ قبل التحقيق والنقل، فلقد اضطّر كثيرٌ منهم إلى البقاء هناك ثلاثة أيّامٍ أو أربعة. كان هناك طفلٌ في الخامسة، وحده تمامًا، لأنّه قد أرغم على مفارقة أبيه بعد أن ألقي القبض عليهما معًا. ظلّ الطفل ينادي أباه طوال الوقت، وعبثًا حاولت النساء مواساته. كانت الأوضاع مزريّةً بسبب قلة الطعام وغياب الإجراءات الصحيّة الأولى

وإضاءة المصابيح طوال الليل والإساءة اللفظية التي تعرّض لها النزلاء. تدمّرت أنيتا من العطش، فقال لها أحد الحرّاس أن تعود إلى بلدها ما دامت تريد أن تشرب. رأت ماريסول الطفل الذي راح يصرخ منادياً أباه، فوضعت في الحسبان أن الشيء نفسه قد يقع لابنتها، وحاولت أن تعدّها لذلك. قالت لها إنه من المرجّح أن تفترق عنها لبضعة أيّام. وطلبت منها ألا تخاف، لأنها سوف تلقى رعاية جيّدة، و قريباً تلتقيان مرّة أخرى. طلبت منها أن تتحلّى بالصبر والشجاعة. لأنّه اختبار. وبعد هذا الاختبار تنعمان بحياة هائلة في الولايات المتحدة.

- اقتيدت ماريسول وقد غلّت يداها وقدامها بالأصفاة حتى يحقق معها أحد ضباط اللجوء. ثم أُعيدت إلى الزنزانة، فلم تجد أنيتا هناك. لم تعاود رؤيتها. ولم يُسمح لها بأن تودّع ابنتها، شأنها شأن نساء كثيرات. - أوضحت له سيلينا- يفتر الموظفون المسؤولون إلى التدريب اللازم لمواجهة هذه الأزمة، وعلى عاتقهم أشغال كثيرة لا طاقة لهم بها. يتقدّم بعضهم بطلب نقل لأنّهم لا يملكون من الصلابة ما يسمح بتنفيذ الأوامر.

دفن فرانك أنجيليري رأسه بين يديه. لقد رأى بعينه كلّ شيء طوال الأعوام التي أمضاها في العمل محامياً. ولكن لا شيء يُقارَن بالقسوة المؤسسية التي أخبرته سيلينا بأمرها.

- أوه، سيلينا! لقد تعودت الدفاع عن الشركات والمؤكّلين من أمثال ألپرستين، أولئك الذين يدفعون ثمن التهريب من العدالة. ولا أدري إن كنت قادراً على عمل اللازم لحماية أنيتا.

- الأهم أن تكون متاحاً، وألا يتصيّد القاضي تفصيلاً تقنيّة، وإلا تمسّك بها حتى يرفض القضية.

- لا أعرف عن قوانين الهجرة شيئًا.

- عليك أن تدرس قليلًا يا فرانك. سوف أساعدك.

كان الملجأ الذي أخذته سيلينا إليه واحدًا من أفضل الملاجئ الكثيرة الموزعة في شتّى أرجاء البلد. جرّت العادة على أن يضمّ الملجأ الواحد من مئة إلى أربع مئة طفل. أما ذلك فلم يتخطّ عدد النزلاء فيه اثنين وتسعين طفلًا، يُرصد لكل واحدٍ منهم رقم، لأنّ الموظفين لا يمكنهم نطق الاسم أو تذكّره في كثيرٍ من الأحيان. أن يُسمّى المرء باسمه مسألة كرامة، كما رأت سيلينا. «لقد تكبّدوا خسائر فادحة، ومن المروّع أن يخسروا حتى الهوية»، قالت له.

- لقد وصف أحد المراسلين واحدًا من تلك المراكز بأنّه مكانٌ فوضويٌّ موبوءٌ بالأوساخ والأمراض، حيث الأطفال قدرون وكثيرٌ منهم مصابون بنزلات البرد في غياب الملابس النظيفة والأسيرة والحمامات والصابون وفرش الأسنان. يمكن شمّ الرائحة الكريهة من الخارج. أفترض أنّ ذلك هو السبب الذي جعلهم لا يسمحون للصحافيين بالدخول في الوقت الحالي. ولكنك لن ترى شيئًا من هذا القبيل هنا، فهو مكانٌ لائق. - قالت له.

تألّف المكان من عشر وحداتٍ تشترك في فناءٍ للأطفال الذين كان أصغرهم عمره أحد عشر شهرًا وأكبرهم آنيّا. قُسّم الأطفال إلى مجموعاتٍ من ثمانية أفرادٍ أو عشرة، وتولّى كلّ مجموعةٍ اثنان من المساعدين.

- يجب أن يمضي الأطفال أقلّ وقتٍ ممكنٍ في تلك الملاجئ. - أوضحت له سيلينا. وفي حال لم يظهر قريبٌ أو راعٍ لاستضافة الطفل، فإنّهم يُحالون إلى دور التبني. في بعض الأحيان لا يحضر الأقرباء

للمطالبة بالأطفال لأنهم لا يحملون أوراقاً ثبوتية، ويخافون التوقيف والترحيل. أمّا آنيّا فحالتها استثنائية، وهي مُضطرّة إلى البقاء هنا وقتاً أطول من المعتاد بسبب مشكلة إدارية.

أخبرته بأنّ بعض مراكز الفتيان الأكبر عمراً، الذين يصلون وحدهم في كثير من الأحيان، تُعدّ سجوناً حقيقية، مثل مركز الاحتجاز الذي أقيم في قبو سوبرماركت هائل بتكساس أو ذلك الذي أقيم في قاعدة عسكرية بفلوريدا. خضعت بعض المراكز لإدارة شركات خاصّة يهتمّها أن تحافظ على أكبر عددٍ من الأطفال لأطول وقتٍ ممكن، مع الأخذ في الحسبان الأرباح الماليّة الهائلة المترتبة على ذلك. إذ تتكبّد الحكومة نفقاتٍ طائلةً يومياً عن كلّ طفل. لم يُسمح بدخول منظمات حقوق الإنسان ولا الصحفيين، ولا حتى أعضاء الكونغرس.

- يقتضي عملي أن أتولّى القضايا التي أكلف بها. ولكنّ المرشدات الاجتماعيّات لديهنّ عملٌ كثير، فأعداد الأطفال أكبر ممّا ينبغي.

اقتضت مهمّتها التحقّق من الطريقة التي افترق بها الطفل عن عائلته، والبحث عن الخدمات الاجتماعيّة المتاحة والتمثيل القانوني، والسّعي إلى تحديد موقع العائلة وتنسيق المساعدة النفسيّة قدر المستطاع. صعب الحصول على معلوماتٍ لأنّ بعض الأطفال في سنٍّ صغيرة جدّاً، عاجزون عن التذكّر، أو لم يبدووا حتى في الكلام. كما أنّ بعضهم مصابّ بصدمة نفسيّة.

- لقد علق مئات الأطفال مثل آنيّا، لتعذّر العثور على آبائهم. قالت له سيلينا- من المؤكّد أنّ اكتشاف هويّة أولئك الأطفال ولمّ شمل العائلات سوف يستغرق نحو عامين. وربما استحال ذلك في بعض الحالات. إنّه كابوس.

- لا أفهم كيف يخاطر أولئك الناس بعبور الحدود، علمًا باحتمال أن يُنتزَع الأبناء منهم. - قال فرانك.

وصفّت له الوضع الذي يهربون منه، فأغلبهم وافدون من غواتيمالا والسلفادور وهندوراس: المثلث الشمالي المُرَوَّع. تلك المنطقة التي تُعدّ من أشدّ الأمكنة خطورةً في العالم بأسره، حيث يموت الناس ببطءٍ تحت وطأة الفقر، وتموت النساء تحت وطأة العنف المنزليّ، ويُقتل الناس بعنفٍ على أيدي أفراد العصابات ومهربي المخدرات ومرتكبي الجرائم المُنظَّمة، فضلًا عن الحكومات الفاسدة التي تقتل بلا عقاب. ليس من الغريب أن يفضّل بعض اللاجئين ألا يروا أبناءهم مرّةً أخرى على العودة معهم، لأنّهم قد هربوا من بلادهم لأسبابٍ وجيهة. ولقد وجدوا أنّ البيروقراطية الأميركية، مهما بلغت من القسوة، أفضل من الرُّعب الذي يسود بلادهم.

- وما الحلّ يا سيلينا؟ لا يمكن استقبال الملايين من المهاجرين واللاجئين. - قال.

- فرانك، لا يكمن الحلّ في إقامة الأسوار والسجون، دُعْ عنك التفريق بين العائلات. لا بدّ من إصلاح منظومة الهجرة، والمساعدة على حلّ المشكلات التي ترغم الناس على مغادرة بلادهم. لا أحد يرغب في الهرب والتخلّي عن كلّ شيء، بل إنَّهم يقدمون على ذلك تحت وطأة اليأس.

- لا تقع تلك المسؤولية على عاتق الحكومة الأميركية.

- لقد تسبّب الأميركيان في أكثر الكوارث التي حلّت بتلك البلاد، لأنَّهم عمدوا إلى تمويل القمع وتسليح الجيوش وتدريبها ونشر أفكارٍ بعينها في صفوف تلك الجيوش للقضاء على الحركات اليساريّة.

لقد برّر الناس هنا تلك الممارسات بضرورة نشر الديمقراطية، ولكننا لم نفعل سوى عكس ذلك تمامًا: فلقد أطحنا بالديمقراطية وفرضنا الأنظمة الديكتاتورية الوحشية دفاعًا عن مصالح الشركات الأميركية.

- هل أنت شيوعيّة يا سيلينا؟

- فرانك، لم يُعد هناك شيوعيون تقريبًا. لا تُكن ساذجًا. ربّما كان هناك بعض الشيوعيين في الصين أو في كوريا الشماليّة. ولكنها ليست مسألة يسارٍ أو يمينٍ أو غير ذلك من الأيديولوجيّات، بل إنّها مسألة إيجاد حلولٍ عمليّة.

أخذته سيلينا إلى واحدةٍ من تلك التي يُطلق عليها «الدور الصغيرة». كانت أشبه ما يمكن بالبيت، وتألّفت من قاعةٍ مشتركةٍ وثلاث حجراتٍ في كلّ منها أربعة أسرّةٍ وحمّامٌ ومطبخٌ صغيرٌ لتحضير رضاعات الأطفال وتسخين الوجبات الخفيفة. في أحد الأركان استقرّت شجرة ميلادٍ صغيرة، وزُيّنت الجدران برسوم طفوليّةٍ وقصاصاتٍ من الأوراق المكسيكيّة. أوضحت له سيلينا أن التغذية هناك لا بأس بها، وأنّ الملجأ يوفر الثياب لأنّ الأطفال يصلون وهم لا يحملون إلّا ما يرتدون من الملابس. رصد الملجأ ساعاتٍ للترفيه، مع السماح للأطفال بمشاهدة التلفزيون واللعب. كما تميّز المكان بثبات الروتين والنظام الصارم. في حين اتّهمت مراكز أخرى بالإساءة إلى القُصّر، بل وبالانتهاكات أيضًا. حتى إنّ بعض الأطفال قد ماتوا تحت وطأة الإهمال. ولكنّ سيلينا لم تتولّ قضيةً واحدةً من هذا القبيل. كان الأطفال يرتدون السراويل والأقمصة ويظهرون بمظهرٍ نظيف. ولكن سرعان ما انتبه فرانك إلى الصمت الغريب المُخيّم على الأجواء، الذي يُعدّ نقيض المشاهد التي وصفتها سيلينا حيث يستغرق الأطفال في بكاءٍ حارّ. أخذ الصغار يلونون بالأقلام، فلم يرفع أحدهم عينه. أشارت سيلينا إلى الطفلة الوحيدة التي

لم تشارك في النشاط، وإنما ظَلَّتْ جالسةً على أحد الأسيِرَة، ممسكةً بدميةٍ من القماش.

- آنيّا! أنا هنا. - نادتها بالإسبانيّة.

ما لبثت الطفلة أن قفزت من السرير واقتربت من سيلينا التي جثت على ركبتيها، وضمت آنيّا إلى صدرها. كانت شديدة النحول، قصيرة القامة بالقياس إلى عمرها، لها بشرةٌ ذهبيةٌ تليق بالعرق الهجين وقسماتٌ مرهفةٌ وشعرٌ أسود تركه المقصّ قصيرًا. أوضحت سيلينا لفرانك أنه قلّمَا يسمح الوقتُ ببناء علاقةٍ تقوم على الثقة مع الأطفال قبل نقلهم إلى مكانٍ آخر. أضف إلى ذلك تبدّل الموظّفين بصفةٍ مُستمرة. ولكنها قد تولّت أمر آنيّا منذ البداية.

- آنيّا، هذا هو فرانك. ألقى عليه التحيّة. - قالت لها.

تجمّدت الطفلة مكانها. سبق أن نبّهته سيلينا إلى أنّ الطفلة ترتاب في الرجال بوجه العموم. حتى المرشدون الاجتماعيّون القلائل في الملجأ ترتاب في أمرهم، من المرجّح أن يكون السبب في ذلك تجربة مرّت بها مع أحد أفراد حرس الحدود أو أحد الرجال في الماضي. اتّكأ فرانك بإحدى ركبتيه على الأرض حتى يصل إلى مستوى الصغيرة.

- لا تخافي. فرانك طيّب. سوف يساعدك حتى ترجعي إلى أمك. - أردفت سيلينا.

بعد هنيهةٍ من الصمت الذي وجده فرانك أبدئيّا، مدّت آنيّا يدها على استحياء، فصافحها. وفي تلك اللحظة أدرك أنّ الطفلة عمياء.

في اليوم التالي استقلّ فرانك أنجيليري الطائرة إلى سان فرانسيسكو. أمضى ساعاتٍ طويلاً بالملجأ. في البدء لعب مع آنيّا حتى

تطمئن له، ثم استجوبها في المكتب الصغير الذي وقَّرتَه لهما سيلينا. وعند منتصف النهار شاركها وجبةً خفيفةً من شطائر البوريتو المُعاد تسخينها. وفي السادسة مساء نزل في شقَّة سيلينا، بدفترٍ ممتلئٍ بالملاحظات وذهنٍ تعصف به دوامةُ التجربة. ارتجَلَت سيلينا فراشًا من أجله في الصالة. كان يُفترض به أن يذهب إلى توكسان، حيث حجز غرفةً بفندقٍ قريبٍ من المطار. ولكن ما كادت سيلينا تلمح إلى إمكانية المبيت في بيتها حتى وافق بلا تردد. أرجأ فرانك مُخطَّطَ إغوائها إلى أجلٍ غير مُسمًى، لأنَّه يخوض شيئًا أكثرَ جديةً بكثيرٍ من العلاقة الرومانسية العابرة التي قد تخيلها، وأدرك أنَّ أيَّ تلميحٍ من جانبه قد يبدو مهينًا وغير لائق.

رأها فكرةً غير مُوفِّقةٍ وعادةً سيئةٌ يجب عليه أن يقلع عنها. كما أخذ بعين الاعتبار احتمال أن تسخر منه سيلينا، وهو الذي لم ينجح في إبهارها.

كانت لديه ساعتان ونصف على متن الطائرة لمراجعة الملف الذي ينوي مناقشته مع لامبرت، ولكنه انصرف إلى دراسة الملاحظات التي دوَّنها بشأن آيتا بدلًا من ذلك. لقد أثبتت الصغيرة أنَّها أكثر نضجًا من المُتوقَّع. يُحتمل أن يكون ذلك ناتجًا عن تجربة السفر وصدمة الافتراق عن أمها. لقد أرغمتها الظروف على أن تتدبَّرَ حالها بنفسها. فاستعاضت عن الرؤية بالذاكرة القويَّة والانتباه الحادَّ الذي لا تفلت منه تفصيله واحدة، حتى بدا وكأنَّ لها مجسَّات خاصة تمكَّنها من الإلمام بكلِّ ما يحيط بها. لم تفارق آيتا دميته ديدي، وكانت تهمس في سمعها. أمَّا فيما عدا ذلك الشيء فكانت آيتا تبدو وكأنَّها أكبر عمرًا بأعوام، على عكس مظهرها شديد الرهافة. لجأ إلى سيلينا التي ترجمت كلام آيتا حتى يتمكَّن من التفاهم هو والطفلة، وإن شعر بالسرور لأنَّه قد فهم أغلب حديثها. إذن فلم تتبخَّر الإسبانية التي درسها في المدرسة!

أَكْذَتْ أَنيتا ما أَخْبَرْتَه به سيلينا، وَحَدَّثَتْه عن حياتها قبل السفر من السلفادور إلى غواتيمالا ومنها إلى حدود الولايات المتحدة عَبْرَ المكسيك. شعرت بالحنين إلى أمها، وبذلت جهدًا كبيرًا تجشّش بالبكاء وهي تتحدّث عنها.

- أَنيتا، لقد أخبروني بأنّكِ لم تولدي كيفية. - قال لها فرانك.

- تعرّضْتُ لحادثة وأنا صغيرة. أستطيع أن أرى قليلًا في الإضاءة الساطعة. لقد ذهبتُ إلى المدرسة وتعلّمتُ القراءة. ولكنني أكاد أنسى ما تعلّمت، أعتقد. لم تُكنْ مدرستي السابقة للمكفوفين. - أوضحت أَنيتا. أَخْبَرْتَه سيلينا بأنَّ للطفلة عمّةً أو ابنة عمومة في الولايات المتحدة، على ما يبدو. وإنْ تعذّر تحديد مكانها. ربّما كانت من أقارب والد أَنيتا، روتيليو دياس، الذي مات وهي في الثالثة من العمر تقريبًا.

- أَنيتا، مع مَنْ عشتِ في بلدك؟ - سأل فرانك الصغيرة.

- مع تيتا إدو. إنّها جدّتي. ومع جدّي أيضًا، ولكنّه مريض، راقدٌ في الفراش دائمًا. كانت ماما تحضر لرؤيتنا يومي السبت والأحد من كلّ أسبوع.

- نعرف أنّكِ قد قطعِ رحلةً صعبةً جدًّا مع ماما، استمرّت قرابة شهر، وسافرتما على أسطح قطارات الشحن في بعض الأحيان. - قال لها فرانك.

- أجل، سافرنا مع آخرين. كنتُ أنا أصغرهم عمرًا.

- أتعرفين لماذا قطعتما تلك الرحلة؟

- لأنّ رجلًا أراد أن يقتل ماما. وأطلق عليها رصاصة. أخذتني تيتا إدو حتى أراها في المستشفى وشعرتُ بخوفٍ شديدٍ لأنّني ظننتُها

سوف تموت. ولكننا صليّنا من أجلها وأضرّنا الشموع في الكنيسة، فلم تُمت. وبعد أن تحسّنت قليلاً، ذهبت ماما لتأخذني، وسافرنا معاً. بكّت تيتا إدو وماما كثيراً. أما أنا فلم أبك، لأنني وعدتُ ماما بأن أحسن السلوك.

- مَنْ هو ذلك الرجل؟

- العمّ كارلوس. كان يرتدي زياً رسمياً ويملك مسدّساً.

- أتعرفين اسم عائلته؟

- غوميس. كان يذهب إلى بيت تيتا إدو أحياناً، ولكن لا هي ولا ماما شعرتا نحوه بالحبّ.

- أخبريني عن جدّتك. ما اسمها الحقيقي؟

- إدوبيخيس. - أجابت الصغيرة بلا تردّد.

- لقد فهمتُ أنّها حماة ماريسول، وأمّ زوجها روتيليو دياس. - أوضحت سيلينا لفرانك - اسم عائلة ماريسول قبل الزواج «أندراي». وبعد الزواج صار اسمها بالكامل «ماريسول أندراي دي دياس». ثم اختصّر في تقرير الهجرة الذي أُعِدّ هنا إلى «ماريسول دياس»، تيسيراً للأُمور.

- تيتا إدو طيّبة جدّاً. كانت تعتني بي عندما تذهب ماما إلى العمل. وهي أيضاً تعمل. - قالت أنيتا.

- فيمَ تعمل؟

- في صناعة الصبغة النيليّة. تعرف كلّ شيءٍ عن الصبغة النيليّة، وتشرحها للزائرين والسائحين.

وفي الليل، بعد أن رجعا إلى شقة سيلينا، ساعدته في استكمال ملاحظاته بالتفاصيل التي تذكرها بشأن رحلة أنيتا الشاقة. ثم عملا على وضع إستراتيجية قانونية معًا. تناولوا البيتزا على العشاء، وسهرا حتى ساعة متأخرة وهما يتجادبان أطراف الحديث ويستمعان إلى الموسيقى اللاتينية. ودّع كل منهما الآخر بعد منتصف الليل، ثم ذهبت سيلينا إلى حجرتها بينما أوى فرانك إلى الأريكة المغطاة بشعر القط. ما كادت سيلينا تضع رأسها على الوسادة حتى استغرقت في النوم، بينما استراح القط إلى جوارها، من دون أن يخطر لها أن فرانك يفكر فيها وهو يتقلب على الأريكة. كانت سيلينا قد انتبهت إلى جاذبيتها وأدركت قدراتها وهي في طور المراهقة، فمضت تلهو بها قليلًا. ولكن سرعان ما ظهر ميلوش دوديك في حياتها، فلم تعاود استخدام جاذبيتها ما لم تكن في حاجة إلى طلب خدمة من أحد الرجال لصالح الأطفال الذين تدافع عنهم.

لم يفصل بينهما إلا جدار رقيق، بينما أحس فرانك بأنه يمضي منجرًا بقوة غامضة. حاول أن يفكر فيها بعقلانية ويعدد أوجه الاختلاف والعقبات التي تفصل بينه وبين سيلينا: الثياب المهملة، وانعدام الرهافة والدلال، والذائقة الرديئة (يكفي أن يرى المرء تصميم شقتها حتى يدرك ذلك)... والقائمة تطول. غير أنه لم ينجح في إتمام القائمة، إذ كانت تداهم صورة جسدها الغضّ وعينيها المفعمتين بالموّدة وصوتها القوي المنغوم وطريققتها الطليقة المبهجة في معانقة الحياة حتى في غمرة هذا الألم. كما فكر في الطفلة أنيتا دياس. حدّثه شعورٌ بأنّها سوف تكون القضية الأهم في حياته، والوحيدة التي لا تُنسى. لو أخطأ في قضية ألپرستين لخسر مسيرته، كما حدّره لامبرت. ولكنّه لو أخطأ في قضية أنيتا لخسر سلام الروح.

آنيٲا

نوغاليس؁ نوفمبر - ديسمبر 2019

لا بدّ أنّ ماما قريبةٌ جدًّا من هنا؁ لقد لمسْتُ ذلك عندما تحدّثتُ إليها عبْر التليفون. كلاوديا؁ ما رأيكِ أنتِ في ذلك؟ أليس صحيحًا أنّ صوتها جاء قريبًا جدًّا؟ لم أبكِ؁ مع أنّي شعرتُ برغبةٍ في البكاء. حسنًا؁ لقد بكيتُ قليلًا؁ ولكنّها لم تنتبه إلى ذلك؁ لأنّني بكيتُ في صمت. انظري يا كلاوديا؁ لو كانت ماما قادرةً على الحضور إلى هنا لَ جاءت. ولكنّ الأمر أنّها لا تستطيع الآن. حتى هي راحت تبكي؁ ولذا قلْتُ لها إنّنا بخير مع باقي الأطفال في هذا البيت الذي لا يشبه «الثّلاجة»؁ لأنّه يضمّ فناءً وألعابًا؁ وتقدّم لنا فيه المثلّجات أحيانًا. لماذا أخبرها بأنّنا نرفض الطعام لأنّه لا يروق لنا؟ صحيحٌ أنّه لا يشبه طعام تيتا إدو. ولكن الأفضل ألاّ تعرف ماما بذلك. لقد أخبرتني ميس سيلينا بأنّها ستحاول الاتّصال بها مُجدّدًا ذات يوم. ولكنّ الأمر صعب؁ لأنّ ماما نُقلت إلى مكانٍ آخر. لو بكينا لما أفاد ذلك بشيء؁ بل إنّ البكاء يجعل ماما أشدّ

حزنًا. لو أردنا أن نبكي، ولم يخرج صوتنا في أثناء الحديث إليها، سأترك الجوال ليدي حتى تتكلم بنفسها.

طبعًا، أذكر أنهم قد أخذوا ماما مُقَيَّدَةً بالأصفاد، ولكن هكذا يعاملون الأشخاص في «الثلاجة» دائمًا. إنه شيءٌ مُؤَقَّت، وبعد ذلك يُخرجونهم من هناك. لا يجب أن نصرخ لهذا السبب. كدتُ لا أرى شيئًا، ولكنني سمعتُ صوت الحرس ورنين الأصفاد، وسمعتُ صوت ماما وباقي النساء في «الثلاجة» وهن يصرخن ويقلن: «لماذا تعاملونا هكذا! نحن من الشرفاء. نحن أمهاتٌ ولدَيْنَا أطفالاً صغار. لسنا مُهَرَّبِي مخدراتٍ ولا مجرمين!». ولكن أحدًا لم يلقِ إليهن بالاً. أخذوا ماما، فلم يسعفها الوقت لتطلب منِّي إلّا شيئًا واحدًا، إلّا أخاف، لأنها ستعود بسرعة. لا أعرف إن عادت يا كلاوديا، لأنهم ما كادوا يأخذونها حتى أمسكوا بنا ووضعونا في ذلك الأوتوبيس.

أوضحت لي ميس سيلينا أننا هنا مُؤَقَّتًا، حتى تجهز أوراق ماما، وبعد ذلك سوف يأخذونا إليها. نحن بخير هنا. بأفضل حال. هكذا يجب أن نُخبر ماما عندما نتحدَّث إليها مرَّةً أخرى. أفهمتِ يا كلاوديا؟ لا يجب أن نشير قلق ماما، لا يجب أن نقول لها إننا نشعر بحزنٍ أو خوف، أو نسألها لماذا جاءت بنا إلى الشمال، فهي تعرف ماذا تفعل. لقد كنَّا بخير في السلفادور حتى ظهر ذلك المدعو كارلوس، فأصيبَت ماما بخوف. أنا أيضًا أريد أن أعود إلى بيت تيتا إدو، أريد أن يعود كلُّ شيءٍ كما كان من قبل. لا أريد أن أبقى مع أشخاصٍ لا نعرفهم، أشخاص لا يتكلَّمون حتى مثلنا. ولكن لا يمكن أن نفوز بكلِّ ما نريد في هذه الحياة.

كلاوديا، إن رغبتِ في الصراخ فيجب عليكِ أن تفعلِي كما أفعل أنا، يجب عليكِ أن تفكرِي في أفكارٍ جميلة: ماما عندما كانت سعيدة، والنوم على سريرٍ واحدٍ معًا، وتيتا إدو والكلاب والطيور، ونظَّ الحبل،

ولعبة الحلقة، والمدرسة حيث كنت ترسمين بأصابعك، وحفلات الشوارع في حضور الجيران كلهم، والبالونات والألعاب النارية، والنزهة على الشاطئ. كم كان العيش في بلدنا جميلًا! أتذكرين إحدى الأغنيات؟ أنا أذكر. هيّا نغن «بين يون». ألا تريدان تلك الأغنية؟ إذن فهيّا نغن «أرز بالحليب»، لطالما أحببت تلك الأغنية. «أرز بالحليب، أريد أن أتزوج فتاة جميلة من قلب المدينة...». عندما أشعر برغبة في البكاء، أفكر في الفطائر التي كانت تيتا إدو تعدّها أيام الجمعة وكيف كانت تسمح لي بمساعدتها في المطبخ. أجيدُ صنع الخبز، فأنا لستُ في حاجةٍ إلى الرؤية حتى أخبز. كُنّا نزيّن المائدة بأغصانٍ وأزهارٍ من الفناء، وننتظر ماما التي تصل في وقت مُتأخّر في أتوبيس الثامنة. ولكنها تصل دائمًا. عند ذاك لا تسمح لها تيتا إدو بأن تفعل أيّ شيءٍ في البيت لأنّها تأتي متعبةً من العمل، وينبغي لها أن تستريح. في ليلة الجمعة كنتُ أمسّد قدمي ماما ونحن نشاهد التلفزيون، فتستغرق في النوم ونُضطرّ إلى أن نحكي لها المسلسل في وقتٍ لاحق. ثم تفيق يوم السبت وقد زال عنها التعب، وتقوم مُبكّرًا لتؤدّي الأشغال المنزليّة وتساعد تيتا إدو التي تحمّم جدّي. بعد ذلك نخرج للتمشية. لا أريدك أن تنسي شيئًا من هذا يا كلاوديا. لهذا أحكي لك، مع أنّك على علمٍ بذلك.

كما يروقني التفكير في كتاب الحكايات الذي كُنّا نقرؤه بالمدرسة، وفي كتاب الجنيّات والكائنات المسحورة الذي تملكه تيتا إدو. كانت تقرأ لنا من ذلك الكتاب، أتذكرين؟ أنا أيضًا تمكّنتُ من قراءته. ولكن ليس بسرعةٍ كبيرة، بل رويدًا رويدًا. كان الأفضل أن أبدأ حكاية، وأقرأ منها قليلًا، ثم أقرأ صفحة من كتابٍ آخر، فأخر، وأمزج بين الصفحات، وهكذا تتبدّل الحكاية في كلّ مرّة، ولا ينتهي الكتاب أبدًا. كانت تلك طريقي المُفضّلة في القراءة قبل الحادثة.

أَمَّا الآنَ فَأَنَا مُضْطَّرَّةٌ إِلَى الْقِرَاءَةِ فِي ذَهْنِي، حَتَّى أَحْصِلَ عَلَى عَدْسَةٍ مُكَبِّرَةٍ ضَخْمَةٍ كَتَلِكِ الَّتِي كُنْتُ أَحْتَفِظُ بِهَا فِي بَيْتِ تَيْتَا إِدُو. لَقَدْ اسْتَفَدْتُ بِهَا كَثِيرًا فِي الْمَدْرَسَةِ. سَوْفَ أَتَكَلَّمُ مَعَ مَيْسِ سَيْلِينَا ذَاتَ يَوْمٍ، رُبَّمَا اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَحْصِلَ عَلَى عَدْسَةٍ مُكَبِّرَةٍ مِنْ أَجْلِي. أَتَمَنَّى أَلَّا تَكُونَ بَاهِظَةً الثَّمَنِ.

لَقَدْ حَكَيْتُ لَكَ عَنْ أَسابَارِ، الْعَالَمِ الْمَسْحُورِ. فِي ذَلِكَ الْعَالَمِ، أَنَا وَأَنْتِ أَمِيرَتَانِ، وَمَامَا مَلِكَةٌ، وَتَيْتَا إِدُو هِيَ الْجَنِّيَّةُ الْأَمُّ. أَسابَارُ لَيْسَتْ السَّمَاءُ، بَلْ إِنَّهَا أَفْضَلُ مِنَ السَّمَاءِ، لِأَنَّ الْمَرْءَ لَيْسَ مُضْطَّرًّا إِلَى الْمَوْتِ حَتَّى يَذْهَبَ إِلَى هُنَاكَ. لَا قَدِيسُونَ فِي أَسابَارِ، وَلَا شُهَدَاءَ. لَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا عِزْرَاءُ السَّلَامِ، فَوَحْدَهَا تَحْكُمُ. يَعِيشُ نَاسٌ فِي تِلْكَ النَّجْمَةِ، وَيَذْهَبُ إِلَيْهَا الزَّائِرُونَ مِنْ كَوَاكِبِ أُخْرَى، وَالْحَيَوَانَاتُ بِكُلِّ أَنْوَاعِهَا، بَعْضُهَا نَعْرِفُهُ وَبَعْضُهَا غَيْرُ مَوْجُودٍ هُنَا فِي كَوْكَبِ الْأَرْضِ. هُنَاكَ مَلَائِكَةٌ حَارِسَةٌ كَثِيرَةٌ، مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ. لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَأْتِي مِنْ هُنَاكَ، إِنَّهُ بِلَدِهَا. هُنَاكَ بَعْضُ الْأَطْفَالِ الْمَوْتَى، وَلَكِنْ عِدْدُهُمْ قَلِيلٌ. وَلَا يَنْتَبِهُ إِلَيْهِمْ أَحَدٌ، لِأَنَّهُمْ كَالْأَحْيَاءِ. يَقَعُ عَالَمُ أَسابَارِ فِي نَجْمَةٍ بَعِيدَةٍ. اللَّيْلَةُ، عِنْدَمَا تَخْتِمْ الْعَتَمَةَ وَيَسْتَغْرَقُ الْجَمِيعُ فِي النَّوْمِ، سَوْفَ نَخْرُجُ إِلَى الْفَنَاءِ لِرُؤْيَا النَّجْمَةِ الْأَشَدِّ سَطْوَةً بَيْنَ النُّجُومِ، تِلْكَ هِيَ أَسابَارُ.

لَا يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَبْكِي وَإِلَّا أَخْفَنَّا دِيدِي، وَهَنَا لَا يَحْبُونُ الْأَطْفَالُ كَثِيرِي الصَّرَاحِ. لَوْ عَرَفَتْ مَامَا أَنَّنَا نَبْكِي وَنَرْفُضُ الطَّعَامَ لَحَزَنْتْ عَلَيْنَا. لَقَدْ وَعَدْنَاهَا بِأَنْ نَتَحَلَّى بِالشَّجَاعَةِ. لَا تَخَافِي، فَأَوْلُئِكَ الْمُعَلِّمَاتُ طَيِّبَاتٌ. لَا يَضْرِبُنَا وَلَا شَيْءٌ مِنْ هَذَا. وَالْأَطْفَالُ أَيْضًا طَيِّبُونَ، كُلُّهُمْ تَقْرِيئًا طَيِّبُونَ. أَمَّا رُونِي وَلُويْسِيْتُو فَلَنْ نَلْعَبَ مَعَهُمَا، لِأَنَّهُمَا لَيْسَا مِنَ الطَّيِّبِينَ. وَلَكِنِّي أَكْبَرُ مِنْهُمَا وَلَنْ أَسْمَحَ لَهُمَا بِمُضَايَقَتِنَا. مَنْ حَاوَلَ أَنْ يَنْتَزِعَ مِنَّا دِيدِي

صفعته على وجهه بقوة، ولا يهمني لو تعرّضت للعقاب على ذلك. روني أسوأ من لويسيتو. إنّه «دودة الكاكا». هكذا يُسمّى: «دودة الكاكا». لن نحتكّ به. ولو اقترب منّا لبصقنا عليه. أمّا لويسيتو الأبله، فاسمه الحقيقي: «قيء السحلية».

كلاوديا، في الليلة البارحة رأيت ملاكي الحارسة وأنتِ نائمة. إنّها صغيرة. كنتُ أظنّ الملائكة، الرجال منهم والنساء، أشخاصًا طوال القامة يرتدون أقمصه النوم، ولديهم أجنحة من الريش الكبير، كملائكة الكنيسة. ولكنهم لا يبدوون كذلك. بل إنّ الواحد منهم في حجم العصفور تقريبًا. لملاكي الحارسة جناحان صغيران شفيفان كالنوافذ، لا بدّ من الانتباه جيّدًا لرؤيتهما. لا تحيط بها هالة ذهبية، ولكن في رأسها قرنًا ينتهي بريشة وحيدة، كذيل طائر المطموط. وهي تتكلّم من خلال تلك الريشة، لأنّها بلا فم. لقد رأيتها، لأنّ الملائكة لا تُرى بالعينين، وإنّما بالذهن. لا يهمّ أن أكون شبه عمياء، فلقد رأيتها بكلّ وضوح. كانت إلى جوار فراشي، شاهقة البياض، حتى شعرها كان أبيض كالسحاب. ما زلتُ أذكر السحاب، ولم أنسه. شعرتُ بالخوف في أوّل الأمر، ثم زال عني الشعور بالخوف حين قالت لي إنّها ملاكي. حدّثتني بكلمات ساكنة، كلمات سمعتها في رأسي، لهذا لم يسمعها أحدٌ سواي. بينما ظلّ باقي الأطفال مستغرقين في النوم، وأنتِ أيضًا.

قالت لي إنّ لكلّ واحدٍ منّا ملاكًا، بلا استثناء. وأنتِ أيضًا لكِ ملاك. ولهذا يجب علينا أن نصلي كلّ ليلة، فذلك أشبه بالتحية: «يا ملاكي الحارسة، يا رفيقتي الحلوة، لا تهجريني ليلاً أو نهارًا». لكلّ بنتٍ ملاكٌ حارسة، ولكلّ ولدٍ ملاكٌ حارس. حتى ملائكة الأولاد لا يشبهون ملائكة الكنيسة، فهم لا يملكون أجنحة ضخمة ولا شيئًا من ذلك.

بل إنَّهم مثل ملائكة البنات، ولكن لونهم أزرق، وأحيانًا أخضر، الأمر يختلف .

سوف تأخذنا ملاكي لزيارة أسابار. ستمرّ ماما بنا هنا أولًا، ولكن لو تأخّرت يمكننا لقاءها في أسابار. متى ذهبنا إلى هناك في المرّة القادمة، سنجدها في انتظارنا. ربّما كانت خفيّة. يحدث ذلك أحيانًا. ولكن لا يهمّ، فمن الممكن أن نحسّ بها ونتحدّث إليها على كلّ حال. أجل، نستطيع أن نأخذ ديدي معنا. ولكن هذا سرّ بيني وبينك. إيّاك أن تخبري أحدًا بذلك، وإلا غضبت الملاك وما أخذتنا إلى أيّ مكان. لن ترحل الملاك إلى الأبد يا كلاوديا، لا تكوني بلهاء. يجب عليها أن تبقى مع البنت التي تُكلّف بحراستها. إنّه عملها، لا يمكنها الرحيل متى يحلو لها. سوف تبقى ملاكك معك حتى وإن غضبت منك، ولكنّها ستكون سعيدة إذا احتفظت بالسرّ.

أغلب الأطفال يبللون الفراش، كما ترين. كثيرٌ من الأطفال هنا يفعلونها، حتى «دودة الكاكا»، ولذا يُوضَع غطاءٌ من البلاستيك تحت الملاءة، كيلا يبتلّ الفراش. لا أدري لماذا يحدث ذلك هنا في الشمال، فلا أحد يبلّل فراشه في بيت تيتا إدو. لن يعاقبونا. لا يمكن أن يعاقبنا أحدٌ لهذا السّبب، لأنّها حادثة، وليست مثل الشجار أو فورة الصراخ، هكذا أخبرتني ميس سيلينا. لا يهمّني لو وقعت لك حادثة في سريري، ليس هذا بالشّيء الخطير. هكذا هي الحياة.

كان حفل أعياد الميلاد رائعًا، بفضل الموسيقى والهدايا. تلقّيتُ أقلامًا ملوّنة، ولكن الأقلام لا تنفعني بشيء، فاستبدلّ بها الصلصال. سوف أصنع فترانًا صغيرةً بالصلصال حتى ترافق ديدي، هل توافقين؟ كان الأطفال كلّهم سعداء، فلم يبكّ أو يتشاجر أحد. لقد انزعجتِ أنتِ

لغياب مغارة الميلاد^(١)، ولكنها لا تُستخدم هنا. حتى أنا أفتقد مغارة الميلاد، مع أنَّ تماثيل مغارتنا في السلفادور صغيرة جدًا، فلا يدري الناظر إليها أيّ التماثيل للقديس يوسف وأيّها للرعاة. إنها أول مرة نقضي أعياد الميلاد في غياب ماما وتيتا إدو. أتذكرين أنَّ ماما لم تكن تعمل يوم عيد الميلاد وليلة رأس السنة؟ لأنها تحصل على إجازة. كُنَّا نذهب إلى الشاطئ لرؤية الخال خينارو. عندما نرجع إلى السلفادور سوف أطلب من الخال خينارو أن يعلمني ركوب الأمواج. لا مانع في أن يركب الأمواج شخصٌ كفيف، على ما أعتقد. لقد أحزنني أن أقضي أعياد الميلاد في غياب ماما وتيتا إدو. وإن خفَّ الحزن قليلًا حين جاء ذلك المدعو فرانك، وقال لي إنه سوف يحاول أن يجمع شملنا نحن وماما في أقرب وقت ممكن. لقد أعجبني فرانك إلى حدٍّ كبير، مع أنَّه يتكلَّم بطريقةٍ غريبة. لا يجيد الإسبانية. أعتقد بأنه طيّب، لأنه صديق ميس سيلينا. أتمنّى أن يفي بوعدِهِ.

١ - من تقاليد أعياد الميلاد إعادة تمثيل المغارة حيث وُلد الطفل يسوع باستخدام تماثيل صغيرة تجسّد العائلة المقدّسة والرعاة إلى آخره.

صامويل

نيو أورلينز، لندن، بيركلي، 1958 - 1970

افتتن صامويل أدلر بنيو أورلينز، وهو الذي كبر في إنجلترا وعاش حياةً في غاية التنظيم. كان عام 1958 مشهودًا في تاريخ تلك المدينة، لأنَّ الثلوج قد تساقطت خلال شهر فبراير لأول مرةٍ منذ عشرين عامًا، وفي شهر مارس جاء إلفيس بريسلي لتصوير أحد الأفلام. تجمَّعت الحشود المُتحمِّسة أمام الفندق حيث أقام، فاضطُّرَّ إلى الصعود عَبْرَ سُلَّم الحريق والدخول إلى الفندق مِن خلال السطح. وعندما جاء صامويل بعد شهور، كان إلفيس بريسلي لا يزال موضوع الساعة الذي لا يتحدَّث الشباب إلَّا عنه. بينما انطلق النقاد يهاجمونه بضراوة، والكبار يردِّدون ذلك الحكم المُدْمِر الذي أطلقه فرانك سيناترا: «إنَّ الروك أند رول أقبح وأبشع أشكال التعبير التي شاء لي حظِّي التعيس أن أستمع إليها، وأشدَّها يأسًا وهمجيَّةً أيضًا». ولكنَّ صامويل لم يشعر بأدنى اهتمام تجاه

نجم الروك، صاحب الخصر العصي على السيطرة. بل إنه قد ذهب إلى نيو أورلينز من أجل الجاز.

لو كان قد اندمج في حيّ المهاجرين الوافدين من الكاريبي، حيث عاش في لندن، فربما لم تترك مدينة نيو أورلينز في نفسه ذلك الأثر القوي. ولكنّه لم يستأجر شقّة في الحيّ الكاريبي البسيط إلّا بسبب الإيجار المنخفض، لأنّه لا يستطيع أن يدفع إيجارًا أعلى. كان يمرّ كالشبح وسط الجموع الملوّنة الصاخبة في تلك الشوارع، من دون أن يتحدّث إلى أحد، ويوصد بابه حتى يتدرّب على الكمان، فلا يسمع دقات طبل الصفح الآتية من الخارج ولا الموسيقى التي تنساب من راديو الجيران. كان يشتري المستلزمات من السوق مكتفياً بالمكوّنات الضروريّة للطعام الذي لا يتغيّر أبدًا، فلا يجرب الفاكهة والخضراوات الواردة من أمكنة أخرى، ولا يلقي بالاً إلى الطيور كثيرة الصياح في الأقفاص المبهرجة، ولا الدجاج ولا الخنازير التي تنتظر الذبح، ولا الأسماك ولا ثمار البحر التي تملأ السلال، ولا الأزهار ولا المشغولات اليدويّة. وإذا به يجرب كلّ ذلك دفعةً واحدةً عندما وصل إلى نيو أورلينز. في البدء لم يفهم كثيرًا ممّا يُقال، لأنّ اللغة الدارجة في الشارع هي الكاجون، إحدى اللهجات الفرنسيّة. كما وجد صعوبةً في التّأقلم على اللهجة الإنجليزيّة الأميركيّة. وإذا بتلك المدينة تهزّه بعنفٍ وترغمه على التخلّي عن التردّد والخبجل. فما دام يريد أن يتعلّم شيئًا عن الجاز، يجب عليه أن يغوص برأسه في جنون الحيّ الفرنسيّ ليلاً.

كانت أمامه عشرة أيام. ولقد عزم على أن يستغلّها في الموسيقى إلى أقصى حدّ ممكن، حتى إنّ له لم يرد أن يهدر وقتًا في السياحة أو تذوّق الطعام المحليّ. كان ليتحقّق له ذلك لولا أنّ الحظّ قد وضع نادين ليلانك أمامه في الحانة الأولى، التي كانت مثل غيرها من الحانات

الكثيرة في شارع بوربون، بما حوت من الزينة المعهودة في مطلع القرن والإضاءة الخافتة والكثير من موسيقى الجاز. امتلأت الحانة بالحضور، الذين ظلّ أكثرهم وقوفًا على الأقدام، بينما راح بعض النُدل يجوبون المكان مُحمّلين بصواني الشراب التي يحافظون على اتزانها بأيديهم ويمرّون وسط الطاولات الحافلة كلّها بالحضور. أخذ صامويل يسعل مُتأثرًا بروائح الدخان والعرق والعطور، فأحسّ وكأنّ يدًا خانقة تعصر عنقه. كان بعض الموسيقيّين اللَّافتين للأنظار، من الأصل الإفريقيّ الأميركيّ، يعزفون على آلاتهم ويلعبون بالنغمات ويرتلون المقطوعات المنفردة ويشاركون في العزف معًا من دون أن ينقطع الخيط الموسيقيّ أبدًا. في بعض الأحيان يبدو وكأنّ عازفًا منفردًا قد انطلق إلى مجرّة أخرى بالبيانو أو آلة الساكسفون، ولكنّه يعود في كلّ مرّة إلى الفرقة، ثمّ يحلّ موسيقيّ آخر مكانه، بينما الكونترباص يضبط الإيقاع بشكلٍ محتوم، ويستدعيهم إلى الأرض مرّةً أخرى. كيف يفعلون ذلك؟ يعرف صامويل أنّهم يستعينون بالإشارات لتحديد بداية كلّ مقطوعة منفردة ونهايتها، أو نهاية العرض، غير أنّه لم يلمح إشارة واحدة.

وبينما هو مستغرق في الموسيقى، منهمك في متابعة الإيقاع، من دون أن يلاحظ أنّه يرقص على مقعده، جلّست إلى جواره امرأةٌ ونفخت دخان سيجارتها في وجهه. تراجع صامويل إلى الخلف منزعجًا لأنّها قاطعته. ولكن ما إن تبدّد الدخان قليلًا حتى وجد أنّها لم تكن امرأةً مبتدلةً كما توقّع، بل إنّها فتاةٌ رائعة الجمال في مقتبل العمر.

- مرحبًا، هامفري. - صاحت مبادرةً بالتحية حتى يعلو صوتها على

الموسيقى.

- لا أدعى هامفري. - أوضح لها.

- هل أخبرك أحدهم بأنك نسخة من هامفري بوغارت؟ تبدو وكأنك توأمه. هل شاركت في أحد الأفلام؟ بوغارت هو نجمي المفضل.

- ألم يفارق الحياة قبل وقتٍ قصير؟

- ولكنه ما زال نجمي المفضل. لا نستطيع أن نتحدث هنا، تعال معي يا مستر بوغارت. - أقامت صامويل من المقعد ممسكةً بيده. بالكاد أسعفه الوقت ليترك ورقةً مائيّةً على الطاولة، ثم تبعها إلى الخارج.

جذبتَه الفتاة إلى مجموعةٍ من الشباب الذين يشربون في الشارع وسط حشودٍ من كلِّ الأعمار والأشكال والأعراق، في حين مضى الناس جيئةً وذهابًا وسط أجواء احتفالية. امتزجت موسيقى الحانات والمطاعم بصخب الجموع والأحاديث التي دارت بأصواتٍ هادرةٍ من شرفةٍ إلى أخرى.

- هل حان موعد الكرنفال؟ - سأل صامويل.

- مهرجان «ماردي غرا» يوافق شهرَ فبراير. أمّا الليلة فمُجرّد ليلة جمعةٍ عاديةٍ. غدًا يصبح المكان أكثر نبضًا بالحياة. - أوضحت له.

- أنا صامويل أدلر، سررتُ كثيرًا بمعرفتك.

- اسمي نادين. - قالت، ثم قدّمته إلى المجموعة بوصفه صديقها الجديد، مستر بوغارت.

كانت نادين لیبیلانك من إحدى الأسر العريقة بالمدينة. ولقد بدأت في تلك الحقبة تختلط بالمجتمع بعد أن قضت اثني عشر عامًا في مدرسة صارمةٍ للراهبات، حيث تعلّمت كيف تتحدّث الفرنسية وكيف تكذب وكيف تدخّن وكيف تشتم بلغتين وكيف تتسلّل من

نافذة الطابق الثاني هربًا إلى الشارع، على حدّ قولها. أخبرت صامويل بأنها تستمتع بكلّ دقيقة من الحرّية التي انتزعتها انتزاعًا، أمام عجز والديها واستيائهما. «أنا مُستقلّة»، أوضحت له. والحقيقة أنّها لم تكن كذلك، لأنّها تعتمد على أسرتها في كلّ شيء، ولكنّها لم تُعَدّ تطلب الإذن في أيّ شيء. بالانتهاء من المدرسة تخرج فتيات تلك الطبقة إلى المجتمع - فيقبلن على الرقص والحفلات والنزهات ورحلات المراكب وركوب الخيل - حتى يراهنّ الناس، فيحصلن على تقييم في سوق الزواج. تحرص العائلات على إظهار النفوذ والصلات والممتلكات، بينما تتبخر الوافدات حديثًا بأخر صيحة من الثياب، وغالبًا ما تتظاهر الواحدة منهنّ بأنّها أكثر فضيلةً وحشمةً ممّا هي عليه. كان سابقًا لا رحمة فيه من أجل الحصول على خطيب. وقضت الضرورة بالزواج قبل الخامسة والعشرين لتجنّب وصمة «العنوسة».

أما نادين فكانت هي الاستثناء وسط فتيات طبقتها الاجتماعية. سبق لها أن أثارت حفيظة الأسرة والراهبات. وفي ذلك العام قرّرت أن تثير حفيظة المدينة بأسرها. كان آخر ما ترغب فيه أن تلصق بنفسها سمعة «الفتاة العذراء الأرستقراطية» للإيقاع بزواج على شاكلة أبيها أو إخوتها، ثم الركون إلى دور الزوجة والأم. بل إنّها فضّلت إثارة النمام. كانت جامحة الطباع، كما وصفت نفسها، الأمر الذي يغفره لها الناس في كثيرٍ من الأحيان لأنّها فتنةٌ لا تُقاوم. مضت ترتاد الحانات وتُدخّن السجائر بالفلتر وتشرب حتى الثمالة وترقص مستغرقةً في غيبوبةٍ بقدَميّها الحافيتين وشعرها المائج، وكأنّها مجنونة، من دون أن تأبه لذلك المزيج من مشاعر النفور والحسد التي تثيرها في نفوس الفتيات والفتيان القادمين من الخلفية ذاتها. مضت تزهو بأنّ إحدى جدّاتها الكبرى سوداء البشرة، وسط ذهول العائلة. الأمر الذي صدم ذلك المجتمع

العنصريّ صدمةً بالغة الشدّة، إلى حدّ جعل الخبر يُنشر في الصحف . ولكن شيئاً من ذلك لم يروّع صامويل ، بل إنّه كان مسحوراً بتلك الفتاة التي تقف على طرف النقيض منه . لأنّها تحطّم النمط الذي يعده الناس لائقاً، وتتحدّاه وتغويه . حتى جمالها لم يَكُنْ مألوفاً: بجسدها النحيل المستوي كأجساد الفتيان، ووجهها المُعبّر ذي القسمات غير المُتناسقة، وحاجبيّهما الكثيفين، وشعرها الأسود الملتوي المُبعثر، وبشرتها البرونزيّة، وابتسامتها الحاضرة المائلة قليلاً، وفمها الممتلئ الذي تزيّنه بأحمر الشفاه . أمّا السّمة الأكثر تميّزاً في ملامحها، فكانت عينيها الزاهيتين اللوزيتين اللتين ذكّرتا صامويل بعيني النمر . امتلكت نادين موهبةً نادرةً في الإغواء، ولقد طوّعت تلك الموهبة كالخبيرة مع أنّها لم تزل في مقتبل العمر .

- سوف آخذك للاستماع إلى أفضل موسيقى جاز في نيو أورلينز .
- عرضت عليه حين عرفت أنّه مُهتّم بالجاز .

لم يقتصر الأمر على الموسيقى، إذ رافقته نادين إلى تلك الحياة المفعمة بالسعادة - مع مجموعة الأصدقاء الذين كانوا كلّهم أصغر منه عمراً، وكلّهم أثرياء، مُتبحّجون، بلا ثقافة- ومضت به إلى حفلاتٍ خاصّة، ورحلاتٍ في نهر الميسيسيبي على متن الكازينو العائم الذي يعمل بالبخار منذ مئة عام، كما أخذته لتدخين الحشيش وشرب الويسكي الرديء في جزيرة صغيرة في الدلتا تُسمّى «المعبد»، هناك حيث كان قراصنة الكاريبي يبيعون العبيد الأفارقة وغنائم النهب في قديم الزمان . كما صحبته في جولةٍ ليليّةٍ بحيّ البيوت المسحورة والزومبي والأشباح ومصاصي الدماء، هناك حيث كانت نادين تلتقط الصور وهي تعانق أحد الهياكل العظميّة، في حين تصرخ باقي الفتيات رعباً . ومضت به إلى ساحرةٍ من هايتي، كانت امرأةً ضخمةً مذهلة، تعتمر عمامةً وتزيّن بكثيرٍ

من القلائد المُلَوَّنة، في كوخٍ يقع بذلك الحيّ العتيق، حيّ الخلاسيّات الحرائر، حيث تتجر الساحرة بأعمال السحر والكهانة والتمائم الحارسة وتعويزات الحبّ والموت. نثرت عليه الساحرة دماء دجاجةٍ ذبيحة، ونفخت في وجهه دخان التبغ، وقرأت له الطالع على بضع أصداف. ومقابل سعرٍ معقولٍ باعته حزمةً من الأعشاب والعظام الملفوفة بقطعةٍ من القماش للوقاية من الحسد.

- يمكنك أن تسألني سؤالاً واحداً، السعر يشمل ذلك. - قالت له، فلم يخطر شيءٌ واحدٌ على بال صامويل الذي دار الكحول برأسه. - هل سنتزوج؟ - سألتها نادين اغتناماً للفرصة. - بالطبع يا حلوتي.

في اليوم الرابع من السهر والصخب، تركت نادين مجموعة الأصدقاء وأولت صامويل تركيزها. أرادت أن تنفرد بذلك الرجل شديد الجاذبية، الذي يشبه مُمثليها المُفضَّل ولا يُقارَن بأيٍّ من الشباب الذين يتودّدون إليها، فهم يبدون إلى جواره كالأطفال الصغار. انبهرت نادين بثقافته الأوروبية، واستأثر بفضولها نزوعه إلى الصمت. خُيِّلَ إليها أن ذلك الإنجليزي يخفي وراءه أسراراً. ربما كان جاسوساً يتخذ الجاز واجهةً حتى يخفي حقيقته.

سرعان ما خَمِنَ صامويل أن ذلك القناع، قناع المرأة الفاتنة المميّنة الذي استلهمته نادين من السينما، يخفي وراءه فتاةً مُتهوِّرة، ساذجة، مُدَلِّلة. ولكنّها ذكيّةٌ سخيّةٌ فوق كلّ شيء. وقع كلّ منهما في حبّ الآخر بذلك الشغف المُتلَهِّف الذي يليق بأول حبٍّ في الشباب. وبعد عشرة أيام اضطرّ صامويل إلى أن يودّعها عائداً إلى إنجلترا. وعند الوداع، توسَّلَ إليها حتى تتزوَّجه.

افترق صامويل ونادين قرابة عامين، إذ كان يجب عليها أن تبلغ سنَّ الرشد لتتزوَّج منه. كما رفض والداهما الموافقة على تلك الزيجة، لأنَّه لا يملك ثروة ولا وجهةً اجتماعيَّة - بل إنَّه في الواقع مجرَّد شخص مغمور تمامًا - ، أضف إلى ذلك أنَّها لم تنضج بعد، ويحتمل ألا تنضج أبدًا، كما قيل لها. ظلَّت نادين ترتاد الحفلات وتتدلَّل على الفتيان الكثيرين الذين يتودَّدون إليها. ولكن ما إن حان عيد ميلادها حتى أعلنت أنَّها سوف تنضمُّ إلى حبيبها في إنجلترا. ارتفع صياح الأبوئن حتى بلغ عنان السماء. كيف تعيش مع رجلٍ من دون أن تتزوَّجه! ودَّعت أهلها في بهجة، ثم غادرت وهي ترتدي بدلةً وتعتمر قُبعةً باللون الأرجواني الذي يبرز لون بشرتها، ولم تحمل من المتاع سوى حقيبة صغيرة.

عقدًا زواجهما بلندن في حفلٍ مدنيٍّ خاص، حيث لم يشهد على الزواج إلا السيّد والسيدة إيقانز، اللذان قدَّهما صامويل إليها بوصفهما أبويَّه الروحانيَّين. عند ذاك وحسب اكتشفت نادين أنَّ زوجها بلا أسرة، وأنَّه قد تيسَّم في الحرب، أما هذان الزوجان من جمعية الأصدقاء فهما مصدر الحبِّ المُستقرِّ الوحيد في حياته. كما اكتشفت أنَّه ليس إنجليزيًّا، بل إنَّه يهوديٌّ من النمسا، فراحت تفكِّر لاهيةً في ردِّ فعل عائلتها العنصريَّة المعادية للساميَّة متى بلغها الخبر.

اتَّخذًا قرار الزواج، فأثبتت نادين لبيلانك أنَّها أكثر نضجًا ممَّا يتوقَّع أيُّ من معارفها. كان زوجها يجني قوته بالعمل عازفًا في الأوركسترا ومُعَلِّمًا للموسيقى، ولكن ما يجنيه من كلا العمليَّين بالكاد يكفي لحياةٍ خاليةٍ من الترف. تخلَّت نادين عن «جهاز العروس» الذي بدأت تحضِّره منذ عمر الخامسة عشرة وتركته في نيو أورلينز، ذلك الجهاز الخلق بالعائلات الميسورة، الذي كان يتألَّف من: الملاءات والمناشف والمفارش المُطرَّزة والثياب الداخليَّة المصنوعة من الدانتيل والحري

وأواني كريستال باكارت وفضيات كريستوفل وبورسلين ليموج وجميع مستلزمات البيت الأنيق. يمكن لأخواتها استخدامه، أمّا هي فليست مُهتمة. لقد هجرت ماضيها غير أسفة عليه. وبعكس تكهّنات عائلتها المتشائمة، لم تفتقد شخصًا واحدًا ولا شيئًا واحدًا. قرّرت أن تعيش في سعادة مع صامويل، وتحقّق لها ذلك.

بين عشية وضحاها تحوّلت «مجنونة البيت» - كما أطلق عليها إخوتها، وكما كانت تقدّم نفسها بين لهو وجدّ - فصارت شخصًا آخر. كانت نادين في نيو أورلينز فردًا واحدًا ضمن عشيرة ضخمة، وشبكة من الصلات العائليّة والاجتماعيّة القادرة على أن توفر لها الرفاهية والحماية. لم تفكّر في النقود، فلطالما كانت لديها وفرة منها. كما عابها شيء من الغلظة والخشونة، لأنّها قد ألقت مزايا الطبقة الاجتماعيّة وتمتعت بالحصانة. ولكنّها ما إن تزوّجت حتى هبطت على أرض الواقع، واقع المهاجرين الذين عاشت وسطهم، فواجهته من دون أن تنظر إلى الخلف أو تفكّر في خسارتها.

استقرّ بها المقام في شقّة صامويل الرثّة، بالطابق الرابع، في بناء خالٍ من المصعد الكهربائي، وعقدت العزم على أن تجعل من المكان بيتًا دافئًا. غطّت الجدران بورق الحائط لتحجب الطلاء المُقشّر، واشترت أغطيّة ملوّنة حتى تُضفي شيئًا من البهجة على الفراش وتداري متاعب السنّ التي أدركت الأريكة الوحيدة في المكان. كما صنعت المصابيح الورقيّة ووضعت أصص النباتات في كلّ أرجاء المكان. وإذا بها تندمج في الحيّ الكاريبي وكأنّها قادمة من جامايكا، فتعلّمت الطهو بتوايل لم يسبق لها أن عرفت بوجودها، كما تعلّمت الرقص على إيقاع الكاريبي في الحانات والمطاعم المحليّة، هناك حيث يتلاقى الناس في المساء. بعد أن وصلت بقليل، شاركت نادين في مظاهرة خرجت إلى

الشوارع تنديدًا بعنف الشرطة الإنجليزيّة التي اتّضح أنّها عنصريّة مثل الشرطة الأميركيّة. وإذا بهراوة تنهال على ظهرها وتتركها ملقاةً وسط حاويات القمامة، حيث عثر عليها بعض المُتخلّفين عن المظاهرة وهم في طريق العودة إلى بيوتهم سكارى من فرط الصراخ، مصابين بضربات رجال الشرطة. مضوا بها إلى مقهى محليّ يُتخذ في الليل حانّةً ومنصّةً للرقص. ثم استدعوا جارًا لهم يعمل طبيبًا. كان ذلك الرجل الذي وُلِدَ في ترينيداد يمتلك معرفة الطبيب وحكمة المداوي. أكّد الجار عدم إصابتها بكسورٍ في العظام، ثم وصف لها الراحة الثلج والأسبرين. «إنّ هذه الفتاة شجاعة. وحبلى أيضًا»، أعلن أمام المازّة. وبتلك الطريقة فازت نادين بثقة المجتمع المطلقة. تعرّفت بأصدقاء كثيرين، في حين لم يعرف صامويل أحدًا قبل أن تفتح له نادين أبواب الجوار، وهو الذي قد عاش هناك عدّة أعوام.

بدّلت نادين حياة صامويل في زمنٍ قصير، وأسبغت على طباعه عذوبة. أدرك أنّه لن يستطيع كبح جماحها أبدًا، فهي تنسلّ من بين الأصابع كالرمال. أراد أن يرافقها على الأقلّ، ولكن حتى الرفقة تراءت له مستحيلة. في النهاية تخلّى عن مجاراتها واكتفى بالمراقبة مندهشًا أمام تلك الحياة الجامحة، شديدة الاختلاف عن حياته. كانت أسرع منه كثيرًا، عصيّة على التوقّع، مندفعة، شغوفًا. ولقد امتلكت نادين من الذكاء العفويّ الموفّق ما سمح لها بالتوصّل إلى النتائج خلال بضع ثوانٍ، أمّا صامويل فربّما استغرق أسابيع من التأمل والتخطيط حتى يصل إلى الشيء نفسه. مضّت مدفوعةً بالحنس الجماعيّ والجرأة والفضول، فكانت تجاذب الغرباء أطراف الحديث، وتتبنّى الحيوانات، وتختفي عن الأنظار في مهمّاتٍ سرّيّة يتّضح مع الوقت أنّها مغامراتٌ خيريّة. بسعادتها

الفطرية لطف من ميل زوجها إلى الشجن. وبروحها الحرة خففت من حذره المفرط. تأكد لصامويل أنه يحب نادين ويحتاج إليها أكثر كثيرًا مما تحبه هي وتحتاج إليه، الأمر الذي جعل بين يديها سلطة هائلة عليه.

لطالما تذكّرهما صامويل كما كانت وهي عروسٌ جديدة في لندن، ببطنها الذي يبشّر بقرب الأمومة، والثياب القطنية والأخفاف وحقبة الخضراوات المعلقة من ذراعها، ومشيتها المفعمة بالتّحدي. وهناك، في تلك الشوارع ذات الألوان الصارخة إلى الحدّ الذي جعلها لا تبدو إنجليزية، وسط أولئك الناس من أصحاب البشرة السمراء، وسط رائحة القهوة وصخب آلات التنبيه والأصوات والموسيقى، صنعت نادين النسخة النهائية من نفسها. قرّرت أن تغتنم الفنون والثقافات التي تقدّمها لندن، فتدوّقت الموسيقى الكلاسيكية بمساعدة زوجها، ومضت تجوب المتاحف وتحضر الأعمال المسرحية كلّما سمحت الميزانية بذلك، أو كلّما حصلت على عملٍ في كواليس المسرح.

وُلدت كاميل عام 1961 في عيادةٍ بالحيّ الكاريبي، هناك حيث تقاسمت تجربة الولادة نادين ومهاجرة قادمة من جزيرة سان توماس، كان أسلافها من العبيد. وبينما انطلقت نادين تثنّ وتلحن بأعلى صوت، كما تعلّمت في مدرسة الراهبات، راحت الأخرى تنشد الترانيم المسيحية بين انقباضة وأخرى. ثم اتّفقت المرأتان - وكلّ منهما تحمل صغيرتها الوليدة بين ذراعيها - على تسمية الطفلتين «كاميل» تكريمًا للرّسام التعبيريّ كاميل بيسارو، الذي أحبّته نادين تقريبًا بقدر ما أحبّت فان غوخ. كانت الأخرى قد سمعت ذلك الاسم في الجزيرة، ولكنّها حسبته دواء للعلاج من الديدان.

شبّت كاميل وكأنّها امتدادٌ صغيرٌ لنادين، التي صارت تذهب إلى كلّ مكانٍ وهي تحمل ابنتها في حزامٍ يُشدّ على الظهر، ثم بدأت

تسحبها خلفها حين كبرت. تعلّمت كاميل في طفولتها كيف تتصرّف وكأنّها مُدرّبة، واكتسبت القدرة على التزام الصمت في الركن الذي ترصده لها أمّها، لاهيةً بالألعاب التي تلعبها وحيدة، ثم مستغرقةً في القراءة. أمّا صامويل، فكان من نصيبه دورٌ غير فاعلٍ بصفته أبًا. لم يُضطرّ إلى تحضير الرضاعة أو تغيير الحفاضة قطّ، اعتقادًا منه بأنّ الزوج ينفق والزوجة تعتني بالأبناء، ذلك الاعتقاد السائد بين الناس كلهم آنذاك. جاء ذلك الاتفاق ملائمًا لطباع صامويل الانعزاليّة، إذ وجد صعوبةً في مدّ أواصر العلاقات بالآخرين. حتى ابنته لم تُستثنَ من ذلك. وحدها نادين تمكّنت من اختراق الحواجز العاطفيّة لصامويل. بدأت علاقته بكاميل بعد ثلاثة أعوامٍ أو أربعة، عندما أصبحت الطفلة واعية، واكتسبت حسّ دعاية. كانت هي الابنة المثاليّة لهذين الزوجين اللذين انشغل كلّ منهما باهتماماته الخاصّة، فهي لم تزعجها في أيّ شيء، بل إنّها كادت تحظى بالاكتماء الذاتيّ.

أما الإلهام الفني الذي حقّق لنادين الشهرة في وقتٍ لاحق، فلقد بدأ في مركزٍ مجتمعيّ يقع بالقرب من شقّتها ويزدان بعشرات اللوحات من هايتي. أمضت ساعاتٍ وهي تدرس تلك اللوحات وتنسخها وتلتقط لها الصور مفتونةً بالثيمات والألوان. أرادت أن ترسم بالطريقة نفسها، ولكن نتاجها الفني لم يكن أصيلًا، بل إنّهُ اقتصر على الطابع الصارخ. إذ ينبغي للمرء أن يكون من هايتي حتى يرسم بتلك الطريقة. وحين بدأت كاميل تذهب إلى روضة الأطفال، التحقّت نادين بورشة عملٍ فنيّةٍ حيث رأت النول لأوّل مرّةٍ في حياتها. ما إن تعلّمت التقنيّات الأساسيّة حتى انطلقت تبدع منسوجاتٍ أشدّ وأشدّ جرأةً بالألوان هايتي المميّزة، تلك المنسوجات التي صارت قطعًا فنيّةً قيّمةً بمضيّ الزمن.

لم يكن صامويل بالرجل الذي يميل إلى فنّ الشعر. وعلى الرغم من ذلك، فلطالما دار بخلدّه أن صناعة النسيج تمثّل مجازاً بديعاً لشخصيّة زوجته، التي تمضي في الحياة وهي تلملم حكايات الناس وتنسجها كما تلملم وتغزل الخيوط والأصواف بالألوان كافّة من أجل منسوجاتها.

في عام 1968، عندما بلغت كاميل السابعة من العمر، عُرض على صامويل منصب في أوركسترا سان فرانسيسكو السيمفونيّة. اضطرّ الزوجان إلى التفكير في الأمر ملياً، لأن الراتب مُغرٍ، أضف إلى ذلك رغبتهما في تغيير الأجواء. وصلاً إلى كاليفورنيا يوم تعرّض روبرت كينيدي للاغتيال في لوس أنجلوس، وبعد أن اغتيل مارتن لوتر كينغ في ممفيس بشهرين، بينما كان البلد يهدر بالتحوّلات الكبرى. نزلاً مؤقتاً بنزل في هايت أشبيري، الحيّ الذي سبق أن كان جنّة الهيبّي، ولكنه بدأ يصطبغ بصبغةٍ برجوازيّةٍ بينما راحت آخر أزهار الثقافة تذبل وتموت.

انضمّ إلى الأوركسترا السيمفونيّة، فخطر على بال صامويل أن يشارك الجمهور دردشةً غير رسميّةٍ عن المقطوعات التي سوف يستمعون إليها، وهكذا يتسنّى للحضور أن يتذوّقها بصورةٍ أفضل حين يعرف شيئاً عن الموسيقى ومؤلّفها. في البدء اقتصر الحضور على ثلاثين أو أربعين شخصاً، أغلبهم من أصحاب الشعر الأبيض. ثم تناقلت الألسنة الخبر وبدأ يتوافد عددٌ أكبر من الحضور، حتى الشباب قد حضروا بأعداد كبيرة، إلى أن صار المسرح يمتلئ حتى نصفه بمضيّ الوقت. أمّا تلك الدردشات غير الرسميّة، رغم ثرائها بالمعلومات، فلقد اكتسبت شعبيّةً كبيرةً إلى الحدّ الذي أضفى على اسمه وجاهةً. عُرض عليه أن يقدّم برنامجاً أسبوعياً في إذاعة الموسيقى الكلاسيكيّة، وما هو إلّا قليل

حتى حصل على وظيفة بجامعة كاليفورنيا في بيركلي. وهكذا أصبحت تسجيلات محاضراته، بالإضافة إلى كتابَين ألفهما عن تطوُّر الموسيقى الكلاسيكية في الغرب، موارد الدخّل الأكثر ثباتًا طوال الأعوام التالية. وعلى الرّغم من ذلك، فلم يتمكّن من إطلاق العنان لشغفه الأكبر في الجامعة. إذ عُهد إلى موسيقيّ إفريقيّ-أميركيّ من لوزيانا بتقديم الدورة التعليميّة التي اقترحها صامويل بنفسه عن تاريخ الجاز، لأنّ إنجليزيًّا أبيض البشرة ليس هو الأستاذ الأمثل لتدريس تلك المادّة، كما أوضحوا له بلطف. ولكّنه وجد سلوًّا في حضور حفلات الجاز عدّة مرّات كلّ أسبوعٍ في نواديّه الأثيريّة، حيث يُسمَح له بالارتجال على البيانو أحيانًا. كانت لحظاتٍ من السعادة التامة، رافقته نادين خلالها في بعض المرّات، على اختلاف اهتمامات كلّ منهما. فبينما كان زوجها، المخلص لطباعه العقلانيّة التي تميل إلى العزلة، يركّز في عمله من دون أن ينتبه كثيرًا إلى الظروف المحيطة، راحت نادين تجوب الشوارع وهي تنهل من تلك الطاقة المضطربة التي حفّلت بها الحقبة: الحقوق المدنيّة والكفاح ضدّ العنصريّة وحرب فيتنام والتجنيد الإجماليّ الذي يؤدّي بمئات الآلاف من الشباب إلى القتال والموت في سبيل قضية لا يؤمنون بها، وأصداء الثورة الطلابيّة المُطالبة بحريّة التعبير، تلك الثورة التي هزّت أركان الجامعة قبل أن تمتدّ إلى ولاياتٍ أخرى. كانت بيركلي هي روح البلد الشابّة المفعمّة بالشغف. ولقد انبهرت نادين بتلك الثقافة التي لاءمتها على أكمل وجه، الثقافة التقدّميّة، المُتمرّدة، مُتعدّدة الأعراق، الفنيّة، التي سادّت المدينة. كانت نادين تترك كاميل في المدرسة ثم تستقلّ الحافلة لتمضية يومها في محيط حرم الجامعة، أي المسرح الذي تحدث فيه كلّ الأشياء التي تهّمها، هناك حيث تقصد أحد المطاعم الهنديّة الرخيصة لتناول الغداء المُكوّن من الأطعمة الحريفة التي تعلّمت

كيف تتذوّقها في لندن وسط أصدقائها الوافدين من الكاريبي، وتحضر المؤتمرات، وتشارك الطُّلاب في المسيرات والاحتجاجات وحفلات الروك والمسرح المُرتَجَل، وتتسلَّل إلى بعض المحاضرات في الجامعة، وترسم اللافئات دفاعًا عن شَتَّى القضايا، بدءًا بمزارعي سيزار تشافيز وصولًا إلى الفهود السود⁽¹⁾، كما عايشت الحرفيين والشحاذين ومدمني المخدّرات في جادة تليغراف.

عند ذاك وحسب مات والدها في نيو أورلينز، فألّت إليها تركة غير مُتوقّعة. واتّضح أن ذلك الفرع من عائلة ليلانك أشدّ ثراءً ممّا قد تُحِيلُ إليها. بدأت نادين تبحث عن بيت في بيركلي من دون أن تسأل زوجها، فعثرت على البيت الذي تراءى لها مثاليًا، وأقنعت صامويل بشرائه مُتعلِّلةً بماضي البيت التاريخي: الذي سبق أن كان مأخورًا، والآن تتعذّب فيه أرواح بائعات الهوى القديمات. لم ينبهر صامويل بذلك الأصل، وإن راق له الموقع القريب من الجامعة، وكذلك السعر المنخفض بسبب الحالة المتردّية التي آل إليها البيت، مع أنّه كان قصرًا منيفًا في أزهى أيامه. ضمّ البيت حديقةً مترامية الأطراف، وقام فوق تلةٍ عاليةٍ من حيث أشرف على منظرٍ بانوراميٍّ، مع أنّ الأشجار قد كبرت حتى حجبتّه.

كان بيت آل أدلر، الذي يعود بناؤه إلى مطلع القرن، مُغطىً بخشب السيكويا، شأن قصورٍ أخرى في المدينة، على طراز الملكة آن، أضف إلى ذلك البرجين الصغيرين والأعمدة المُربّعة والدربزين

1 - سيزار تشافيز (1927 - 1993): مزارعٌ وناشطٌ في مجال حقوق الإنسان.

الفهود السود: حركةٌ حقوقيّةٌ مدافعةٌ عن حقوق أصحاب البشرة السمراء في الولايات المتّحدة.

والإفريز المنحوت والنوافذ الأصلية المصنوعة من الزجاج المشطوف التي تتسلل منها المياه كلما سقطت الأمطار، والسلم المفضي إلى الباب الرئيسي، المؤلف من خمس درجات بليت بشدة. تجلّى رونق الماضي في التفاصيل، بدءًا بالرخام الأرقش في الحمام، والباركيه المصنوع من خشب البلوط، المنقوش بالمربعات، وصولاً إلى مصابيح الطابق الأول الأصلية التي اكتست بالغبار، تلك المصابيح التي تبدو وكأنّ دموعاً من البلور تتساقط منها، ويصعب تنظيفها كثيراً. من الخارج، تراءى البيت ملائماً لأحد أفلام الرعب. وهكذا أطلقت عليه نادين اسم «البيت المسحور».

- كيف نوّث هذا البيت الضخم وندفئه؟ - كان ذلك أول سؤال يطرّحه صامويل حين وقعت عيناه على البيت.

- سوف نشغل البيت رويداً رويداً. ونترك الطابق الثاني موصداً بالكامل في الوقت الحالي. - قرّرت نادين.

كما أقفلت قاعة الطعام وإحدى الصالات أيضاً. مضت نادين تجوب أسواق البضائع المستعملة في منطقة خليج سان فرانسيسكو، وهناك اشترت المستلزمات الأساسية لتأثيث باقي حجرات البيت. كما حجزت لنفسها الحجرة الأفضل إضاءةً في الطابق الأول، هناك حيث نصّبت أنوالها بنية العودة إلى المنسوجات التي هجرتها منذ وصولهم إلى كاليفورنيا.

وعلى الرغم من ذلك، فلقد امتلأت الحجرات الخاوية بالطريقة الأبعد عن بال صامويل، الذي قام ذات أحدٍ من الفراش في الصباح الباكر حتى يترىض خارج البيت كدأبه في معظم الأيام، فذهب إلى المطبخ حتى يعدّ القهوة من أجل نادين التي لا تستطيع أن تبدأ يومها ما

لم تشرب القهوة أولاً. وإذا به ينتفض مذعوراً حين وجد في وجهه عملاقاً واقفاً أمام الثلاجة، فانطلق صراخه أتيّاً من أعماق الروح، وكأنّه صيحة حيوان. أمّا الرجل العملاق فالتفت إليه بهدوءٍ ممسكاً بعبوة الحليب.

- السلام لك. - قال رافعاً عبوة الحليب إلى فمه.

- أيّ شيطانٍ أنت؟ - استطاع صامويل أن يقول، بصوتٍ جاء حاداً، مرتجفاً.

- فيتو. - أجاب الآخر وقد ترك الحليب أثراً على شاربه.

- فيتو؟

- أنا فيتو يا أخي. إنه اسمي. - ثم أردف بالتحية الهندية: - «ناماستيه».

- ماذا تفعل في بيتي؟ سوف أتصل بالشرطة!

كان فيتو من ساموا. كاد يبلغ من الطول مترين، ومن الوزن أكثر من مئة وثلاثين كيلوغراماً، بشعره الأسود الذي يصل إلى منتصف ظهره، وشاربه الخفيف الطويل الخلق بالصينيين. ارتدى قميصاً لمالكولم إكس يبرز الشحم المتراكم في جسده، كما انتعل صندلاً يليق بالرهبان الفرانسييسكان، ولفّ خصره بنسيج السارونغ الذي حسبته صامويل تنورةً في أوّل الأمر. تراءى مظهره المُنذر على طرف النقيض من طبيعته المسالمة الهادئة. تعرّفت به نادين في جادة تليغراف، حيث كان فيتو مُجرّد فردٍ في مجتمع الهيببي والمُشرّدين الذين يعيشون في الهواء الطلق ويختلطون ببعض الحرفيين ممّن يسعون إلى جني قوتهم بما تصنع أيديهم. أمّا فيتو فكان ينتمي إلى الفئة الأولى، ويفتخر بأنّه لم يعمل قطّ لأنّه لا يملك أدنى استعدادٍ للمساهمة في الرأسمالية، ولكنّه يتاجر بالحشيش والماريجوانا بكميّاتٍ ضئيلة، ويبيت مع آخرين

من أمثاله في بناء خربٍ يعيش فيه الفقراء الميؤوس منهم ومدمنو المخدرات. ولكنه اضطرَّ إلى المغادرة لأنَّ المكان موبوء بالجرذان، ما جعل جهاز الخدمات الصحيَّة يأمر بإغلاقه. وهكذا دَعَتْه نادين، التي تعتبره صديقًا، إلى البقاء في بيتها بضعة أيَّام، مع الأخذ في الحسبان أنَّ الوقت شتاءً والمطر يتساقط.

لم يتسبَّب فيتو في كثيرٍ من الإزعاج، بل إنَّه كان يهيم في الشارع أو يمضي وقته وهو يهوِّم مُستلقِيًا. لم يَكُنْ لَدَيْهِ أدنى استعجالٍ في العثور على سقفٍ آخر، لأنَّه وجد راحةً عظيمةً في «البيت المسحور»، بيت آل أدلر. وجد راحته هناك إلى حدٍّ جعله يدعو إلى البيت إحدى عشيقاته، كانت امرأةً ضئيلةً أثريَّةً ولَدَيْهَا ابنةٌ صغيرةٌ من عمر كاميل. أَمَنَتِ المرأةُ بأنَّ إلهةً سلتيَّةً قد تجسَّدَت في ابنتها، فصارت تلبسها عبااءٍ بيضاء وتكلَّل رأسها بجداول الأزهار، مع أنَّ الطفلة تبدو طبيعيَّةً إلى حدٍّ كبير.

- كم يبقون هنا؟ - سأل صامويل زوجته.

- لماذا؟

- ليس هذا فندقًا. ولا يروقني أن يخيموا في الصالة ويلتهموا كلَّ ما في الثلاجة.

- مستر بوغارت، يا لك من برجوازيٍّ! إن لم ترد أن يناموا في الطابق الأرضيِّ، فلنترك لهم إحدى الحجرات العلويَّة، ما رأيك؟ - اقترحت.

وهكذا بدأ احتلال ضيوف نادين. لم يأتِ الضيوف كلَّهم من جادة تليغراف، فبعضهم جاء من سان فرانسيسكو حتى يستقرَّ هناك. ولم يَكُنْ الضيوف هم أنفسهم دائمًا، لأنَّ بعضهم قد أمضوا في البيت وقتًا أطول من غيرهم، وإن لم يقلَّ عددهم عن العشرة قط، من دون

احتساب الأطفال. وإذا بالبيت يغدو مسكنًا عامًا انتقاليًا، لا يخضع لأي نوع من أنواع القواعد، بل إنه ببساطة أصبح مسكنًا للبوهيميّين والفنانين الخائبين والطامحين إلى نجومية الروك والمُشرّدين الذين كان أغلبهم من الشباب والفقراء. لم يسهم أحدهم في النفقات، كما لم تنجح نادين في بيع منسوجاتها إلّا على فتراتٍ شديدة التباعد، وهكذا ناء صامويل بعبء الإنفاق عليهم.

طال الوضع شهورًا. وسرعان ما بدأت شجاراتٌ عنيفةٌ تحدث بين صامويل ونادين، إلى حدّ جعله يفضل أن يقضي أقلّ وقتٍ ممكنٍ في بيته. صار يضيق بكلّ شيء: حركة الغرباء الدائمة في البيت والقذارة والفوضى ورائحة البخور والماريجوانا والجيتارات والطبول وتمثال الإله غانيشا. ويومَ وقعت عيناه على ثلاثة يتطارحون الغرام في الصالة، نفذ صبره.

- انظري أيّ نموذجٍ يقدّمون إلى كاميل! لا بدّ أن تطردي أولئك المُنحلّين كلّهم في هذه اللحظة! - انفجر صامويل.

- لا أستطيع يا مستر بوغارت! فهم لا يملكون مكانًا يذهبون إليه. لا بدّ أن تعطيهم مهلةً على الأقلّ.

- لا أريد أن أرى أيًا منهم غدًا، وإلّا طلبتُ من الشرطة أن تطردهم!

- إنه بيتي. لقد اشتريته بنفسِي. أم أنّك قد نسيت؟

- إذن فأنا الذي سأرحل.

- افعلْ ما شئت. إنّ هذه الزيجة لا تسير على ما يرام بأيّ حال.

لقد ساءت علاقتنا كثيرًا، فلا أنا سعيدة ولا أنت سعيد.

- ماذا تقصدين؟

- اذهب ولا تُعُد.

ذهب صامويل إلى نزلٍ حتى تهدأ نفسه ونفسها، مُتأكِّدًا من أنَّها سوف تعود إلى رشدِها. ولكنَّه تلقَّى إخطارًا بعد أسبوعين تخبره فيه بأنَّها قد بدأت في إجراءات الطلاق، ذلك الاحتمال الذي لم يخطر له على بال. نحَّى كبريائه وغضبه جانبًا، ورجع إلى «البيت المسحور» مُتأهِّبًا للتفاوض على حلٍّ كريم. وجد البيت مُوصدًا، وإلى جوار التليفون ورقةٌ كتبت فيها نادين: «لقد سافرتُ إلى بوليفيا مع كاميل. يمكنك الاحتفاظ بالبيت».

لطالما حلم صامويل بأن يكون في علاقةٍ أشبه بتلك التي جمعت بين لوك وليديا إيفانز، أبويَّه الروحانيين، هذين الزوجين المذهلين، اللذين التقيا وهما في مقتبل العمر في جمعية الأصدقاء بلندن، ونذر كلُّ منهما نفسه لخدمة الآخرين طوال أعوام، ولاسيَّما أطفال الحرب. فتراهما كلَّما نشب نزاعٌ مُسلَّحٌ يذهبان لصنع الخير من دون صخب - ما دامت ليديا قادرةً على الذهاب - ، مدفوعين إلى ذلك بالحبِّ والإيمان، وقد أمسك كلُّ منهما بيد الآخر. بل إنَّ صامويل لم يرَ أحدهما في غياب الآخر يومًا. وحين اشتدَّ مرض ليديا، نذر لوك نفسه للعناية بها مُخلصًا حتى صار هو الذي يحمِّمها ويلبسها الثياب ويطعمها ويدفعها على الكرسيِّ المُتحرك في أعوامها الأخيرة. فارق كلاهما الحياة قبل عامين فحسب، إذ ماتت هي تحت وطأة مرض باركنسون، بينما أنهى لوك حياته بنفسه بعد أن دُفنت زوجته بيوم واحد. تمنَّى صامويل أن يجمعه بنادين حبٌّ كذلك، ولكنَّ كليهما يفتقر إلى الموهبة اللازمة.

لقد استعصى نموذج السيِّد والسيِّدة إيفانز على التقليد. أمَّا اختفاء نادين المفاجئ، الذي جاء متبوعًا بالطلاق، فلقد ضرب حلم

الحبّ المثاليّ في مقتل، ورسخ العزلة التي طالما شعر بها صامويل . حاول مواعدة نساء أخريات، ولكنه عجز عن فتح موضوع واحد لا ينتهي بالحديث عن نادين بعد دقائق قليلة. وجد من الفرص في الجامعة ما يكفي ويفيض، وإن كان عدم التورط مع الطالبات من ضمن القواعد غير المنصوص عليها. لم يدخل ذلك القانون حيز النفاذ إلا بعد مضي أعوام. كانت الفتيات يعرضن أنفسهن على الأساتذة بوقاحة في كثير من الأحيان، الشيء الذي أقدمت عليه بعضهنّ مقابل الخدمات، وبعضهنّ لتجربة القدرات الشخصية، بينما وقعت قلّة من الفتيات في الحبّ حقًا. عرف صامويل تلك الأمور من واقع التجربة، ولكنه لم يسقط في ذلك الفخّ خشية أن يبدو بمنظرٍ هزليٍّ أكثر منه خوفًا من الفضيحة. وهو الذي رأى بعينه بعض الزملاء يقعون نهبًا للكبرياء، وقد اقتنعوا بأنهم يستحقّون حبّ فتياتٍ في نصف عمرهم. صار يتلقّى الطالبات تاركًا باب مكتبه مفتوحًا على مصراعيه، ويتجنّب الألفة، من باب الحذر: الأمر الذي عزّز سمعته بصفته بريطانيًا فاترًا جافيًا. كادت حياته الاجتماعية تنعدم في غياب نادين، لأنها هي التي حرصت على تكوين الصداقات، بينما اكتفى هو بمرافقتها بمظهره الأنيق وأدابه المثاليّة وسمته المهيب وموهبته في الإنصات إلى الآخرين.

خاض مغامرتين عابرتين، اقتصرت كلتاهما على الجنس، فلم يرضَ عن أيٍّ من التجربتين، وإن طالت كلّ منهما أكثر ممّا ينبغي، لأنّه لم يدر كيف ينهي علاقةً من دون أن يأخذ الطرف الآخر ذلك على محمل الإهانة. الأمر الذي عزّز تلك العقدة التي حدّثته بأنّه عاشقٌ خائب، وبأنّ المتعة التي عرفها مع نادين كانت من صنعها وحدها.

بعد حينٍ تلقّى أول خبر يصله من نادين، التي أبلغته بأنّها لم تعد في بوليفيا، بل إنّها قد انتقلت إلى غواتيمالا، التي تمتاز بتقاليد أنسجة

الأنوال البديعة. أدرجت نادين مع المظروف بضع صورٍ تظهر فيها كاميل برونزيّة البشرة، نحيلة، حافية القدمين، مبعثرة الشَّعر، سعيدة. لم تكن في حاجةٍ إلى الالتحاق بالمدرسة، لأنّها تتعلَّم الكثير عبْر الاتصال بالطبيعة والسكّان الأصليّين في بحيرة أتيلتان، حسبما أوضحت له نادين. كما أدرجت صورتين لنفسها، حيث تظهر في الأولى مُحاطةً بعددٍ من النساء اللاتي يرتدين الثياب التقليديّة، وتظهر في الثانية ممسكةً بيد رجلٍ يرتدي السروال القصير. وعلى الجانب الآخر من الصورة كتبت اسمه: أورلاندو، عالم أنثروبولوجي أرجنتيني.

فما كان من صامويل إلّا أن طلب إجازةً غير مدفوعة الأجر من الجامعة والأوركسترا السيمفونيّة، وأعدّ حقيبتَه، وأوصد «البيت المسحور»، ثم ودّع الأرواح المُعذّبة مُسافرًا إلى غواتيمالا.

آنيّا

نوغاليس، فبراير 2020

لم تتمكّني من رؤية ملاككِ لأنّك تستغرقين في النوم كلّما ظهرت. أمّا أنا فيوقظني حفيف الأجنحة عندما تحلّق الملاك، الذي يأتي كصوت تنظيف الزجاج. أرى ملاكي كلّ ليلة تقريبًا. لقد أصبحنا صديقتين.

هل أخبرتك بأنّها بيضاء كالسحاب؟ أذكر من السحاب أنّ شكله يتبدّل في السماء، فيظهر أحيانًا على صورة حيوانٍ أو قطارٍ أو حلوى غزل البنات كتلك التي تُباع في السيرك. أعتقد بأنّك لا تذكرين السيرك يا كلاوديا، لأنّك كنتِ صغيرةً جدًّا عندما ذهبنا إلى هناك. لقد ذهبنا قبل الحادثة، وهناك شاهدنا المهرّجين الذين يتضاربون ويرشّ كلّ منهم الآخر بمسدّس الماء، كما شاهدنا بعض لاعبي الترابيز الذين يحلّقون عاليًا في الهواء كالطيور، ورأينا ستّة كلابٍ كلّ منها يرقص على ساقين.

قالت ماما إنَّ أفضل سيرك في العالم هنا، في الشمال. ذات يوم سوف تأخذنا ماما إلى السيرك الأكبر، الذي يضم أفيالاً أيضاً. ربما استطعتُ أن أرى أكثر قليلاً عندما تأخذنا ماما إلى هذا السيرك. يتبدّل شكل الملائكة كالسحاب، فتبدو كالنساء الصغيرات حيناً وكالدجاجات أو أشرعة المراكب حيناً، ولكنّي أتعرفها من صوتها الذي أسمعه في رأسي.

تبدو لي فكرة جيّدة أن نأخذ ميس سيلينا معنا متى ذهبنا إلى أسابار، ولكنّي لن أخبرها بشيء الآن. يجب عليّ أن أنتظر حتى تحصل ملاكي على إذن بذلك. لن أدعو فرانك. يجب عليه أن يفي بوعده أولاً، وأن يجمع شملنا نحن وماما. تبعد أسابار كثيراً جدّاً عن هنا، ولكن الملائكة، نساءً ورجالاً، يغمضون أعينهم، ويتلون بعض الكلمات السحرية، وعندما يفتحون عيونهم لا يعودون هنا. بتلك الطريقة سوف يأخذوننا إلى هناك. أمّا الآن فيجب علينا أن نأكل يا كلاوديا. لا يروقنا الطعام، ولكنّها بيتزا، وميس سيلينا تقول إنّه لا يوجد طفل واحد في العالم لا يحبّ البيتزا. لا توجد فطائر پوپوسا هنا، ولكنّي في بعض الأحيان أتناول الطعام المكسيكي الذي يقدمونه لنا. لا بأس بالكيساديّا. سوف أسأل إن كانت هناك فطائر پوپوسا في أسابار، لا شك في ذلك.

أتمنّى أن تكون هناك أشجار ونباتات في أسابار، لأنّها تهمني أكثر من فطائر الپوپوسا. أتذكّر الأخضر. إنّه أفضل الألوان، لأنّه يصل بين الأشياء كلّها، كما علّمتني أمي. أمّا هنا فلا يوجد إلّا الصبّار الذي لا يظلل المكان، بأشواكه التي تخز مثل إبر النحل. الأفضل ألاّ أقترّب منه. حكّت لي ميس سيلينا عن تلك الجبال العجيبة، الحمراء كالقراولة، الأرجوانيّة كالشمندر، البرتقاليّة كالمانغا. أودّ أن أراها. سوف تُحضّر إليّ العدسة المُكبّرة التي أحتاج إليها، ولن أضطرّ إلى دفع ثمنها، كما

أنها سوف تعيرني كتابًا فيه مناظر من أريزونا وجراند كانيون، الذي يُعدّ من عجائب الدنيا. بالعدسة يمكنني أن أرى تلك المناظر قليلًا. ميس سيلينا طيِّبةٌ معنا، بل إنها طيِّبةٌ حتى مع ديدي، وتريد أن تضع على رأسها شعرًا لأنها أوشكت على الصلح، وتريد أن تصنع من أجلها ثوبًا جديدًا، ولكنك لا تفلتينها من يدك أبدًا. دعينا نحمّمها يا كلاوديا على الأقلّ، فرائحتها كريهة! لا نستطيع أن نأخذها إلى أسابار وهي على تلك الحال، وإلا فماذا يظنّ الآخرون؟ أننا كالمُتسوّلات؟

كلاوديا، لقد رأيت ما حدث بنفسك. لقد هاجمني «دودة الكاكا» أولاً، فدافعتُ عن نفسي، لأنّني لن أسمح لذلك الطفل بأن يضربني. إنّه مزعج، يسيء لنا، ويضربنا طوال الوقت ما لم يكن هناك من يراقبنا. ولكنني لست خائفةً منه. ليس ذنبي أنّه قد نزف من أنفه. أردتُ أن أضربه في بطنه، ولكنّه تحرّك من مكانه، وأنا لا أرى جيّدًا، فأصابه الحذاء في منتصف وجهه. كم نزف بغزارة! ليس من العدل أن أعاقب وحدي، بينما يضعون الثلج على وجهه ويقدمون إليه المُثلّجات حتى يكفّ عن الصراخ. ولكن ميس سيلينا جاءت لاحقًا ورفعت عني العقاب.

كلاوديا، أنا لم أتركك وحدك لأنّني أريد ذلك، بل إنهم قد أخذوني إلى المكتب، ثم تركوني في أحد الأركان ووجهي إلى الجدار. غير أنّني لم أهتمّ بذلك، فسيّان نظرتُ هنا أو نظرتُ هناك. أوضحتُ لهم أنّ «دودة الكاكا» هو الذي بدأ الشجار، فأمرتُ بالسكوت، وقيل لي إنّني ممنوعةٌ من الكلام ومُعاقبةٌ بسبب العنف. ولكن ماذا عن «دودة الكاكا»؟ إنّ ذلك الطفل عنيفٌ حقًا. تعرفين أنّني لست كثيرة الصراخ، ولكنني دخلتُ في نوبة صراخ شديدة، حتى كدتُ أختنق، ولو لم تأت ميس سيلينا وتصلح الأمور لأصبحتُ الآن في عداد الأموات. يموت

كثيرون مختنقين بالماء، ولكن بعض الناس يموتون مختنقين بالهواء. لم أهدأ إلا بعد وقتٍ طويل. لو أُصِبتُ بتلك النوبة من الصراخ في بيت تيتا إدو لوضعت رأسي في دلوٍ من الماء البارد وانتهى الأمر. إنَّ لهذا العلاج مفعول السحر! من حسن الحظَّ أنَّه ممنوعٌ هنا. لو فعل أحدهم ذلك بطفل، لذهب إلى السجن. ولكن لماذا؟ ما دام وضع الطفل في «الثلاجة» أو تفريقه عن أمه أسوأ من ذلك العقاب كثيرًا، ألا توافقيني الرأي يا كلاوديا؟

وأنا في المكتب سمعتُ إحدى المُعلِّمات تقول لأخرى إنَّنا سوف نُنقل إلى إحدى دور التبنّي لأنَّنا قد أمضينا هنا وقتًا أكثر ممَّا ينبغي. لم أجرؤ على السؤال عن ذلك وإلا أدركن أنَّني أنصتُ إليهنَّ، وعندئذ يضاعفن العقاب بلا أدنى شكَّ، لأنَّني أنصتُ إلى حديثهنَّ. لي سمعٌ مرهف. حتى قبل الحادثة. ولقد استفدتُ من ذلك كثيرًا حتى أعرف ما تتناقله الألسنة، مع أنَّني لا أفهم الإنجليزية جيدًا في بعض الأحيان. كانت أولئك المُعلِّمات يتكلَّمن باللغة الإسبانية. ولكنَّ لديَّ انطباعًا سيئًا عن دور التبنّي التي ذكرناها. لا أريد لأحدٍ أن يتبنَّني، فأنا لستُ يتيمة.

أكثر ما يشغلني أن تنسي ماما يا كلاوديا، كما ينسى الأطفال الصغار أحيانًا. سوف أحكي لكِ عن ماما، حتى كأنَّكِ ترينها أمامكِ لو أغمضتَ عينيكِ وانتبهتِ إلى ما أقول. ماما جميلة. كان لها فيما مضى شعرٌ طويلٌ تتخلَّله خيوطُ شقراء، في غاية الجمال. كنتُ أمشطه بيدي، فيروق لها ذلك كثيرًا. ولكنَّها اضطُرَّت إلى قصِّه حتى تركته قصيرًا جدًّا في أثناء الرحلة. وأنا أيضًا قصَّت شعري حتى لا يتشابك. تخيَّلي السفر على متن القطار بشعرٍ طويل، أو السَّير في الصحراء كما سرنا في ذلك القبط الفظيع. لا يهم، لأنَّ الشعر ينمو مُجددًا. الآن يكاد شعري يغطِّي

أذنتي، ولكنه غير متساوٍ على الإطلاق. سوف تأخذني ميس سيلينا إلى صالون التصفيف الذي تذهب إليه في يوم من الأيام، إن سُمح لي بالخروج. لقد أوضحت لميس سيلينا أن ماما قد قصّت شعري وشعرها في المكسيك، ونحن نستعدّ للتسلّق إلى سطح القطار، حتى لا ينتبه إلينا الرجال ويزعجوننا. أخبرتني بأنها سوف تنادينني «ابني»، وطلبت منّي أن أناديها «بابا»، ولكنّي كنتُ أنسى وأقول لها «ماما». من المؤكّد أنّ شعرها لن يكون قصيرًا إلى هذا الحدّ عندما ترجع. ماما مرحة، تضحك كثيرًا، وكلّما ضحكت لاحظ الناظر إليها أن أسنانها الأماميّة مُتباعدة قليلًا. أعني... كانت ماما تضحك قبل كارلوس. تحبّ ماما اللعب، والموسيقى. تذكّري أنّنا كنّا نرقص معها على كلّ شيء، حتى أغنية «سويش»، وفي بعض الأحيان كانت تيتا إدو تخلع نعلَيْها وترقص معنا أيضًا، مع أنّها لا ترقص إلّا رقصة السالسا.

مكتبة

t.me/soramnqraa

سيلينا

لوس أنجلوس، السلفادور، فبراير 2020

كانت عائلة دوران مؤلفة من النساء الوحيدات، بدءًا بأب أكبر نساء السلالة عمرًا: تلك التي بلغت الرابعة والثمانين وترك التهاب المفاصل جسدها مُشوَّهاً وتسَلَّل إليها الخرف قليلاً، ولكنها ما زالت هي الأم الكبرى لعشيرتها الصغيرة. كانت المرأة العجوز تزهو بأنّها من المقاتلات اللاتي حاربن في جيش بانتشو فيا⁽¹⁾، ولكنها لم تُكن قد وُلِدَت بعد في زمن الثورة المكسيكيّة. في شبابها بلغت من الطول مترًا وخمسة وأربعين سنتيمترًا، ثم تضاءلت قامتها تحت وطأة الأعوام. وعلى الرّغم من ذلك، فهي كثيرة التحكُّم، سليطة اللسان، لا تكلّ. في قصّتها الحقيقيّة وصلت إلى الولايات المتّحدة عام 1954، وعبرت صحراء أريزونا سيرًا على القدمين وبين ذراعيها طفلة وليدة. جاءت بلا أوراق،

1 - بانتشو فيا (1878 - 1923): من أبرز قادة الثورة المكسيكيّة.

شبه أميَّة، معدمة، عاجزةٌ عن النطق بكلمةٍ واحدةٍ باللغة الإنجليزية. كانت في الثامنة عشرة آنذاك. بدأت تعمل في جمع محصول البرتقال والخس جنوبى كاليفورنيا وهي تحمل الطفلة الصغيرة مشدودة إلى ظهرها، وتربح أقلَّ من دولار واحد في الساعة، وتتصورُ جوعًا شأن الغالبية العظمى من المهاجرين الذين يحرقون الأرض لتوفير الطعام على موائد الآخرين. وبعد أن قضت عشر سنوات في ذلك العمل، وأصيبَت بألمٍ مزمنٍ في الظهر من جرَّاء العمل الشاق، ولفحت الشمسُ بشرتها حتى صارت كنعل الحذاء، حصلت على وظيفةٍ في مصنع للأطعمة المحفوظة، هناك حيث استمرت في العمل حتى أرغمتها ابنتها وحفيدتها على التقاعد. ولمَّا طعنت في العمر، أفلت زمام خيالها. كانت تبدو وكأنَّها طفلةٌ في الثامنة من العمر، جامحة الخيال، تعاني من سوء التغذية، عندما تعرَّف بها فرانك. أما سيلينا، حفيدتها الكبرى، فبَدَت إلى جوارها كالعملاقة.

جاء فرانك زائرًا، حاملًا باقةً من الأزهار وأفخر قنينةً عثر عليها من نبيذ أوبورتو، لأنَّ سيلينا قد أخبرته بأنَّ جدَّتها الكبرى تختم كلَّ يومٍ بصلاة المسبحة التي تتلوها بأقصى سرعة، وكأسٍ صغيرةٍ من ذلك الشراب.

- كيف يُدعى صديقك؟ - سألت العجوزُ حفيدتها سيلينا للمرة الثالثة.

- لستِ مصابةٌ بالخرف يا ماماغراندى. لماذا تستمرين في السؤال عن الشيء نفسه؟

- حتى أغيطك يا صغيرة! - قالتها ضاحكةً وهي تلوك الهواء بالأسنان القليلة المُتبقيَّة لها.

- لقد تخيلتُ ذلك . إنَّه فرانك أنجيليري، محامي الطفلة الكفيفة التي فرَّقوا بينها وبين أمِّها.

- آه! أنيتا دياس، يا للطفلة المسكينة...

- هي نفسها يا ماماغراندي. أرايت كيف تملكين ذاكرةً قويَّة؟

- أذكر ما أريد أن أذكره، وأنسى ما يريد منِّي الآخرون أن أذكره.

- ما رأيك في هذه العائلة أيها الشاب؟ - سألت المحامي.

- أنا مُنبهر. أربعة أجيال من الـ...

- بل خمسة. حفيداي الكبيران ليسا هنا. - قاطعته الأمُّ الكبرى.

إنَّهما أوَّل ذكَرَيْن في هذه العائلة. لقد أنجبتُ دورا وأنا في الثامنة عشرة من العمر. بنات آل دوران يحبِلن وهنَّ في مقتبل العمر.

- لأنَّهنَّ لا يمهلن أنفسهنَّ وقتًا للتفكير في الأمر! - قالت سيلينا

ساخرة.

- أما أنتِ فسوف تبلغين سنَّ اليأس وأنتِ بلا أبناء من فرط

التفكير في الأمر. - وبخَّتها الجدَّة الكبرى.

- لا تقلقي، سوف أتزوَّج في يومٍ من الأيام. - أجابت سيلينا.

- أتُحسِّبِين الزواج ضرورةً للإنجاب؟ لقد أنجبتُ دورا وأنا عذراء.

- ماماغراندي، هل قلتِ «عذراء»؟

- أجل، كعذراء غوادالوبي، وكلَّ عذراوات التقويم.

- تعرفين أنَّ خطيبي في غاية الرسميَّة، ولن ينجب خارج إطار

الزواج. - أوضَّحت لها سيلينا.

- وأنت أيُّها الشاب، ما رأيك في مسألة الإنجاب؟ - رشقت العجوزُ فرانك بسؤالها بغتة.

- حسبك يا ماما، اتركي المحامي في سلام! - قاطعتها ابنتها دُورا من مكانها في المطبخ، حيث كانت تعدّ الغداء مع أمّ سيلينا.

في ذلك اليوم، يوم الأحد، جاء فرانك من سان فرانسيسكو لرؤية سيلينا صباحًا على أن يعود في طائرة السادسة مساءً. خلال الأشهر الأخيرة بات السفر إلى لوس أنجلوس في الصباح عادةً روتينيّة، وإن سافر فرانك على متن طائرة ألپرستين الخاصّة في أغلب المرّات. كانت سيّارة ليموزين تمرّ به في البيت لتقلّه إلى المطار، ثم تنتظره سيّارة أخرى في لوس أنجلوس حتى تأخذه إلى القصر الخاصّ بقطب التجارة في مرتفعات باراديس كوف، الذي يمتدّ لألف مترٍ مربعٍ من الإنشاءات وسط فردوسٍ مُشيّدٍ على طراز قصر فرساي، مُرفقٍ بشاطئٍ خاصّ. سوّيت قضية ألپرستين في الأسبوع الماضي مقابل مبلغٍ ماليٍّ. مبلغ ضخم. وهكذا لم يضطرّ المُتّهم إلى الوقوف في وجه المُحلّفين أو قضاء أيّامه الأخيرة خلف القضبان. ولكن أحدًا لم يتمكّن من إنقاذ سمعته. بل إنّ الصحافة أسهبت في ذكر تفاصيل الفضيحة. الأمر الذي تعزّى به فرانك قليلًا عن شعوره الهائل بالنفور لأنّه مُضطرٌّ إلى الدفاع عن ذلك الرجل الذي تأكّدت قدرته على الإفلات من العقاب مرّةً أخرى. تلقّى التهاني في شركة المحاماة، كما تلقّى عمولته عن القضية. وأبلغ بأنّه سرعان ما يحظى بمكتبٍ في الطابق العلويّ يطلّ على الناصية ويضمّ نافذتين. أما والدته، فلقد وبّخته مرّةً أخرى عبّر التليفون لأنّه لم يشعر بوخز الضمير لدفاعه عن ذلك المجرم.

أزمعت سيلينا أن تقضي بضعة أيّامٍ برفقة عائلتها في لوس أنجلوس. ولمّا كانت سان فرانسيسكو على بعد ساعةٍ واحدةٍ بالطائرة،

فلقد اقترحت عليه اللقاء، وهكذا تُقدّم إليه جدّتها العرّافة، لأنّه يتوق إلى لقائها بشدّة. لم يتقابل فرانك وسيلينا منذ أواخر ديسمبر، حين رآها في ملجأ نوغاليس الذي نزّلت به أنيتا. مع أنّهما يتواصلان في كثيرٍ من الأوقات. منذ ذلك اللقاء نشأت بينهما صداقةٌ وثيقة، سرعان ما شملت كلّ جوانب الحياة، وإن كان محور تلك الصداقة هو العثور على ملاذٍ للطفلة في أوّل الأمر. عرف فرانك كيف يعامل النساء، وجمّعه بهنّ صلةً طيّبة، الأمر الذي تعلّمه من أخواته في الطفولة. شقّ عليه وصف مشاعره تجاه سيلينا. كان يقدر صداقتهما، ولم يشأ المجازفة بها بخطوة غير موفّقة، وإن اضطرّ إلى الاعتراف بأنّ رغبته في الاتّصال بها دائماً تشبه الوقوع في الحبّ أكثر ممّا ينبغي.

أمّا سيلينا، التي فضّحت وعمّلت في أجواءٍ تكاد تقتصر على النساء، فلقد وجدّت علاقتها بفرانك شيئاً جديداً. لم تعرف رجلاً معرفةً جيّدةً سوى خطيبها، الذي اتّفقت معه على الزواج في شهر إبريل. أو بمعنى أصحّ: اتّفقت نساء آل دوران مع ميلوش على ذلك، بينما راحت سيلينا تنتظر بغصّةٍ في حلقتها. لقد أمضت مع ميلوش ثمانية أعوام، وإن لم يجمعها به إلاّ أشياء قليلة، ولم يشتركا في جوانبٍ كثيرةٍ من الحياة. كما حرص كلاهما أن يتجنّب أموراً بعينها، من قبيل السياسة، التي تناقضت آراؤهما فيها. أو الهجرة، التي عجزا عن التوصل إلى اتّفاق بشأنها. وفي حين عمّلت سيلينا مع المهاجرين، رأى ميلوش أنّ عبور الحدود بصورة غير شرعيّة جريمةٌ يجب أن تُوقّع على مرتكبها أقصى عقوبةٍ ينصّ عليها القانون، وأنّ الانتهاء من إقامة الجدار العازل على حدود المكسيك - الأمر الذي تمسّك به الرئيس - ركنٌ أساسيٌّ من أركان الأمن القوميّ. فما المغزى من شنّ الحروب في بلدانٍ بعيدةٍ ما دامت جحافل المهاجرين غير الشرعيّين تغزو هذا البلد! لم يرضَ ميلوش عن عمل سيلينا، بينما

لم تلقِ هي لعمله أدنى بال . كما لم يرضَ عن إقامتها في أريزونا . ولكنه افترض أنَّ ذلك وضعٌ مؤقتٌ، إلى حين عقد الزواج . وثق بحبه لسيلينا ثقةً مطلقةً، وأمن بأنها تحبه بقدر ما أحبها . ولم يلاحظ أنَّها تبدل موضوع الحديث كلما جاء على ذكر الزفاف القريب .

جاءت المهنة التي وقع عليها اختيار ميلوش ملائمةً لطباعه، لأنها تستلزم الانتباه والانضباط والصبر والقوة البدنية والحذر والمعرفة الواسعة بالمركبة والخارطة والقدرة على تحمُّل الوحدة والضجر، كما تتطلب من المرء أن يعرف حدود نفسه . وما دام السائق لم يتعلَّق بأيٍّ من العادات المردولة، فهو قادرٌ على توفير حياةٍ كريمةٍ لأسرته، والادخار، والاستثمار، والتقاعد في سنٍّ مُبكرةٍ نسبيًّا، ومن ثم يمكنه الشروع في مسيرةٍ مهنيةٍ جديدة . كان ذلك هو المُخطَّط الذي استقرَّ عليه، لأنَّه لم يفكر في قضاء البقية الباقية من حياته خلف مقود الشاحنة . كان يتسلَّى بالاستماع إلى الراديو والبودكاست والكتب المسموعة في أثناء القيادة . وهكذا شرع يدرس اللغة الإسبانية نزولاً عند طلب سيلينا . لم يعاقر ميلوش الخمر أو يتناول المُنبّهات حتى يظلَّ مستيقظًا، كما شاع وسط سائقي الشاحنات . بل إنَّه قد اعتنى بنفسه . وظلَّ يحافظ على الوزن الذي خرج به من الجيش حتى بعد أعوامٍ من العمل سائقًا .

أُعجبت سيلينا بجسده مفتول العضلات وعينه الشاحبتين ووجنتيه البارزتين وبشرته البرونزية ويديه الكبيرتين الصلبتين ورائحته ونبرة صوته . واشتهته مُنجذبةً إلى تلك الأشياء التي لمست فيها أفضل سمات الذكورة: القوة، والشجاعة، وتحمُّل المسؤولية . ولقد استطاعت أن تنعم بالاستقرار بفضل العادات الثابتة المشتركة بينهما . كما شعرت بأنها تلقى الحبَّ والحماية . ولكنَّ شيئًا واحدًا من ذلك لم يبدد شكوكها التي تفاقمت منذ ديسمبر في العام الماضي، حين

قابَلتْ فرانك أنجيليري. تعرف أن ميلوش لا يتصوّر مستقبله من دونها. وتعرف أنها تتصوّر معه مستقبلًا باعًا على القلق. لم تغرّها فكرة البيت المثاليّ، والأبناء، والحياة المنزليّة المريحة التي يحلم بها. يجب عليها أن تعجّل بحسم أمرها، لأنّ ميلوش لا يستحقّ أن تتركه يترقّب على نار. قريبًا يحين شهر إبريل.

طبقًا لنساء آل دوران، فبين سيلينا وميلوش اتفاقٌ مثاليّ: كثيرٌ من المودّة، وقليلٌ من الشغف، ومساحةٌ خاصّةٌ ينعم بها كلّ منهما. ولكنّ سيلينا تخشى أن تلك المساحة سوف تتلاشى بعد عقد الزواج.

كانت دورا دوران، جدّة سيلينا الشهيرة، تبلغ من العمر ستّة وستين عامًا. ولا تزال مُتعلّقةً بصيحة الثياب نفسها منذ أربعة عقود مضت. بحث عنها فرانك عبْر الإنترنت بدافع الفضول، فوجد لها موقعًا ولقاءاتٍ ومقاطع فيديو عن أشياء أصابت في التكهّن بها تلك العرّافة التي تصبغ شعرها باللون الأسود وتبالغ في تزيين عينيّها بالألوان. وعلى النقيض من ذلك، كانت أمّ سيلينا، التي تصغر الجدّة بعشرين عامًا، ترتدي الجينز والكنزة الفضفاضة ولا تزيّن وجهها. ولقد ألقى حضورُ الجدّة دورا الطاعغي بظلّه على ابنتها إلى حدّ جعل فرانك لا يلتقط اسمها، فاضطّرت سيلينا إلى تكرار الاسم مرّتين: كاساندرا. أمّا والد سيلينا، الذي كان يكبر زوجته بأعوامٍ كثيرة، فلقد مات عندما كانت سيلينا في الرابعة وأختها ليلي في السادسة. اتّشحت كاساندرا بالسواد حدادًا على زوجها طوال شهرين. ثم التحقّت بالجامعة وحصلت على شهادةٍ فنيّةٍ عليا في المختبرات الطبيّة. ومنذ ذلك الحين صارت كاساندرا هي الدعامة التي تستند إليها العائلة، لأنّها هي التي تدفع الفواتير. وعلى الرّغم من ذلك، فهي لا تملك من القدرة على اتّخاذ القرارات إلّا قليلًا.

كانت عائلة دوران - ماماغراندی، ودورا، وكاساندر، وسيلينا - تُذكر فرانك بعائلته. مع الأخذ في الحسبان اختلاف واحد مؤداه أن آل دوران كلهن من النساء. أمّا فيما عدا ذلك فهن يتعاملن بتلك المودة الحادة التي يتعامل بها آل أنجيليري، وبالوفاء غير المشروط نفسه، وبذلك الثقة المطلقة، وبلا أدنى قدر من العاطفية. وعلى الرغم من اختلاف نساء آل دوران عن نساء آل أنجيليري، فلقد جمعت بينهما بعض القواسم المشتركة: القوة، والمباشرة، والحس العملي، والترحيب بالضيوف. كان بيت آل دوران في لوس أنجلوس يشبه بيت أبويه في بروكلين: ذلك أنه صغير، دافئ، حافل بقطع الأثاث والأغراض الرخيصة، تنبعث منه رائحة الطعام والقهوة. وحين جلس إلى تلك المائدة، ومضى يقاسمهن تشكيلة من الأطباق المصنوعة في البيت، ويشرب البيرة والتيكيلا، بينما تتحدث النساء جميعاً في وقت واحد، ويمزحن ضاحكات، داخله شعور غامر بالطمأنينة. إذ كان فرانك يعرف مفاتيح التعايش بين أولئك النساء.

هو الذي خطر على باله فكرة السفر إلى السلفادور بحثاً عن ماريסول دياس. ما كان ليعترف إلى أحد بذلك، ولكن الفكرة قد خطرت له حين عرف أن ماريسول لم تبعث إلى دورا دوران رسالة واحدة من «العالم الآخر». على أمل أن تتمكن من مساعدتها في تحديد موقع ماريسول، كانت سيلينا قد عرضت على جدتها صورة لماريسول وردت في الملف الذي أعده ضابط اللجوء، إلى جانب صور أخرى لآنيثا. ولكن دورا أرادت أن تتعرف بالطفلة شخصياً، فمضت بها سيلينا إلى أريزونا، وحصلت لجدتها على إذن بالدخول إلى الملجأ على الرغم من حظر الزيارات. وهكذا استطاعت دورا أن تمضي بعض الوقت مع آنيثا، التي تركت في نفسها أثراً قوياً.

- أعتقد بأنّ أنيتا تتمتع بملكة، ولكنّها لا تشبه ملكتي. ربما ظهرت في المستقبل، عندما تكبر قليلاً. - هكذا أخبرت سيلينا بعد الزيارة.

- ما الذي يجعلك تفكرين في ذلك يا جدّتي؟

- تملك أنيتا القدرة على أن ترى أشياء خفية، وأن تتخيّل المستقبل، وتكهّن بالآتي.

- إنّها تعيش في عالمها الخاصّ وتحدّث إلى نفسها، لديها مخيّلّة جامحة. - أوضحت لها سيلينا.

- أعتقد بأنّها تنتقل إلى بُعدٍ آخر. لقد بثّني قوّتها وشعرْتُ بالقدرة التي تملكها حين أخذتُ بيديها.

- هل أحسستِ برسالةٍ من ماريسول؟

- كلا. أملُ ألا تُضطرّ إلى الاتّصال بي أبدًا، ولكنّي سوف أبقى في غاية الانتباه على سبيل الاحتياط.

كانت دورا دوران - الطفلة التي وصلت إلى الولايات المتّحدة عبّر الصحراء ملفوفةً في عباءة أمّها، وهي لم تتجاوز الثلاثة أشهر بعد. قد بدأت تشتهر بالعرفاة وهي في الثالثة عشرة من العمر تقريبًا. قالت ماماغراندي إنّ نساء عائلتها يتوارثن تلك الملكة منذ عهد الغزاة الإسبان في المكسيك. ولكنّ قلة قليلةً منهم قد وجدن الفرصة لتطوير تلك الملكة. في نوبات الهذيان التي تستحوذ عليها، تحكي العجوز أنّها هي نفسها تعيش في حوارٍ مُتّصلٍ مع الأرواح الغائبة. ولكنّ الأرواح لا تحضر لتثقلها بمشكلاتها الخاصّة، كما تفعل مع دورا، بل إنّها تحضر لتسلّيها بالنمائم.

- حين أتناها العادة الشهرية لأوّل مرّة، توقّف دماغ دوريتا. - حكّت لفرانك - قيل إنّها قد أصيبت بالتهاب السحايا. ولكنّها بعثت من جديد

بعد أن اشتعل دماغها. ومنذ ذلك الحين صارت لها قدمٌ هنا و قدمٌ على الجانب الآخر.

لم يفهمها فرانك أنجيليري، إذ لم تسعفه الإسبانيّة التي تعلّمها في المدرسة لفهم الماورائيّات. ولكنّ سيلينا راحت تترجم له حديثها. - ماماغراندي لديها نظريّاتٌ شتى في تلك المسألة. - أردفت - فهي ترى، على سبيل المثال، أنّ عقرباً قد تسلّل إلى أذن الجدّة دورا، أو أنّها قد أكلت فطراً مُسمّماً من المقابر.

- وما نظريّتك أنت، سنيوره؟ - وجّه فرانك سؤاله لدورا.

- ليست لديّ نظريّة واحدة. والحقّ أنّي كنتُ أفضل لو تركني الموتى في سلام. - أجابت دورا.

- يترك بعض الناس مسائل مُعلّقة في هذا العالم، فيتّصلون بدوريتا لحلّ تلك المسائل. - تدخلت الجدّة الكبرى في الحديث - ولهذا يحضر آل كينيدي طوال الوقت.

- لم يحضر آل كينيدي قطّ يا ماماغراندي، من أين أتيت بهذا الحديث! - قالت سيلينا مُتعبجة.

- من رحل في سلام لا يحضر بنيّة الإزعاج أبداً. ولكن قتلة آل كينيدي قد ارتكبوا تلك الجريمة بتحريضٍ من آخرين. لم يدفع القتلة الحقيقيّون الثمن عمّا اقترفت أيديهم. وآل كينيدي يريدون تحقيق العدالة. - أصرّت الجدّة الكبرى.

- لقد مرّ على تلك الواقعة أكثر من نصف قرنٍ يا ماماغراندي. أعتقد بأنّهم قد ماتوا جميعاً.

- يسرّني ذلك. لا بدّ أنّهم يحترقون في الجحيم. - أجابت الأخرى.

- لو تعرّضت ماريسول لحادثةٍ أو لقيت ميتةً عنيفة، لما رقدت هادئة. أليس حقًا؟ - احمرّ وجه فرانك حين خُصص إلى تلك النتيجة، لأنّ شعورًا قد حدّثه بأنّه ساذجٌ أبله. لو سمعه الزملاء، فماذا يقولون؟
- بالضبط أيّها الشابّ. - أصرّت العجوز.

- ليس هذا بالشّيء المؤكّد. - أنكرت دورا وهي آتيةٌ بالصواني من المطبخ - فلو تحدّث إليّ جميع الموتى المضطربون، لذهبتُ أنا إلى مستشفى الأمراض العقليّة.

ولكن دورا لم تكن بالمجنونة أو المشعوذة، بخلاف كثيرٍ من الوسطاء الروحانيّين الذين ينتشرون في تلك الأنحاء. كان في يدها أن تجني ثروةً لو عرضت على الأقرباء مواساتهم برسائل من «العالم الآخر»، مع الأخذ في الحسبان كثرة المهتمّين بتلك الخدمات. غير أنّها تكنّ احترامًا عظيمًا لتلك القدرة الخارقة التي تمتلكها، وأمنت بأنّ تقاضي الأجر نظير خدماتها يمثل خطيئة. لقد منحها الرّب تلك القدرة لتساعد الآخرين وتخدمهم، لا من أجل الفائدة الشخصية. كانت تجني قوتها في الحياة بالاشتغال مُعلّمة، ولكنّها منذ التقاعد صارت تعمل على تحسين دخلها الهزيل بصنع كعكات أعياد الميلاد والأعراس والحفلات التي تُقام للفتيات متى بلغن الخامسة عشرة من العمر. كانت تلك الكعكات أعمالاً فنية حقيقية، تكلّلها دورا بتمائيل صغيرة من السكر على شكل الزبائن، وتستعين بالصور الفوتوغرافيّة حتى تغدو التماثيل نسخًا من العروسيّين أو الفتيات بثياب الأميرات. في الصين أيضًا تُصنّع تلك التماثيل، ولكنّها لا ترقى إلى الجودة نفسها. أضف إلى ذلك أنّها مصنوعةٌ من الجصّ. أمّا تماثيلها الصغيرة فتؤكّل، كما أوضحت لفرانك.

- بالأمس أعددت مجموعةً من تماثيل الكلاب الصغيرة من حلوى اللوز بمناسبة عيد ميلاد كلبٍ كثيف الشعر في بيثيرلي هيلز. سوف يُقام الحفل في حضور كلابٍ أخرى بفندق فور سيزونز، تخيّل الأشياء التي يفعلها الأثرياء بنقودهم! - قالت.

مساء ذلك اليوم، بعد الغداء المكسيكيّ الدسم الذي نزل في معدة فرانك وكأنّه قطعةٌ من الإسمنت، ودّع سيلينا في فناء البيت، هناك حيث تربّي الجدّة الكبرى الأرناب، تلك الكائنات الصغيرة المستديرة ذات الأذان الطويلة، وتّخذها حيواناتٍ أليفة. ولذا أمسك فرانك عن ذكر وصفة الأرناب بالروزماري والفطر التي تعدّها أمّه.

- سوف أحصل على إجازةٍ أسبوعًا. أستحقّ ذلك، بعد أن عملت على قضيةٍ أپرستين وكأنتي محكومٌ بالأشغال الشاقّة. ما رأيك لو ذهبنا إلى السلفادور بحثًا عن ماريسول؟

- أنا وأنت؟ - سألته سيلينا، وقد اعترتها المفاجأة.

- لا يمكنني السفر إلى هناك وحيدًا. تعرفين تفاصيل القضية كراحة يدك، كما أنّك تتحدّثين الإسبانيّة. لقد تأكّد لنا أنّها ليست في مخيّمات اللاّجئين على الجانب الآخر من الحدود. ولن نخسر شيئًا لو بحثنا عنها في بلدها. هيّا بنا يا سيلينا، إنّهُ أكثر شيءٍ عمليٍّ يمكننا فعله. - لا أدري يا فرانك...

- لن تكلفك الرحلة شيئًا، فأنا أدعوكِ إلى السفر.

- ولماذا؟

- لأنّ مُساعدة أنيتا تهمني بقدر ما تهّمك. لديّ صديقٌ في السفارة الأميركيّة بالسلفادور. يمكنه أن يساعدنا. وافقي، هيّا بنا...

فَكَرَّت سِيلِينَا فِي رَدَّةِ فَعْلِ مِيلُوشِ لَوْ عَرَفَ أَنَّ خَطِيْبَتَهُ سَوْفَ تَسَافِرُ مَعَ رَجُلٍ آخَرَ. رُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْ مَتَطَلِّبَاتِ الْعَمَلِ الَّتِي لَا يَجِبُ عَلَيْهَا أَنْ تَفْسِّرَهَا إِلَى مِيلُوشِ. سَوْفَ تُخْبِرُهُ بِضَرُورَةِ السَّفَرِ، وَلَكِنَّهَا لَنْ تَأْتِيَ عَلَى ذِكْرِ فِرَانِكِ. دَعُ عَنْكَ أَنْ تَذْكُرَ تَحْمُلَهُ مَصَارِيفَ الرِّحْلَةِ. لَنْ تُخْبِرَ حَتَّى عَائِلَتِهَا بِذَلِكَ، وَإِلَّا وَقَفَتْ فِي صَفِّ مِيلُوشِ. لَا يُمْكِنُهَا الْاعْتِمَادُ عَلَى دَعْمِ نِسَاءِ آلِ دُورَانِ فِي تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ.

سَافَرَا إِلَى السَّلْفَادُورِ بِطَائِرَةٍ تَابِعَةٍ لَخَطُوطِ أَثِيَانِكَا الْجَوِّيَّةِ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ الثَّانِي مِنْ فَبْرَايِرِ، كَمَا حَجَزَا تَذَاكِرَ الْعُودَةِ يَوْمَ السَّبْتِ التَّالِيِ. سَافَرَا بِالْحَدِّ الْأَدْنَى مِنَ الْأَمْتَعَةِ، مُحْمَلَيْنِ بِالْمَعْلُومَاتِ الَّتِي تَحَقَّقًا مِنْهَا عَنْ طَرِيقِ أَنْيْتَا، وَنَسْخَةٍ مِنْ مَلَفِّ مَارِيْسُولِ، حَصَلَتْ عَلَيْهِ سِيلِينَا بِفَضْلِ ضَابِطِ اللَّجُوءِ الَّذِي يَشْعُرُ بِالضَّعْفِ أَمَامَهَا. اعْتَبَرِ فِرَانِكِ تِلْكَ الرِّحْلَةَ مَغَامَرَةً. قَبْلَ أَنْ يَلْتَقِيَ سِيلِينَا، لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ إِلَّا أَقْلَ الْقَلِيلِ عَنْ أَمِيرِكَا الْوَسْطَى، ذَلِكَ الْمَكَانَ الَّذِي يَظْهَرُ عَلَى الْخَارِطَةِ نَائِيًا غَامِضًا. لَطَالَمَا جَاءَتْ مِنْ تِلْكَ الْمَنْطَقَةِ أَخْبَارٌ سَيِّئَةٌ: ثُورَاتٌ، حُرُوبٌ عَصَابَاتٌ، أَنْظِمَةٌ دِيكْتَاتُورِيَّةٌ دُمُويَّةٌ، مَجَازِرٌ، حُرُوبٌ أَهْلِيَّةٌ، فُسَادٌ، إِتْجَارٌ بِالْبَشَرِ، مَخْدِرَاتٌ... كَمَا جَاءَتْ فِي الْآوَنَةِ الْأَخِيرَةِ أَخْبَارٌ تَنْظِيمَاتٍ إِجْرَامِيَّةٍ كَعَصَابَةِ مَارَا سَلْفَاتُرُوتْشَا. لَمْ يَفَرِّقْ فِرَانِكِ بَيْنَ بَلَدٍ وَآخَرَ فِي تِلْكَ الْمَنْطَقَةِ لِأَنَّهَا كُلُّهَا تَبْدُو لَهُ سَوَاءً. بِاسْتِثْنَاءِ كُوسْتَا رِيكَا - الَّتِي ذَهَبَ إِلَيْهَا فِي إِحْدَى الْإِجَازَاتِ، فَرَكَبَ الْأَمْوَاجَ عَلَى صَفْحَةِ الْمِيَاهِ الْبَلُورِيَّةِ وَالتَّقَطَّ صُورَ الْبَجَعَاتِ وَالسَّلَاحِفِ - ذَلِكَ الْبَلَدُ الَّذِي أُلْغِيَ وَجُودُ الْقُوَّاتِ الْمُسَلَّحَةِ مِنْذَ عَامِ 1948 وَعَاشَ فِي رِخَاءٍ وَسَلَامٍ مِنْذَ سَبْعَةِ عَقُودٍ مَضَتْ، ذَلِكَ الْفَرْدُوسُ الَّذِي يَذْهَبُ إِلَيْهِ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ السَّائِحِينَ الْأَمِيرِكَانِ، أَكْثَرُهُمْ مِنَ الْمُتَقَاعِدِينَ.

عندما تولّى فرانك الدفاع عن أنيتا دياس، عكف على دراسة تاريخ وسياسة المنطقة التي يتوافد منها اللاجئون والمهاجرون الذين تعمل سيلينا معهم.

بخلاف الإنترنت والصحافة، استند فرانك إلى فيض المعلومات التي زوّدته بها سيلينا. تفهّم الأسباب التي تحمل كلّ أولئك الناس - بمنّ منهم الأطفال الذين يسافرون وحدهم - على السفر إلى الشمال في تلك الرحلة المحفوفة بالمخاطر من أجل التقدّم بطلب لجوءٍ في الولايات المتّحدة. حتى مخاطر الطريق والعدوانيّة التي يُرفضون بها لم تفلح في إقناعهم بالعدول عن ذلك، لأنّ الفقر المدقع والعنف الذي يفلت مرتكبوه من العقاب أسوأ كثيرًا. «لا أحد بمأمنٍ في هذا العالم يا فرانك. قد يجد أيّ منّا نفسه في ذلك الوضع»، قالت له سيلينا، وإن لم يتخيّل أن يلقى أحدٌ من محيطه ذلك المصير. أخبر أمّه بذلك، فذكّرتَه بأنّ والده وجدّه وجدّته قد هاجروا هربًا من المافيا في صقلية.

كان مطار سان سلفادور عصريًا، حافلًا بالمتاجر الفاخرة ومحال الأشغال اليدويّة والمسافرين أيضًا، فاستغرقا وقتًا غير قليلٍ حتى خُتِم جوازا السفر. أحسّا بطول الرحلة التي استمرّت خمس ساعات. وعلى الرّغم من ذلك، فلقد استقرّا على سدّ جوعهما بفطائر البوپوسا الشهيرة في أولوكويلتا التي سمعت عنها سيلينا، بدلًا من الذهاب إلى الفندق مباشرة. أمّا فرانك، فلقد أورثه اسم الفطائر شعورًا بالارتياح على الفور. ولكنّه استقرّ على التخلّي عن الاحتياطات الغذائيّة طوال أيّام السفر. لا يمكن أن يظهر أمام سيلينا بمظهر الضعيف. ما إن خرجا من المطار حتى تلقّى كلاهما صدمة المناخ المختلف.

- يبدو وكأنه حمّام بخار! - قال فرانك مُتَعَجِّبًا.

- التقطُ أنفاسك، فالمرء يتعوّد كلَّ شيء.. - أجابت بأنفاس مُتهدّجة.

استقلّا سيّارة أجرة. وبعد عشرين دقيقة، وجدا نفسيهما أمام مشوأة مصنوعة من الطين الأسود على النار المُتوهّجة، بينما أخذت امرأتان ترصّان فوق المشوأة فطائر من طحين الأرز والذرة وقد ارتدت كلُّ منهما مئزرًا أزرق اللون. طلب كلُّ منهما فطيرة «بويوسا لوكا» بحجم الصحن، محشوّة بالجبن والفاصوليا ولحم التشيتشارون، مُتوجّهة بالبيرة. وهكذا بدأت رحلتها إلى ذلك البلد.

أصرّ فرانك على النزول بفندقٍ فاخر، وعرض أن يتكفّل بالمصاريف كاملة، كما اشترى تذاكر الطيران في درجة رجال الأعمال، فقبلت سيلينا بلا اعتراض، إذ رأى كلاهما بوضوح أنّه يملك من الموارد أكثر ممّا تملك بفارقٍ كبير. ذهبا إلى الفراش في ساعة متأخرة جدًّا، كلٌّ في حجرته. لم ينعما بنوم هانئ، إذ مضى هو يفكر في القرب من سيلينا، بينما راحت هي تفكر أنّهما لا يملكان إلا أربعة أيّامٍ للعثور على ماريسول. خلال الساعات التي أمضيها في الخارج، أصابتهما الحرارة الرطبة بطفحٍ جلديّ وتورّم في اليدين والقدمين. وعلى النقيض من ذلك، جعلتهما مُكيّفات الهواء في الفندق يرتجفان من شدّة البرودة.

تذكّرت أنيتا جدّتها التي عاشت معها منذ الميلاد أكثر ممّا تذكّرت أمّها، ولكن أطراف الخيوط التي زوّدتها بها كانت مبهمة.

- نعرف اسم الجدّة، ونعرف أنّها قد عملت في صنع الصبغة النيليّة. - أوجز فرانك في اليوم التالي، وهما يتناولان الفطور في الشرفة.

- لقد ذكّرتَ أنيتا أنَّ جدّتها تتلقّى زيارات السائحين. يمكننا البدء في منتزه كازا بلانكا الأثري، الذي يضمّ متحفًا ومتجرًا للصبغة النيلية. يقع المنتزه في تشالتشواپا. - اقترحتَ سيلينا.

- كم يبعدُ عن هنا؟

- سألتُ حارس الفندق، فأخبرني بأنّه يبعدُ قرابة ساعةٍ وعشرين دقيقة تقريبًا بالحافلة.

- نحتاج إلى وسيلةٍ للتنقل، دعينا نستأجر سيّارة. - قرّر فرانك. - فرانك، يستحيل توقّع حركة السير هنا. الأفضل أن نأخذ سائقةً ترافقنا طوال اليوم بسيّارة أجرةٍ وردية. لقد أوصاني حارس الفندق بذلك أيضًا.

- سيّارة أجرةٍ وردية؟

- إنّها سيّاراتُ تقودها النساء من أجل النساء. أمنة جدًا.

اضطرًا إلى إظهار جوازي السفر لسائقة السيّارة حتى تقلّهما، لأنّ فرانك استثناء. كانت السيّارة مفروشةً باللون الورديّ، ومزوّدةً بمرآةٍ وأدوات زينةٍ في المقعد الخلفيّ في حال أرادت الراكبات إضافةً لمسابٍ إلى زينة الوجه. أمّا لولا، السائقة الودود كثيرة الحديث، صاحبة الزيّ الأبيض والقامة القصيرة والجسد المتين، فلقد ثبت أنّها تملك سيّلاً جارفًا من المعلومات. وألقتَ عليهما خلال الرحلة درسًا حقيقيًا بشأن السياسة المحليّة والرئيس الجديد واجتياح الجراد وعصابات مارا والاحتياطات الأساسيّة التي يجب عليهما اتّخاذها.

- كثيرًا ما يدور الحديث عن غياب الأمن، إنّهُ الشيء الذي لا تنشر الصحف سواه، ما يترك في النفس انطباعًا بأننا واقعون بين أيدي

عصابات مارا ومُهرَّبِي المخدّرات. ولكنّها مُجرّد مبالغة. - قالت لولا- نعيش هنا في هدوءٍ ونقضي وقتًا طيبًا. نحن شعبٌ مرح، نحب الرقص والغناء. ونساعد بعضنا بعضًا، ونعتني بعائلاتنا. أنا مثلاً أطهو الطعام في أيام الأحد من أجل عائلتي الكبيرة، تربطنا صلةٌ وثيقة. من المؤسف أن تكون صورة بلدي في الخارج سيئةً إلى هذا الحدّ. كلّ مواطنٍ سلفادوريّ يعرف كيف يعتني بنفسه، ويعرف إلى أين يمكن الذهاب وفي أيّ ساعة، ويعرف كيف يتجنّب الأُمَكنة الخطيرة والمشبوهين. أنتم في أمانٍ معي، فأنا أعرفُ هذا البلد كما أعرفُ راحة يدي.

عرفتُ أنّ كليهما مُهتَمٌّ بالصبغة النيليّة، فانطلقتُ تلقّي درسًا آخر عن «الذهب الأزرق»، الذي عُرِفَ منذ القرن السادس عشر ثم فقد قيمته حين اخترِعتِ الأصباغ الصناعيّة، ولكنه يُعدّ من الموروث الفني للبلد. ومن هناك بدّلتُ مجرى الحديث إلى أهرامات عصر ما قبل كولومبوس، وأصرّت على أن تأخذهما إليها، وإن لم يكن لديهما مُتَسَعٌ من الوقت للزيارات السياحيّة، ولذا اتّجهتُ مباشرةً إلى المتحف الذي يقع في بناءٍ على الطراز الاستعماريّ يتوسّط المنتزه.

وفي ورشة الصبغة النيليّة، حيث تحضّر النساء تلك الصبغة الطبعيّة بالطرق القديمة، ويبعن المشغولات بدرجات الأزرق كلّها، اتّضح أنّهنّ يعرفن دونيا إدوبيخيس تمام المعرفة، لأنّها تعمل هناك منذ ثلاثين عامًا. لم تكن هناك صبيحة ذلك اليوم، ولكنّها حصلا على عنوان بيتها الذي ما لبثت لولا أن حدّدت موقعه في حيّ العمّال الذي يُدعى تشالتشواپا.

من مكانها في فناء البيت، تحدّثت إليهما جدّة أنيتا بارتياپ، محاطةً بعددٍ من الكلاب النابحة، عبّر سياجٍ مُكلَّلٍ بالأسلاك الشائكة. ولكن ما كادت سيليّنا تطلعها على صورة أنيتا وتخبرها بأنّها تعرف

حفيدتها معرفةً شخصيّة، حتى فتحت لهما الباب ودعتهما إلى الدخول، وقد بلغ بها التأثير مبلغه. تبعتهما الكلاب وهي تهزّ أذناها. ما زالت المرأة تتمتع بطاقة الشباب وخفّته، وإن طعن وجهها في العمر مُثَقَلًا بملامح الشقاء، وهي التي عاشت حياةً من العمل والجهد المُتَّصِل، ومضت تعتنى بزوجها المريض طريح الفراش منذ أعوامٍ طوال. كما أنّها قد ربّت خمسة أبناءٍ وحدها تقريبًا، ودفنت اثنين.

- صغيرتي... لم أعرف عنها شيئًا طوال شهور، أين هي؟ - سألت مُرتجفة.

- إنها بخير يا سنيوره. وهي في الولايات المتّحدة الآن، في أريزونا. - قالت سيلينا.

- هل رأيتها؟

- أجل، رأيتها قبل قليل. وأحضرتُ لكِ عدّة صور.

- كم أفتقدّها!

- وهي أيضًا تفتقدك. آنيّا مُتيمّةٌ بجَدَّتِها، تيتا إدو.

دعتهما إدوبيخيس إلى الجلوس وقَدّمت إليهما كولا-تشامپان، ذلك المشروب الغازي البرتقالي الذي قدّمته إليهما في كويّن من البلاستيك. كانت لولا قد حدّرتهما من شرب الماء، لأنّه يصل إلى ذلك الحيّ مرّةً واحدةً من كلّ أسبوعٍ عن طريق الشاحنات، ويصل مُلوّنًا في بعض الأحيان. استقرّ دلوّان من الماء قرب المطبخ. كان المسكن مُؤلّفًا من وحداتٍ إسمنتيةٍ مربّعة، في غاية البساطة والترتيب والنظافة، أرضيّتها مفروشةٌ بالمشمع، بينما تُركت نوافذها المُغطّاة بالناموسيّات مفتوحةً لتهوية المكان.

- سوف تتم أنيتا عامها الثامن وحيدة، في غياب أمها وجدتها...
أتعذب بهذا الألم المبرح وكأنه سكين في قلبي.. - قالت لهما إدوبيخيس
وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

- لا تقلقي، سوف نحتفل بعيد ميلادها ونصنع بينياتا⁽¹⁾ من أجلها.
لقد سألتها عن الهدية التي تريدها، فطلبت مني جهازًا للاستماع إلى
الموسيقى. سوف يشتريه فرانك من أجلها.

- سوف تحب ذلك. تعرف أنيتا الأغاني الرائجة كلها. لديها حس
موسيقي جيد وصوت حسن. كانت تلك هي تسليتها عندما تعرضت
للحادثه. إلى أن تمكنت من العودة إلى المدرسة، حيث علمتها إحدى
المعلمات كيف تعزف على الجيتار. هل سمعتما صوتها وهي تغني.

- ليس بعد يا سنيوره. أمّا الآن وقد أخبرتنا بذلك، فسوف أحرص
على ألا تنقصها الموسيقى. سترقص ونغني معًا. - أكدت لها سيلينا.

- أنيتا طفلة مُميّزة جدًا، منذ نعومة أظفارها. في الثالثة من العمر
صارت تتكلم كال كبار. وفي الخامسة علمتها القراءة والكتابة. لطالما
كانت طالبةً مُتفوّقة، تدرس وحدها، فلم أضطرّ إلى مراقبتها. وكم اعتنت
بأختها الصغيرة! قالت إنّ قدرها أن تكون أمًا لكلاوديا في غياب أمها،
لأنّها الأخت الكبرى. ولكنّها أصبحت جادّة منذ وقعت الحادثه، ولم
تعدّ تضحك كما في سابق عهدها.

- سنيوره، كيف وقعت الحادثه؟ - سألتها سيلينا.

- صدام مباشر، وجهًا لوجه. اصطدمت شاحنة بحافلة المدرسة.

- لشد ما يؤسفني ذلك...

1 - بينياتا: حاوية تُصنع من الفخار أو القماش الملون تُوضع في داخلها الحلوى والهدايا.

- لقد تجهّم لنا الحظّ طويلاً. والآن اختفت ماريسول! ألدّيكما فكرة عن مكانها؟ لقد اتّصلت بي قبل أكثر من ثلاثة أشهر، ثم انقطعت أخبارها منذ ذلك الحين.

- لقد جئنا من أجلها يا سنيوره. - قال لها فرانك.

اعتذرت الجدة لأنّها لا تملك شيئاً آخر تقدّمه إليهما، وقالت إنّها سوف تهرول إلى السوق لوبقيا لتناول الغداء. حكّت لهما أنّ روتيليو - ابنها الأكبر، الأقرب إليها، والأكثر تحملاً للمسؤوليّة، الذي لم يعرف العادات الرديئة، وظلّ ينأى بنفسه عن الخمر والشجارات والنساء، وقام مقام والده المريض - لم يعيش إلّا من أجل ابنتيه وماريسول، التي تزوّجها عندما حملت بعد الخطوبة التي استمرّت لبعض الوقت. بالكاد أسعفه الوقت ليتعرّف بكلاوديا، لأنّ روتيليو قد فارق الحياة قبل أن تتجاوز ابنته الثلاثة أسابيع. عمل لدى شركة لمواد الإنشاء، وفي واحدة من تلك الحوادث العصيّة على التفسير، غرق جسده تحت وابل من الإسمنت الذي صُبّ حديثاً، فتعذّر انتشاله من هناك قبل فوات الأوان. ولكنّ إدوينخيس تشتبه في تعرّضه للقتل، مع الأخذ في الاعتبار التهديدات التي سبق وتلقّاها لأنّه كان ناشطاً جدّاً في النقابة، وأحدث صخباً عارماً، كما عمل على تنظيم العمّال.

- من هدّده؟ - سألتها فرانك بلغته الإسبانيّة المائعة.

- لا بدّ أنّهم القتلّة المأجورون الذين حرّضتهم الشركة، ولكنّ ذلك شيء لا يمكن إثباته.

- ألا يمكن أن يكون القتلّة من عصابات مارا؟ - اقترحت سلينا.

- لم يكن لروتيليو شأنٌ بأولئك من قريبٍ أو من بعيد. كما أنّ عصابات مارا تقتل وجهاً لوجهٍ بهدف ترويع الناس، فلا يتوعّدون ولا يصطنعون الحوادث.

أمضى فرانك وسيلينا عدة ساعاتٍ مع إدوبيخيس، التي أصرّت على الذهاب لشراء «دجاجة هندية» - تربّت في باحة، لا في مزرعةٍ للدجاج - ، لأنّهما ضيفان في غاية الأهميّة، كما أوضحت لهما. تألّف الغداء من قدرٍ وفيرٍ من حساء الدجاج بالخضراوات، أعدّته وهما يتفحصان الصور ودفاتر أنيتا المدرسيّة، السابقة على الحادثة التي أصابت عينيها، وبطاقتي بريدٍ أرسلتهما ماريسول خلال رحلتها إلى الشمال. عرفا أنّها قد اتّصلت بالجدّة إدوبيخيس قبيل التوجّه إلى المعبر الحدوديّ. ثم اتّصلت بها مرّةً أخرى من مركز احتجازٍ في تكساس، حيث نجحت في استعارة هاتفٍ جوّالٍ من أحدهم. وفي الدقيقتين اللتين استغرقتهما المكالمة، وجدت ماريسول مُتسّعاً من الوقت لتخبر حماتها بأنّها قد أرغمت على مفارقة أنيتا.

- أكّدت لي أنّه إجراءٌ طبيعيّ، وأنّ ابنتها أنيتا بخير، وأنّها سوف تعود إليها قريباً. ولكنّي أعرف أنّها قد أخبرتني بذلك لتهدئ من روعي. - أخبرتهما الجدّة - الكلّ هنا يعرف أنّ العائلات تُرغم على الافتراق في الشمال، كما أذاع التلفزيون. ولماذا نذهب بعيداً؟ بالأمس رأينا طفلاً صغيراً في الثالثة من العمر يتشبّث بساقي أبيه، ويكي صارخاً. يا للصغير المسكين! رأينا كيف انتزع من بين ذراعيه واقتيد بعيداً عنه. كما نرى الأطفال الذين يتركهم المُهرّبون وحدهم في الصحراء. بعضهم صغارٌ جدّاً!

اكتشف فرانك وسيلينا أنّ ماريسول قد اشتغلت بالخدمة المنزليّة في بيت أحد رجال السياسة بالعاصمة، من الإثنين إلى الجمعة. كان البيت الواقع بحيّ أنتيغوه كوسكاتلان واحداً من البيوت الأربعة التي تشغل ذلك المجمع السكنيّ المغلق الذي يحرسه الأمن ليل نهار ويمرّ الداخل إليه عبْر نقطة تفتيشٍ عند البوابة. كانت ماريسول

تعمل حتى السادسة مساءً في أيّام الجمعة، ثم تستقلّ الحافلة إلى تشالوشوايا لتقضي العطلات الأسبوعيّة مع أسرّتها. أمّا في باقي الأيّام، فكانت الجدّة تتولّى العناية بأنيتا، لأنّ ساعات العمل مرنة في مشغل الصبغة النيليّة. شغلت الجدّة موقع المُوجّهة، أي الشخص الأهم في تلك العمليّة المُعقّدة، عمليّة تحويل بذور العظم إلى عجّين الصبغة، لأنّ المُوجّهة هي المسؤولة عن تحديد منسوب الأكسجين. كما تولّت استقبال الزائرين وشرح كلّ خطوة في العمل، بدءًا من البذرة وصولًا إلى النسيج في شكله النهائي، من واقع خبرتها التي امتدّت أمدًا طويلًا.

منذ فارق زوجها الحياة، قبل خمسة أعوام، تقدّم رجلان لخطبة ماريّسول، فرفضتهما لأنّها تعود من العمل مُتعبة، ولا تريد إلّا تمضية بعض الوقت في البيت. لم تكن قد تعافّت من الألم، ورأت أنّها لن تجد رفيقًا مثل روتيليو أبدًا، رفيقًا يصلح ليكون زوجَ أمّ طيّبًا. «إنّ زوجة ابني في غاية الوقار، لم تُحضر إلى بيتي أيّا من أولئك الرجال»، أخبرتهما إدوبيخيس، ولكنّها استثنت كارلوس غوميس، الذي يعمل حارس أمن في المجمع السكنيّ حيث اشتغلت ماريّسول بالخدمة المنزليّة. لطالما جاء كارلوس غوميس بلا دعوة، مُسلّحًا بتلك العجرفة التي يضيفها عليه زيّ الأمن. في المرّة الأولى استقبلته ماريّسول في الشارع، مع أنّها تعرفه. ثم تعذّر عليها أن توصل الباب في وجهه. بات غوميس يحضر من دون سابق إنذار، في أيّ وقت، ويصرّ على رؤية ماريّسول.

- إنّه الرجل الذي أطلق عليها النار قبل أن تهرب من البلد مع أنيتا، كما ورد في تصريحات ماريّسول. - قالت سيلينا.

- لقد اكتشفت زوجة ابني شيئًا سرًّا. لم تخبرني به قطّ، ولكنّي سمعتها تتحدّث إلى غوميس. لم أسترّق السمع إلى حديثهما، ولكن الجدران هنا في غاية الرقّة.

- ألدك الفكرة عن موضوع ذلك السرّ؟

- كلاً. وعدته ماريسول بالألا تذكر المسألة لأحد، كائنًا من كان، لأنّها لا تعنيها في شيء. طلبت منه أن يتركها في سلام. ولكنّه مضى يهدّدها تارة، ويسعى إلى الدخول في علاقةٍ معها ويحاول أن يقبّلها ويتلمّس جسدها تارة. في حين شعرت هي نحوه بخوفٍ جارف.

حتى الجدة قد خافت من غوميس، الذي كان يمرّ بالبيت في منتصف الأسبوع أحيانًا، على علمه بأنّ ماريسول ليست هناك، ويطلب برؤية أنيتا التي كان يجعلها تناديه «العمّ كارلوس» ويحضر لها الألعاب الصغيرة والحلوى. «حتى تعرفني الطفلة وتحبّني»، هكذا قال. الأمر الذي ترك ماريسول على نار، فأعطت حمايتها تعليماتٍ بالألا تسمح له بأن يبقى وحيدًا مع الطفلة مهما كان السبب.

- ولكنّه مرّ بأنيتا في المدرسة ذات جمعة، بعد وقوع الحادثة. حملها على ركوب سيّارته فلم تقاوم، إذ أخبرها بأنني أنا التي قد أرسلته. حاولت إحدى المعلّمات التدخل، فأوضح لها أنّه عمّ الطفلة، وأنّه سوف يصحبها إلى حفل عيد ميلاد. يبدو أنّه قد لمح المعلّمة في مرآة الرؤية الخلفيّة وهي تلتقط له صورةً بالجوّال.

قالت إنّ ماريسول قد وصلت ليلتذاك وهي في حالةٍ من اليأس لأنّ ابنتها لم ترجع بعد. كانت قد مرّت بمدرسة أنيتا كالمعتاد، فأخبرتها المعلّمة بأمر العمّ وحفل عيد الميلاد، وأطلعتها على الصورة. ميّزت إدوبيخيس السيّارة وأدركت من فورها أنّ الطفلة بين يدي كارلوس غوميس.

- لماذا لم تبليغي الشرطة؟ - سأله فرانك.

- الشرطة؟ كيف يخطر لك شيء كهذا! كان ذلك المدعو كارلوس غوميس شرطيًا حتى سُرح من الخدمة، ثم انتهت به الحال إلى

العمل حارس أمن، الذي يقوم مقام حارس العقار، ولكنه يرتدي زيًا موحّدًا ويحمل سلاحًا. وما زال لديه أصدقاء كثيرون في الشرطة.

ظلت ماريسول تتّصل بغوميس مرّة كلّ دقيقتين، ولكنه لم يردّ على اتّصال واحدٍ منها. وأخيرًا، قرب منتصف الليل، بعد أن عرف الشارعُ كاملاً بأمر اختطاف الطفلة، واحترقت أعصاب الأمّ والجدّة تمامًا، جاء الرجل مُطلّقًا آلة التنبيه في بهجة. وبينما انطلقت أنيتا راكضةً إلى حضن جدّتها، أوضح غوميس أنّه قد أخذها إلى الشاطئ. «يجب عليك أن ترافقينا في المرّة القادمة يا ماريسول، حتى تمرح ابنتك هادئةً، فأنا لا أحبّ الصغيرات اللاتي يكثرن من الصراخ»، أردف مُتوعّدًا. ومنذ ذلك اليوم صارت أنيتا تتوارى عن الأنظار كلّما ظهر غوميس، وانتقلت إليها عدوى الخوف من أمّها وجدّتها.

- أعتقد بأنّ الصورة التي التقطتها المُعلّمة قد أنقذتها، إذ انتبه غوميس إلى إمكانيّة تحديد هويّته. - قالت إدوبيخيس - وإن لم يردعه ذلك عن مُخطّط الفوز بماريسول. حتى أنا كان يحضر لي الهدايا، كالخلّاط الكهربائيّ واللحم المقدّد والقهوة الفاخرة، أو يترك معي أشياء من أجل ماريسول. أمّا لو رفضتُ، فكان يستشيط غضبًا. استمرّت الحال عدّة أشهر، فنقد صبره واشتدّ الغضب في نفسه واحتدّت لهجة التهديدات. أخذ يراقب ماريسول ويتلصّص عليها ويفتعل الشجارات مدفوعًا بالغيرة وكأنّها خطيبته.

- وماذا عنها؟

- ظلت تتجنّب ذلك الملعون قدر المستطاع. لم ترغب حتى في رؤية وجهه! - انفجرت الجدّة - واستمرّت تلك الحال حتى أطلق عليها رصاصة، وكاد يريدها قتيلة. لهذا اضطّرت إلى الرحيل. وإلاّ فماذا

تملك أن تصنع؟ لم أرد أن تأخذ حفيدتي، ولكن ماريسول لا تستطيع أن تتركها هنا تحت رحمة غوميس، أليس كذلك؟

أخبرتَهما بعنوان خينارو أندراي، شقيق ماريسول الذي يشتغل بالسياحة في كوستا دل سول، حيث تقع الشواطئ الأكثر شعبية. إنه الوحيد من أقرباء ماريسول في السلفادور. أمّا باقي أفراد العائلة فهم يعيشون في غواتيمالا.

ليلتذاك عادت سيلينا وفرانك إلى العاصمة. وفي اليوم التالي، أفلتَهما لولا إلى أتيغوه كوسكاتلان. كانت سيلينا قد اتّصلت بكارلوس غوميس على الرّقم الذي أعطتها إدوبيخيس إياه، وطلبت منه موعدًا مُتظاهرةً بأنّها زائرة مكسيكيةٌ تؤدّ أن تجاذبه أطراف الحديث، وأخبرتَه بأنّ صديقةً لها قد أعطتها رقمه. تجاوزت سيلينا صدمة القبط. بينما التهبت بشرة فرانك تمامًا. لم تكن أوّل مرّة ترى فيها لولا راكبًا يعاني من تلك المشكلة، فالتقطت من خزانة السيّارة كيسًا بلاستيكيًا خاليًا من الملصقات، يضمّ بضعة أقراصٍ منفردة، وأمرته بأن يتناول قرصين كلّ أربع ساعات. أذعن فرانك لأمرها من دون سؤال.

ألقت الأشجار السامقة بظلالها على شوارع الحيّ الفخم. من الخارج، لم يكن الناظر يرى إلّا أقلّ القليل من ذلك المجمع السكني الذي يعمل فيه كارلوس غوميس، لأنّه مُحاطٌ بسيّاح يحجبه جدارٌ من المساحات الخضراء العصيّة على الاختراق، شأن باقي القصور الواقعة في ذلك الحيّ. مكث فرانك في سيّارة لولا الوردية عند منعطف الطريق، بينما دقّت سيلينا الجرس وقدّمت نفسها عبّر جهاز الاتّصال الداخليّ. كان غوميس في وردية حراسةٍ آنذاك، فطلب من زميله في

العمل أن يحلّ محلّه لبعض الوقت بينما يتحدث إلى تلك السائحة المكسيكيّة المزعومة. ثم خرج إلى الشارع.

أقرّت سيلينا في سريرة نفسها بأنّ الرجل يبدو مهيبًا بذلك الزي العسكريّ الكاكي الذي تكثّر فيه الجيوب والأحزمة، والبيادة العسكريّة الثقيلة، ونظّارة الطيّار، والقبّعة السوداء. استطاع أن يبدو في ذلك الزي وكأنّه عضوٌ ناشط في إحدى فرق القتال. أمّا من جانبها، فلم تُضطرّ إلى بذل أدنى جهدٍ حتى تبهره، إذ عرفت من واقع الخبرة أنّها قد أطاحت بأنظمتها الدفاعيّة من أوّل نظرة. جاء غوميس مرتابًا في أوّل الأمر، ولكن ما إن اقتربت منه سيلينا - بشعرها الغزير والابتسامة المرتسمة على وجهها والثوب الذي يبرز صدرها ومشيتها المتمائلة - حتى تحوّل تمامًا.

- سنيوريتا، كيف لي أن أخدمك؟ - حيّاها بلطفٍ غامر.

- كابتن، هل يمكننا أن نجلس معًا لحظة. الجوّ حارٌّ كالجحيم...

حُظر الدخول إلى المجمع السكّنيّ حظرًا تامًّا، ما لم يتلق المرء دعوةً إلى الدخول. ومن ضمن واجبات غوميس أن يحرص على ذلك، وأن يفشّش كلّ سيّارة من الخارج ومن الداخل قبل فتح البوّابة. ولكن لا يمكن أن يبدو بمظهر المرؤوس أمامها (تلك المرأة الشهيّة!). يحبّ غوميس الفتيات وهنّ لا يزلن في طور البراءة، في مقتبل العمر، قبل النضج. ولكن تلك المرأة تستحقّ أن تؤكّل أكلاً! سمح لها بالدخول من باب مشاة يقع إلى جوار البوّابة. وفي شهامة، أخذها إلى مقعدٍ في الحديقة شبه محجوبٍ عن الأنظار، وسط النخيل الاستوائيّ. جلسا، فتمكّنت سيلينا من رؤية المسيح وبعض البيوت المترامية بعيدًا. لم يُر أحدٌ هناك، وخلا المكان إلّا من كلبين من سلالة الراعي الألمانيّ، زمجر كلاهما مُنذرًا عن مسافة، حتى صرفهما غوميس.

- أخبريني، ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك يا حلوتي؟ - كرّر الحارس سؤاله، رافعًا الكلفة بينه وبينها.
- كابتن، لقد أعطتني إحدى صديقاتي رقمك، كما أخبرتك عبر التليفون.

- مَنْ؟

- ماريسول أندراي، تعرّفتُ بها في المكسيك.
- متى كان ذلك؟ - سألتها الرجل في حذر، وقد اتّخذ وضع الدفاع.
- قبل عدّة أشهر، لا بدّ أنّي قد التقيتها في مطلع شهر أكتوبر من العام الماضي، لا أذكر بالتّحديد.
- لا شأن لي بتلك المدعوة ماريسول.
- ولكنك تعرفها، أليس كذلك؟ - أصرّت سيلينا.
- كانت تشتغل بالخدمة في بعض البيوت. ولكن في هذا المكان عشرات من العاملات.

- غير أنّها مُميّزة. لقد أخبرتني بما جرى بينكما.
- مَنْ أنت؟ وماذا تريد مني؟ - صاح غوميس وقد هبّ واقفًا.
- كابتن، لا تكن هكذا. أعرف أنها مُجرّد حادثة. - ابتسمت سيلينا وهي تزيج خصلة شعرٍ عن وجهها، وتضع ساقًا على ساق، حتى انحسر الثوب الرقيق إلى فخذهما، بينما تراءى صدرها رطبًا بفعل العرق.
- يجب عليك أن تغادري، لا يمكنكِ البقاء هنا. - أمرها غوميس وهو يجذب ذراعها.

تظاهرت سيلينا بأنّها قد تعرّثت وكادت تقع، ولكنّ الرجل أمسكها بقوة. ظلّ كلّ منهما ينظر إلى عيني الآخر، وبينهما سنتيمترات قليلة.

- كابتن، كل ما أريده أن أجازبك أطراف الحديث. أين يمكننا اللقاء؟ لقد حدّثتني عنك ماريسول، فأحسستُ بالفضول يأكلني. يروقني الرجال الأقوياء، المهيبون... - غمغمت سيلينا وهي تمطّ الكلمات.

أعطاهما كارلوس غوميس موعدًا في تلك الليلة بحانة لافلور دي إيسوته، ذلك المكان القذر الغارق في العتمة، الذي يضمّ بارًا ومنصة للرقص، حيث تُقدّم الموسيقى اللاتينية. لا تكفي ميزانيته ليأخذ تلك المرأة الشهية كثرة المانغا إلى المكان الذي تستحقّ. ولكنّه رأى أنّها متى شربت كأسين أو ثلاثًا، ورقصت معه وهو يضمّها إليه قليلًا، أدركت أيّ صنفٍ من الذكور هو، وتسنّى له أن يروّضها. لا توجد أدنى مشكلة. فلطالما نجحت تلك الاستراتيجية. وحدها ماريسول قد استعصت عليه طوال الأربعين عامًا التي عاشها. ليس لأنّه قد فشل معها، بل لأنّها امرأة غبية. ما زال يسأل نفسه عن السبب اللعين الذي جعله مهووسًا بتلك المرأة، وهي صاحبة الجسد النحيف الضامر، دغّ عنك أنّ لها ابنتين. كان عليه أن يتخلّص من ماريسول في البداية، قبل أن تتعقّد الأمور.

جلس فرانك ولولا إلى طاولةٍ أخرى، بعد أن تتبّع سيلينا إلى هناك. شربت هي البيرة، بينما تناول هو المياه المعدنية. خلعت لولا السترة البيضاء بتلك المناسبة، ووضعت في أذنيها قرطًا مُتدلّيًا يشبه زينة أعياد الميلاد. قال لها فرانك إنّها تبدو في غاية الجمال، فحذّرتَه بضحكةٍ مختنقةٍ من أن يتعلّق بالأوهام لأنّها امرأةٌ متزوّجة، مع الأسف.

وبينما راحت سيلينا تربّت على كأس مارغاريتا مثيرة للغثيان، فاترة، مفرطة الحلاوة، كان غوميس يحتسي قارورة البيرة الثالثة مُتخلّيًا عن الحذر، مُثرثرًا بطلاقة. لا تبدو المكسيكية على أدنى قدرٍ من الخطورة، فهي مُجرّد امرأةٍ شهيةٍ أخرى تحسّ بإثارةٍ شديدة. لقد نجح في أن يجعلها كالخاتم في إصبعه، وسوف يختم الليلة كما ينبغي.

أخذ يتلمّس جسدها في أثناء الرقص، تلك الأنثى اللذيذة، البيضاء، ذات الحسّ الإيقاعيّ الجيّد، التي تنبعث منها رائحة العطر والعرق. ولكن أشهى ما فيها شفّتيها، وهاتين الساقين، وذلك الصندل، وأظفار القدمين التي طلّتها بلون المرجان. إنّها امرأة راقية. طلب الويسكي، بينما استحوذت عليه مشاعر السخاء والموّدة والطلاقة والثقة. أنصت إليه المكسيكيّة فاعرة الفم، مفتونة. تحبّ النساء العنف ويردن الخضوع للسيطرة، حتى لو قاومن ورفعن أصواتهنّ صارخات. إنّهُ يعرف النساء كما يعرف راحة يده. وهكذا يفوز بهنّ على شبكات التواصل، بمظهر الفحل القويّ. سرّ بالحديث إلى المكسيكيّة، لأنّها تجيد الإنصات.

- كانت واقعة الرصاصة مُجرّد حادثة، فأنا مُسلّح دائمًا، تعلّمت إطلاق النار منذ الصبا، أبي هو الذي علّمني، سلاحني هنا، لا أتخلّى عنه حتى في أثناء الرقص، لو شئت أريتك سلاحني، لا أفلته من يدي لأنّ واجبي يقتضي ذلك، لا أتخلّى عنه حتى في أثناء النوم، لا بدّ من الدفاع عن السادة، فهذا يدفعون أجورنا، حتى لا يفكر ابن عاهرة واحد في اختطاف أحد الصغار، كلاب الحراسة لا تكفي لأنّها تُسمّم، هنا يكثر البائسون واللصوص وأفراد عصابات مارا، نحن هنا لهذا السبب، نحن ستة من أفراد الأمن، تتبدّل دوريّة الحراسة كلّ ثماني ساعات، ويتولّى كلّ دوريّة اثنان من أفراد الحراسة. يومذاك، يوم وقعت الحادثة، تسلّمت دوريّة الليل التي تبدأ في العاشرة وتنتهي في السادسة صباحًا، كانت السماء غائمة، وموسم الأمطار في أوجه، خيم الظلام في ساعة مبكّرة، خرج زميلي في الدوريّة ليتحقّق من محيط المكان، بينما اتّخذت أنا موقعي عند المدخل، هل قلت لك إنّ الوقت كان متأخّرًا؟ قلت المصاييح في الحديقة آنذاك، ثم تقرّرت زيادة عددها بعد حادثة ماريسول، الآن صارت لدينا مصاييح مُزوّدة بوحدات استشعارٍ تلتقط

الحركة وتُضاء من تلقاء نفسها كلُّما مرَّ كلبٌ أو عصفور، دع عنك أن يتسلَّل إلى المكان دخیل، ولكن في تلك الليلة كانت الرؤية سيئة. أتريدین كأسًا أخرى من المارغاريتا؟ سمعتُ وقع خطواتٍ على الحصى، فانتزعتُ مسدَّسي من غمده على سبیل الاحتياط، المرء لا يدري أبدًا أيُّ شيءٍ يمكن أن يحدث، سألتُ: «مَن هناك؟»، فلم يردَّ أحد، عاودتُ الصياح، صحتُ ثلاث مرَّاتٍ تقريبًا، ولكن لا شيء، عند ذاك رأيتُ أحدهم بين نباتات السرخس، لمحتُ خيالًا مختبئًا، تأهَّبْتُ للدفاع عن نفسي، أمرتُه بالخروج، انطلق راکضًا، فأطلقتُ النار في الهواء لمجرَّد أن أخيفه، لا بنية القتل، وكيف أعرف أنَّها ماریسول! ليس لديها دافعٌ واحدٌ يجعلها تذهب إلى الحديقة في ذلك الوقت، إذ قاربتُ الحادية عشرة ليلاً، لقد وقعتُ تلك الحادثة بسببها، فلماذا توارت عن الأنظار؟ ولماذا لم تردِّ؟ ولماذا هربتُ؟ ماذا تقولین؟ أتقولین إنَّ الرصاصة قد أصابت صدرها، ولم تصبها من الخلف؟ حسنًا، لا أذكر التفاصيل، كلُّ شيءٍ مُدوَّن في محضر الشرطة، من حسن الحظِّ أنَّها لم تتعرَّض لإصابة مميتة، تخيَّلي الفوضى التي كانت لتندلع لو أن... أنت! اسمع! أحضر لي كأسًا أخرى من الويسكي! - أمر النادل.

- تقول ماریسول إنَّك قد حدَّدتَ لها موعدًا في الحديقة، وزعمتَ بأنَّ لديك ما تتحدَّث إليها عنه بشأن ابنتها. - قاطعته سيلينا مُرتجلةً.

- كذبت. كما كذبت حين ادَّعت بأنني كنتُ أذهب لرؤيتها في بيتها، على نحو ما أخبرت الشرطة. لم تعجبني يومًا، فأنا لا أهدر وقتي مع الحقيرات على شاكلتها، لديَّ من النساء الفاتنات ما يكفي ويفيض عن حاجتي، فلماذا أهتم بتلك النحيفة الدميمة! لم يعجبني منها إلَّا شعرها، ولكنَّها قد حلقتَ رأسها كالجرباء. لقد كانت مجنونةً حقًّا.

- لماذا تتحدَّث عنها بصيغة الماضي، وكأنَّها قد ماتت؟

- وما أدراني إن كانت حيَّة أم ميِّتة! لا يهمني ذلك في شيء. لقد خرجت من المستشفى واختفت عن الأنظار، رحلت.
- إلى أين؟

- إلى الجحيم، أعتقد. ألم تقابلها في المكسيك؟
- كانت في طريقها إلى الشمال، أرادت أن تطلب اللجوء في الولايات المتحدة.

- آها! كما يفعل آلاف من التعساء غيرها. ولكنهم يُرحلون جميعًا.
- هل رُحلت ماريسول؟
- ما رأيك أنت يا حلوتي؟ أتحسببن الغرينغو^(١) قد استقبلوها بالأذرع المفتوحة؟

- هل رأيتهَا بعد ذلك؟ - ألحَّت سيلينا في السؤال.
- كلاً! ومن يدري أين هي الآن! لو رجعت إلى السلفادور لعرفت بذلك.

- وكيف تعرف؟
- لديّ صلاتي الخاصّة.
- إن لم تكن هنا، فربّما ذهبت إلى المكسيك. - اقترحت سيلينا.
- ليست هناك أيضًا.
- تبدو في غاية الثقة من كلامك.

- قلتُ لك لديّ صلاتي الخاصّة. ولكن لماذا نتحدّث عن تلك الساقطة؟ ما علاقتكِ بها؟ - سأل غوميس مُنذِرًا، وهو يشدّ على معصمها بأصابع من حديد.

١ - غرينغو: يُقصد بها الأميركان، وتنطوي الكلمة على قدرٍ من الاستخفاف

- لا شيء. ماريسول لا تهمني في شيء، أريد أن أعرف عنك أمورًا... ولكن، اترك معصمي! - أجابت.

- كوني في غاية الحذر معي، ولا تغضبيني! - توعدّها الرجل.
- أنت تؤلمني...

حدّق إليها كارلوس غوميس وقد تراءت عيناه حمراوين زجاجيتين بتأثير من الكحول. ظلّت سيلينا شاخصةً إليه طوال دقيقةٍ بدّت لها وكأنّها لا تنتهي، حتى أفلت معصمها وتراجع إلى الوراء ممسكًا بالكأس.
- ألا تريدن كأسًا أخرى من المارغاريتا؟ دعينا نرقص إذن...

أفلحت سيلينا في مغادرة الطاولة مُتعلّلةً بالذهاب إلى الحمام، فتركته وهو يهوّم برأسه، شبه غائبٍ عن الوعي. تسلّلت إلى خارج الحانة من دون أن يلمحها، ثم تبعها فرانك ولولا. التأم شمل ثلاثتهم في سيّارة الأجرة، وذهبوا لتناول العشاء بمطعمٍ فرنسيٍّ صغيرٍ في سونا روسا. أراد فرانك أن يدعوهم إلى مطعمٍ أنيق، حيث يُقدّم النيذ الفاخر وتُفرّش الطاولات بالمفارش البيضاء، لأنّه بدأ يعاني من كثرة الطعام المحليّ. اقترح على لولا أن تدعو زوجها أيضًا، فأخبرته بأنّها سوف تنعم بشيءٍ من المرح وحدها لمرّةٍ يتيمةٍ في هذه الحياة. استراحت في مقعدها، وطلبت كأس مناهاتن قبل أن تفتح القائمة. «لا أدري ما هذا، ولكنني رأيتُه في أحد الأفلام، ولطالما أردتُ أن أجربّه»، قالت. انضمت لولا بالروح والجسد إلى «مهمّة ثنائيّ الغرينغو»، كما أطلقت على فرانك وسيلينا. بل إنّها كوّنّت عدّة نظريّاتٍ بشأن مصير ماريسول المُحتمل. قالت لهما إنّها قد ذهبت إلى المكتبة، بينما هما برفقة الجدّة إدوييخيس في

تثالتشواپا، ووجدت على الإنترنت معلوماتٍ مُتعلّقةً بكارلوس غوميس والفضيحة التي أنهت مسيرته في جهاز الشرطة القوميّة المدنيّة، إذ اتّهم باغتصاب طفلةٍ في الحادية عشرة والتعدي عليها بوحشيّة. وعلى الرّغم من ذلك، فلقد تراجع الأبوان عن الاتّهام قبل الذهاب إلى المحكمة بالتّحديد، وانتهت القضية إلى لا شيء. في حين يلمّح أحد المقالات الصحافيّة إلى احتمال أن تكون الشرطة قد أحرست الأبوين بالمال تجنّباً لفضيحةٍ جديدة، فلديها ما يكفي من الفضائح. وإن رجّحت لولا أن يكون غوميس قد هدّد والدَي الفتاة.

- تملك ماريّسول الحقّ في الشعور بالخوف على أنيتا. - قالت مُعقّبة. إنّ ذلك الرجل سيئ الطباع، شيطان. ولكنّه قد ورث تلك الطباع، ومنّ شابه أباه...! أبوه رجل عسكريّ مُتقاعد، طاعنٌ في السنّ، ولكن الكلّ يعرف أنّه كان قائداً للجنود في إلموسوتيه. أتعرفان أنّهم قد أحرقوا الناس هناك وهم على قيد الحياة؟ حتى الأطفال، تصوّرا! لم يُضطرّ ذلك السيكوباتي إلى دفع الثمن عن تلك الجرائم قطّ، كما لم يدفع كارلوس غوميس الثمن عن جرائمه.

جاء الطعام فرنسيّاً بقدر ما أعلنت قائمة الطعام. في حين رأت لولا أنّ الصّحون هزيلة، فبنصف هذا الثمن يمكنهم أن يأكلوا إلى حدّ التّخمة في مكانٍ آخر، في الشاطئ على سبيل المثال، عندما يذهبون للتحدّث إلى شقيق ماريّسول. قرب منتصف الليل تركّتهما لولا في الفندق وقد سرّت في جسدها قارورة من البيرة وكأسان من المانهاتن وكأس من النبيذ وأخرى من الشامبانيا. ذهبت بسيّارة الأجرة الوردية الخاصّة بها وهي تدندن، بعدما تلّقت تعليماتٍ بأن تمرّ بهما في اليوم التالي لمقابلة شقيق ماريّسول على الشاطئ.

على مدى الأيام التي أمضيها معًا، أخذت الزمالة القائمة بين فرانك وسيلينا تميل إلى الحميمية رويدًا رويدًا. فهما يتلامسان، ويشربان من كوب واحد، ويجزّب كل منهما طعام الآخر، بينما يمسك فرانك بذراعها أو يدها. خلاصة القول إنّ التواطؤ الخفيّ القائم بينهما راح يشتدّ أكثر فأكثر، ذلك التواطؤ الخلق بـمن يعرفان أنّ ممارسة الحبّ شيء لا مفرّ منه. بدلًا من أن يعود كلاهما إلى حجرته، كما فعلا من دون حماسة في الليالي السابقة، ذهبا إلى الحديقة التي خلّت من الناس في تلك الساعة. كانت المظلات قد نُحيت جانبًا، وإن ظلّت كراسي الاستلقاء هناك، حيث تمدّد كلاهما جنبًا إلى جنب، بينما دار برأسيهما قليلًا كلٌّ من ترقّب الرّغبة والكحول الذي تناولا على العشاء. في تلك الليلة، ليلة الأربعاء، أفسح قيط النهار طريقًا للنسيم الفاتر الذي نثر في الهواء ذلك الأريج العذب، أريج الزنابق والنجيل الذي شُدّب حديثًا. انعكست صورة القمر على صفحة المسيح الساكنة. أمّا الأصوات وموسيقى الفندق فلقد سكّنت قبل وقتٍ طويل، وما عاد يكسر صمت الحديقة إلّا طنين الجداجد.

أحسّت سيلينا بنفسها وكأنّها تذوب على كرسيّ الاستلقاء، وقد تراخت أجفانها واسترخى جسدها ولانت عظامها حتى صارت وكأنّها من قطن. أحسّت بالعرق على ذراعيها والرطوبة بين فخذَيْها، وتشمّمت ذلك العطر المُتغلغل، عطر الأزهار الاستوائية. «لقد أفرطتُ في الشرب»، غمغمت وهي على أهبة الاستسلام للنعاس وقضاء الليل هناك، على مقربةٍ شديدة من فرانك، من دون أن يلمس أحدهما الآخر، وإن أحسّت بتلك الطاقة كالذبذبات، وظلّت مُترقّبة، يا لها من متعة! هكذا راحت تفكّر. أمّا فرانك فلقد تنبّهت حواسّه كلّها ومضى يراقب الإشارات ويحسب المسافة الشاسعة التي تفصل بينها وبينه، تلك الهوة التي تمتدّ لنصف مترٍ وتفصل بين الأريكتين.

منذ اللحظة التي التقى فيها كلاهما بمطار لوس أنجلوس لركوب الطائرة، حين رآها بالجينز الباهت وقميص فريدا كالو البشع وحقيبة غواتيمالا المشوّهة التي يعرفها بالفعل، تقبّل حقيقة أنّه قد وقع في حبّها بزرّة تنمّ عن التسليم. وهناك، في تلك الليلة الحافلة بالزنابق والجداجد، أدرك أنّه قد وقع في حبّها منذ التقاها بسان فرانسيسكو. لم يكفّ عن التفكير فيها منذ ذلك الصباح من شهر ديسمبر، عندما اقتحمت حياته المثاليّة وأوقعت به في مهمّة يائسة تبدو وكأنّها محاولة لصدّ الأمواج.

كانت أنيتا دياس هي الطفلة الأولى، ولكنّه ما إن تعلّم المبادئ الأساسيّة لقوانين الهجرة حتى تولّى الدفاع عن أطفال آخرين من دون أن يذكر كلمة واحدة عن الأمر في المكتب، لأنّه لا يملك أوقات فراغ ولا إجازات، كما حدّره رئيسه في العمل بصريح العبارة. وهكذا بات يختلس من وقت الشركة. وصار مُجرّد محام آخر في قائمة من آلاف المحامين المُتطوّعين الذين يدافعون عن الأطفال القُصّر على الحدود. رافق فرانك واحدًا من أولئك الأطفال إلى المحكمة ومثل أمام القاضي إلى جواره، فحصل على الحقّ في اللجوء بأسرع ممّا توقّع (لأنّ القاضي الذي نظر في القضية كان من القدامى السابقين على ذلك التيّار الجديد من القضاة الذين نصّبتهم الحكومة، وعُرف عنهم التشدّد والمحافظة ومعاداة المهاجرين). عند ذاك أحسّ براحةٍ جارفةٍ إلى الحدّ الذي جعل صوته يتهدّج، ثم انتهت به الحال وهو يبّل وجهه بالماء البارد في الحَمّام من فرط التأثّر. ومن هناك اتّصل بأُمّه التي هنّأته وقد تأثّرت بقدر ما تأثّر هو أيضًا، ووعدته بأن ترسل إليه مزيدًا من كرات اللحم قريبًا.

عندما تعرّف بها، حكّت له سيلينا أنّها تدرس القانون عبر الإنترنت، ولكنّها سوف تعود إلى الجامعة في أقرب وقتٍ ممكنٍ

للحصول على الشهادة لأنها تريد أن تعمل محامية هجرة. في البدء لم يستحسن الفكرة، فكلّ هذه الدراسة الشاقة والجهود المبذولة تنتهي بالتفرغ لفرع مغمورٍ من فروع القانون. ولكنه بدّل رأيه. في تلك اللحظة صار يهتمّ بحماية أنيتا وباقي الأطفال أكثر كثيرًا ممّا يهتمّ بمكتب الطابق العلويّ ذي النافذتين الذي أفردته له الشركة.

- سيلينا، أظنك تعرفين أنني أحبك.. - قال مُتلعثمًا، أخيرًا.

أمضى ستة أسابيع وهو يخطّط لذلك الاعتراف حتى يأتي مُقنعًا وشاعريًا قدر الإمكان. وإذا به في تلك اللحظة ينسى كلّ ما تدرب عليه، فانتَهت به الحال وهو يتلعثم كالمرهق.

- ليس هذا حبًّا يا فرانك، بل إنها الرغبة مُضافَةً إليها الفرصة. -
ابتسمت مُمدّدةً على الكرسي.

- من جانبك، ربّما. أمّا من جانبي، فهو حبّ.

- هل أنت مُتأكد؟

- أجل. وأعتقد بأنك تشعرين نحوي بأكثر من مُجرّد الصداقة، ما لم أكن مُصابًا بالهلوسة من فرط ما أحبيّتك.. - أجاب.

- فرانك، لا أستطيع أن أتحدّث عن الحبّ لأنني لم أعرف سوى ذلك الحبّ الذي طالما شاركتُ فيه ميلوش. لا أتذكّر حياتي من دونه.

- أتمنّين لو كان في موقعي الليلة؟

- كلاً.

- إذن، فدعينا نترك للرغبة فرصة، وسنرى ماذا يحدث.

وقد فعلاً، فكانت ليلة لم ينسها فرانك.

كانت سيلينا شغوفاً، مرهفة الحس، ولكنّ الجنس عندها شيء نابغ من القلب، كأغلب الأشياء في حياتها. بدأت تجربتها الجنسيّة مع ميلوش دوديك، وهي لا تزال عذراء، ثم تطوّرت معه أيضاً. وعلى مدى خطوبتها التي استمرّت أمداً طويلاً، خاضت سيلينا تجربتين أخريين في فترات الافتراق المؤقتة. وإن لم تترك أيهما في نفسها أثراً. لم يعقّد ميلوش الأمور في الفراش، فهو يعرف تحديداً ما الذي يجب عليه عمله من أجل إشباعها، الشيء الذي أولاه أهميّة كبرى، واعتبره الأساس الذي تقوم عليه العلاقة الناجحة. عرف جسد سيلينا أفضل ممّا عرف جسده، ووثق بفحولته والانجذاب المتبادل بينهما. وثق بأنّها لا تشعر بنقص من ذلك الجانب، وإلاّ كانت لتخبره. ولقد أصاب في ذلك. لأنّ سيلينا تذوق معه اللذة بعفويّة غامرة، حتى شقّ عليها أن تتخيّل احتمال أن يكون الجنس بطريقة أخرى، على نحو ما أخبرتها أختها ليلي.

وجد فرانك نفسه مع شابة في مقتبل العمر، لها ذائقة بسيطة، متأهبة لإرضائه، تهجر نفسها للذة بتلك البراءة التي أورتته شعوراً بالحيرة، ولا تطلب لنفسها شيئاً. كانت أوّل خطوة في المخطّط المعهود أن يخلع ثياب الرفيقة التي يحين دورها، إمّا ببطء وإمّا بسرعة، حسب ما تقتضيه الحال، بينما هو يلاطفها بتشكيلة من المداعبات الخبيرة. ولكن سيلينا لم تمهله الوقت الكافي حتى ليقترّب منها، فإذا بها تخلع الثياب بثلاث حركات، من دون أدنى حرج من جانبها، ومن دون أن تبذل أيّ جهد لإغرائه أو إيهامه بأنّه قد أغواها. تراءى جسدها العاري كما يبدو في الثياب: بأردافها العريضة، وصدرها الصغير، وساقَيْها القويّتين اللتين يكشف عنهما الثوب الصيفي، وبكلّ منحنيات الجسد ومنعطفاته، وبغياب العضلات والألياف والعظام البارزة إلى حدّ يدعو إلى القلق. «إن لم تعتنِ بنفسها صارت مثل حوريات الفنّان روبنز الممثلات»،

مضى فرانك يفكر في جذلٍ وضحكٍ مفتونًا. قبّلت ثغره، ودفعته إلى فراش الفندق الواسع.

لم يتعوّد فرانك أن يتلقّى لفتات الحنان في اللقاء الأول، أو فيما تلاه من اللقاءات، الأمر الذي جرّده من أسلحته تمامًا. وحتى سيلينا لم تألف المقدمات الأبدية وألعاب الأكروبات والكلام المثير. جاءت أسئلة فرانك بشأن ما يروّقها وكأنّها استبيانٌ في عيادة طبيب النساء، فإذا بها تستغرق في نوبةٍ من الضحك بدلًا من أن تحسّ بالإثارة. من حسن الحظّ أنّه قد تخلّى بالرصانة، فلم يأخذ الأمر على محمل الإساءة. وما كاد يعرف أنّ سيلينا لا تقدّر ذلك التكتيك، الذي أفاده في الماضي كثيرًا، حتى تخلّى عنه. ومُتفاجئًا، خلص إلى أنّ معارفه المذهلة وخبرته الواسعة قد آتت بعكس النتيجة المرجوة مع سيلينا. أدرك أنّه ليس في حاجةٍ إلى إبهارها، بل إنّهُ يحتاج إلى تسليم نفسه إليها. ما كاد يدرك ذلك حتى صار الحبّ بينهما ممكنًا. لم تذهب سيلينا إلى حجرة فرانك للمشاركة في «سيرك من البطولات الإيروتيكيّة»، بل ذهبت لمطارحة الحبّ. وهكذا فعلا ليلتها، وفي الليلتين الأخريّين اللتين تقاسمهما فرانك وسيلينا في تلك المدينة. ببساطة، أحبّ كلّ منهما الآخر.

صبيحة يوم الخميس حضّرت لولا إلى الفندق منتعشةً، فلم يبدُ عليها أثر بادٍ للخمار. في البدء مضّت بهما إلى السفارة الأميركيّة، حيث ارتبط فرانك بموعدٍ مع فيل دورتي، المسؤول رفيع الشأن الذي تعرّف به في المدرسة الثانويّة، ثم أصبح من أعزّ أصدقائه. وحين تزوّج فيل، طلب من فرانك أن يكون إشبينه في العرس. لا يمكن أن يمرّ بالمدينة من دون أن يلقي عليه التحيّة. من الخارج، تراءى البناء وكأنّه منطقة عسكريّة مُطوّقة بسورٍ عصيّ على الاختراق من الجوانب الأربعة، وإن

زُيِّنَت الجدران بالرسوم المبهجة حتى تصفي مظهرًا أكثر لطفًا. لم يُصطَرَّ إلى خوض إجراءات الأمن المُشدَّدة، لأنَّ فيل كان ينتظرهما عند أحد الأبواب الخلفيّة لمعانقة صديقه ومرافقتهما إلى الداخل. قرَّرت لولا أن تدور حول المنطقة بضع مرَّات، ثم تمرَّ بهما عندما تتلقَّى منهما اتِّصالًا، إذ لا يُسمَح لها بصفِّ السيَّارة في محيط المكان الذي تراقبه دوريات الشرطة. أمضيا ساعةً طيِّبةً في أحد صالونات كبار الزوار بالسفارة حيث شربا عصير الأناناس الطازج وتحدَّث الصديقان بشأن مُستجدَّات الحياة والسياسة في الولايات المتَّحدة ورئيس السلفادور الجديد - ذلك الشابَّ الشعبويّ الذي وقف في وجه الأميركيين - والمشكلة التي لا مفرَّ منها، مشكلة الهجرة الجماعيَّة من السلفادور.

- يهاجر الناس مدفوعين بغياب الفرص وانعدام الأمن فوق كلِّ شيء. لقد اكتسب البلد سمعةً سيئةً لأنَّه واحدٌ من أشدَّ البلدان عنفًا في العالم بأسره. لقد تعذَّرت السيطرة على العصابات والمهربين وتُجار المخدرات. - قال فيل دورتي.

- لهذا السَّبب جئنا إلى هنا يا فيل. لقد وُكِّلْتُ للدفاع عن طفلةٍ صغيرةٍ وصلت مع أمِّها إلى أريزونا في شهر أكتوبر حتى تطلب اللجوء. - قال فرانك، وشرع يلخِّص له القضية والتحريات التي يجريانها في سبيل العثور على الأمِّ، وإجراءات لمَّ الشمل.

- لماذا يهتمُّكما أمرها إلى هذا الحدِّ؟ هناك آلاف القُصَّر في الوضع نفسه. - سأل الآخر.

- لقد تولَّيتُ أمر أنيتا منذ انْتزَعَتْ من بين يدي أمِّها ووصلت إلى الملجأ. كما تولَّيتُ حالات أطفال كثيرين، أحبُّهم جميعًا. ولكني أمضيْتُ وقتًا أطول معها، فأسرَّت قلبي تمامًا. - أجابت سيلينا.

- لأنّها عمياء؟

- لهذا السّبب أيضًا، ولكن حتى لو لم تكن عمياء...

- هل رُحِلت الأمّ؟

- لا نعرف. ليست في المخيمّ الواقع على حدود المكسيك.

- ماذا يحدث إن لم تعثرا عليها؟

- بعد فترةٍ يمكن اعتبار أنيتا قاصرًا مهجورة، وفي هذه الحالة تُمنَح تأشيرةٌ خاصّة. ولكن ذلك الإجراء يستغرق وقتًا طويلاً كما تعرف.

- يمكنكما الاعتماد عليّ، ما دمتم قادرًا على المساعدة في شيء.. - عرض عليهما فيل.

لم تتكلّم سيلينا إلّا قليلًا، ولكنّها تركت في نفس فيل انطباعًا رائعًا إلى حدّ جعله ينتحي بفرانك جانبًا في الطريق إلى الخارج ويهمس إليه في سمعه قائلاً إنّ تلك المرأة كنز.

- أعرف.. - أجاب فرانك.

- لا تسمح لها بأن تنسلّ من بين يديك يا رجل. تزوّجها.

مضت بهما لولا إلى شاطئ إلتونكو، حيث يعمل شقيق ماريسول مُدرّبًا لرياضة ركوب الأمواج. ومع أنّ الشاطئ يقع على بعد ساعة واحدة، فلقد استغرقت الرحلة ضعف ذلك الوقت تقريبًا بسبب الازدحام. ولكن حتى القبط قد نسوا أمره حالما وصلوا إلى ذلك الشاطئ مترامي الأطراف، المفروش بالرمال الرماديّة، المُطلّ على البحر ذي الأمواج العالية. ومع أنّ الأسبوع لا يزال في أواسطه، فلقد امتلأ الشاطئ بالناس - الذين كان نصفهم من السائحين - ووجد المارّة صعوبةً في شقّ طريقهم

وسط منصّات بيع الطعام والحانات ومتاجر الرياضة والمشغولات اليدويّة. أوضحت لهما لولا أنّ فرق ركوب الأمواج الدوليّة تتدرّب هناك استعدادًا للألعاب الأولمبيّة.

وجدا خينارو أندراي ينتظرهما في أحد المطاعم الريفية وهو يشرب البيرة المثلّجة ويتناول الجمبري بصلصة الثوم والكزبرة. كان رجلًا في مقتبل العمر، عريض المنكبين، برونزيّ البشرة، مفتول العضلات، باهت الشعر، له ابتسامة تشفّ عن أسنان غير متناسقة وجسد تغطّي الوشوم نصفه. كان يعرف بأمر التحرش الذي عانت منه ماريسول على يدي كارلوس غوميس، بل إنّه قد ذهب في إحدى المرّات حتى يتحدّث إليه ويطلبه بأن يترك أخته في سلام، فما كان من الرجل إلّا أن توّعده هو أيضًا. أخبرهما بأنّ كارلوس رجلٌ خطير، غارقٌ حتى أذنيه في الفساد والأنشطة المشبوهة، كما كان أبوه من قبل. لم يعرف خينارو شيئًا عن ماريسول منذ شهور. رآها آخر ما رآها وهي في فترة النقاهة بعد إصابتها بالرصاص. عقب إخلاء سبيلها من المستشفى، اختبأت ماريسول في بيت خينارو طوال شهرين. ولكنّها ما كادت تستردّ عافيتها بالقدر الكافي حتى ذهبت لتأخذ أيتها وانطلقت في رحلتها إلى الشمال.

أخبرهما بما يعرفه عن كارلوس غوميس الذي سُرح من الخدمة في الشرطة ثم حصل على وظيفة لدى شركة أمنٍ خاصّة، كغيرها من الشركات الكثيرة التي تنتشر في البلد، وعمل هناك عامين حتى خضعت الشركة لتحريّات جنائيّة، فثبت أنّها مُجرّد واجهة للإتجار بالبشر والسلاح. بعد ذلك حصل على عملٍ في شركةٍ أخرى مشابهة تقدّم خدماتها في المجمع السكّني حيث عملت ماريسول.

- ألم تُطلّب منه صحيفة السوابق؟ - سأله فرانك.

- يتفاهم العملاء والشركة مباشرة، فلا يُطلب من كل حارس أن يقدم صحيفة السوابق.

- خينارو، ماذا تعني بالإتجار بالبشر؟

- يدفع المهاجرون للمهربيين مبالغ تصل إلى عشرة آلاف دولار، وأحياناً أكثر، مقابل الوصول إلى الولايات المتحدة بصورة غير شرعية. بعض المهربيين يتحملون المسؤولية، وإن لم يخل الأمر من العصابات التي تبتز الناس للحصول على مزيد من المال أو تتخلى عنهم في الطريق. وفي حال لم يدفع المهاجرون أو أقرباؤهم، يختفي كثير منهم عن الأنظار. أمّا ماريسول، فلم يكن في مقدورها أن تدفع ذلك المبلغ.

- استطاعت أن تعبر غواتيمالا والمكسيك من دون مساعدة. - قالت سيلينا.

- تتعرض النساء لأخطار شديدة، الاغتصاب والاختطاف والقتل. زد على ذلك أن التخلص منهن أمرٌ يسير، ولا أحد يحقق فيما يحدث. لقد حذرتُ شقيقتي من ذلك.

- كانت تنوي التوجه إلى أحد المعابر لطلب اللجوء، وإن عترض سبيلها قبل أن تطأ أرض الولايات المتحدة بقدميها. إنه الإجراء الذي يُتخذ مع الجميع الآن. ولذا عبرت الحدود عن طريق الصحراء بصورة غير مشروعة. - أوضحت له سيلينا.

- إنه لضرب من الجنون أن تفعل ذلك وهي برفقة الصغيرة. لا أدري إن كنت سأرى شقيقتي أو ابنتها مرةً أخرى.

- أليدك فكرة عن موقع شقيقتك في الوقت الحالي؟

- لم تتصل بي.

- من الغريب ألا تحاول ماريסول التحقق من مصير ابنتها. - قالت له سيلينا.

- أتعرف السَّبب الذي جعل غوميس يطلق عليها النار؟ - سأله فرانك.

- لم تكن حادثة. لقد تصادف لشقيقتي أن اكتشفت تورط غوميس مع بعض رجال العسكرية في بيع سلاح الجيش لإحدى عصابات مارا. حتى ذلك لم يخلُ من الفساد! ولهذا السَّبب حرص على أن تخرس ماريسول إلى الأبد.

أما وقد ذهبوا إلى هناك، فلقد أصرَّ خينارو على أن ينزلوا إلى البحر، وترك ثوب سباحة لفرانك الذي مارس رياضة ركوب الأمواج في شواطئ كثيرة ولكنه قلَّمَا فعل في شاطئ كهذا. كما لم يسبق له يومًا أن ركب الأمواج مع مُدرِّب جريء مثل خينارو، الذي يتحدَّى الأمواج منذ الطفولة. فضَلَّت لولا وسيلينا البقاء في الظلِّ وتناول مُثلَّجات جوز الهند.

- لم تعثر مُتطوِّعات مشروع ماغنوليا على ماريسول في مخيم اللاجئين على حدود المكسيك. ينتظر الناس هناك في أوضاع فوضويَّة، بينما تفعل عصابات مارا ما يحلو لها وتمتنع الشرطة عن التدخُّل. ينتظر الآلاف والآلاف فرصة لطلب اللجوء. - قالت سيلينا للولا.

- لماذا ترين أنَّ ماريسول قد تكون في تلك المخيِّمات؟

- لأنه الشيء المعتاد. يُساق المحتجزون إلى الجانب الآخر من الحدود بغضِّ النظر عن المكان الذي يأتون منه. لو رُحِّلَت ماريسول بموجب الإجراءات القانونيَّة لورد اسمها في السجلِّ، ولكنِّي لم أتمكن من التحقق من ذلك. لا يوفرُّ لنا ضُبَّاط الهجرة أيَّ شكلٍ من أشكال المعلومات.

- كيف لم يخطر لي ذلك من قبل ! - قالت لولا مُتَعَجِّبَة - لو رُحِّلَت ماري سول إلى هنا، فلا بدَّ أنَّها قد وصلت بالطائرة، ولا بدَّ أنَّ دخولها إلى البلد مُسَجَّلٌ في قوائم الوافدين. زوجي يعمل بالمطار. ويمكنه الحصول على تلك المعلومة من أجلنا. - أردفت، ثم اتَّصلت به عَبْرَ الجَوَّال .

في السابعة مساءً، بعد أن تعشَّى كلُّ منهم سمكةً نهاش كاملةً مع اليوكا المقلَّية والسلطة، عادوا أدراجهم إلى العاصمة. وفي العاشرة ليلاً، أبلغهم زوج لولا بأنَّ اسم ماري سول أندرا دي دي دياس لم يرد بين أسماء المُرحَّلين الذين وفدوا إلى البلد خلال الأشهر الستة الأخيرة.

آنيٲا

ٲوكسان؁ مارس 2020

ؒابت ميس سيلينا بضعة أيامٍ لآنها ذهبت إلى السلفادور. ثم رجعت بصورٍ لماما؁ أرسلتها تيتا إدو؁ وصورٍ أخرى التقطتها ميس سيلينا للجدّة والكلاب وحتى الطيور؁ كلهم بخير. وصفت لي الصور؁ والآن أحملها في حقيبتني حتى يعرف الكل أن لي عائلة؁ ولا يمكن لأحد أن يتبناني. سافرت ميس سيلينا مع فرانك بالطائرة. كانت الرحلة التي قطعناها مع ماما من هناك طويلة جدًا. ولكنّ المسافر بالطائرة يستغرق مساءً واحدًا؁ ويصل بسرعةٍ جدًا؁ وكأنّه مسافرٌ إلى أسابار مع الملائكة؁ فما هي إلّا غمضة عين حتى نصل إلى هناك. لا بدّ أن السفر بالطائرة شيءٌ رائع.

لقد حزنت تيتا إدو لأننا لم نتحدّث إليها. ولكنّها قد دوّنت رقم ميس سيلينا؁ ويمكنني الاتصال بها كلّ أسبوع. تعرف تيتا إدو كيف

تتصل، يجب عليها أن تشتري بطاقة للجوال، هكذا يمكنها الاتصال. سوف ترتب ميس سيلينا الأمر. وأنا أيضًا سأحصل على جوال ذات يوم. ولكنني أحذرك يا كلاوديا، لو بكينا في أثناء الاتصال بتيتا إدو لغرنا سكينًا في قلبها. ينبغي لنا التعهد بعدم الصراخ، وإلا ذهبنا إلى ميس سيلينا وقلنا لها إن الأفضل ألا نتصل.

فرانك مشغول جدًا بالأوراق التي يجب عليه أن يرتبها حتى نرى ماما. لهذا لا يحضر. ولكنني أستطيع التحدث إليه عبر برنامج فيستايم على الأقل. أعتقد بأنني قد فهمت معظم كلامه عن القاضي. ربما كانت قاضية. الأفضل أن تكون قاضية. سوف يوضح لها فرانك أنني لا أتقن الإنجليزية، ومن المؤكد أن يُسمح لي بالتحدث باللغة الإسبانية. لديهم «مترجمون»، هكذا يُدعى الأشخاص الذين يفكرون بسرعة بكلتا اللغتين، الإنجليزية والإسبانية. يجب علينا ألا نصاب بنوبة من الصراخ. البكاء مسموح، ولكن من دون صخب. أعرف ما الذي يجب علي أن أقوله، الحقيقة وحسب، ما فعل كارلوس بماما، والمستشفى، والرحلة كاملة، والمسافة التي قطعناها سيرًا على الأقدام، تلك المسافة الطويلة المتعبة جدًا، والطرق الحافلة بالناس، وسطح القطار الذي أخافني أكثر من باقي الأشياء لأنه يهتز بقوة، ومن سقط عن سطح القطار دهسته العجلات، فإما يلقي مصرعه فورًا وإما يفقد ساقه. يعرف فرانك أننا قد اضطررنا إلى الرحيل بسبب كارلوس. وأخبرني بضرورة ألا أدعوه «العم كارلوس»، لأن «العم» تعني وجود رابطة مودة، ولكنه شرير، أذانا كثيرًا. لا يعرف القاضي أو القاضية شيئًا عن لقب «العم»، لأنه لا يُستخدم هنا، بل يُدعى الناس بلقب «مستر» أو «ميس».

لم أتمكن من رؤية ملاكي منذ أن جيء بنا إلى دار التبني هذه، لأن الصخب شديد والتلفزيون لا يُطفأ أبدًا. تتسلل كل هذه الفوضى

إلى الرأس. ولكنَّ الملاك هنا، لأنَّ عملها يقتضي أن ترعاني. حالما أراها سأطلب منها أن تُخرجنا من هنا وتأخذنا إلى مكانٍ آخر، حتى نبقى في انتظار ماما هناك. كلاً يا كلاوديا، كيف يخطر لك أن تتَّصل بالملاك عَبْر التليفون. هل رأيت في الكنيسة ملاكًا يحمل جِوَّالًا. حسنًا، الملائكة لا تحمل هواتف جِوَّالة. ربَّما استطعنا أن نرسل إليها رسالة، ولكن خطِّي لا يُفهم. كان خطِّي هو الأَجْمَل في الفصل، والآن لا أستطيع حتى الكتابة أو القراءة. هكذا هي الحياة.

قالت لي ميس سيلينا ألا أقلق، لأنَّ «دار التبني» مُجرَّد اسم، لا يعني أنَّ أحدهم سوف يتبنَّانا. لدينا عائلة، ولسنا وحدنا. كما يُطلَق على هذا المكان «البيت البديل»، أو شيء كهذا. ولكن الكلَّ يسمُّونه «دار رعاية» «foster home»، فهكذا يُسمَّى بالإنجليزية. لا يهتمني الاسم، لأنَّه لا يعجبني بأيِّ حالٍ من الأحوال. إنَّ هذا المكان يشبه بيت العائلة، لأنَّ فيه بابا وماما وأشقَّاء. ولكنِّي لا أريد ماما أخرى، فلديَّ ماما، تُدعى ماريسول، وبابا فارق الحياة، وأنا لا أريد أن يكون لي أشقَّاء. قلَّتها مرَّات كثيرة، ولكن يبدو أنَّه يجب عليَّ ألا أكرِّرها أكثر ممَّا فعلت، وإلا غضب الناس هنا وألقوا بنا إلى الشارع.

يبدو أنَّ الشيء الصحيح أن أنادي السيِّدة التي تدير دار التبني «ماما»، ولكنِّي قلْتُ لها إنَّني لن أنادي أحدًا بذلك اللقب سوى أُمِّي أنا. يمكنني أن أناديها «سنيوره ماريا»، وإن لم يعجبها ذلك. كما لم يعجبها حين قلْتُ لها إنَّها لا تستطيع أن تتبنَّاني. أعتقد بأنَّها قد غضبت قليلاً، لأنَّني سمعتها تقول لميس سيلينا إنَّني غبيَّة وطائشة. ليس هذا صحيحًا. لم يسبق أن وصفني أحدٌ بالغباء أو الطيش في حياتي. يمكنهم سؤال تيتا إدو أو المُعلِّمات في مدرستي السابقة. على الأقلَّ، فإنَّ تلك السنيوره ماريا تتكلَّم الإسبانيَّة. أعتقد بأنَّها مكسيكيَّة، لأنَّها تقول عن

الأطفال «تشاماكوس»، كما سمعتهُم يقولون في المكسيك. أذكّر حين مررنا بالمكسيك؟ الشيء الإيجابي الوحيد في هذا المكان أننا لن نُضطرّ إلى تحمّل «دودة الكاكا» أو «قِيء السحليّة». أمّا باقي الأطفال هنا فأصغر عمراً، ولا يزعجوننا.

الآن عرفتُ كيف أرسلُ إلى ملاكي رسالة. إنّه شيء سهل. أحتاج إلى فجوة في شجرة أو في الأرض، أو حتى حجر. ثم أضع الرسالة داخل الفجوة، فتبقى هناك إلى أن تلتقطها الملاك. إنّها الطريقة نفسها للاتّصال بالجنّيات والأقزام وسائر الكائنات السحرية في قلب الغابة وتحت الماء. الأفضل أن أترك الرسالة مكتوبةً في فجوة، ولكنّ الملاك تفهم حتى الكلام المنطوق. سأقول لها إنني قد تعبْتُ كثيراً من الانتظار هنا في الشمال. ولكنّنا لا نستطيع العودة إلى السلفادور من دون ماما، تحت أيّ ظرف، كما أنّ مسألة دور التبنّي ليست بالفكرة جيّدة. وسوف أسألها إن كان في وسعها أن تبحث لنا عن مكانٍ آخر حتى نعيش فيه؟ لو ذهبنا للعيش مع ميس سيلينا في بيتها لكان ذلك رائعاً. أعرف أنّها هي أيضاً تتمنّى ذلك، كما أخبرتني بنفسها، ولكنّه شيء ممنوع. يجب عليّ أن أفكر جيّداً في محتوى رسالتي، لا يمكن أن أطلب الكثير. الأهمّ أن تعود ماما.

الليلة نذهب إلى حفلٍ في أسابار، ولكن ليس من اللاّثق أن أسلّم ملاكي الرسالة هناك، سوف أفعل ذلك في وقتٍ لاحق. الكلّ ذاهبٌ إلى الحفل بالثياب التنكّرية، جميع الحيوانات والكائنات السحرية والمعارف، لأنّ ذلك الحفل أشبه بالمهرجان. سوف يعيرنا أحدهم ثياباً تنكّرية، فترتدين أنتِ ثياب الفراشة حتى يمكنكِ التحليق، وأرتدي أنا ثياب طائر الطنّان حتى أحلق معك. كنتُ أريد ثياب جنّية البحر حتى

أصبح مع الدلافين والفقمات، ولكن يجب عليّ أن أرافقك. انتبهي يا كلاوديا، إنّه أوّل حفلٍ نحضره، ويجب أن يحبّتنا الحضور حتى يدعونا مرّةً أخرى. وتذكّري أن تلقّي التحيّة وتعبّري عن الامتنان.

يجب عليّ أن أغسل ديدي، وإلاّ ما استطعنا أن نأخذها إلى أيّ مكان، وما سُمح لها بالدخول إلى أسابار. سوف أغمسها في حوض الفناء كيلا ألوث الحمّام. لقد حصلتُ على قليلٍ من الشامبو في كوب غسيل الأسنان. سوف أجعلها تبدو كالجديدة بذلك الشامبو، لأنّه أفضل من الصابون. ثم أجفّفها في الشمس. هكذا تغسل تيتا إدو السترات، ويمكن أن أغسل ديدي بالطريقة نفسها، لأنّها من قماش. أمّا إن لم يسعفها الوقت لكي تجفّ، فسوف نأخذها معنا وهي لا تزال مبلّلة.

بعد أن ينام الجميع، ويُطفأ التلفزيون والمصابيح، سوف أوقظك حتى نخرج إلى الفناء في صمت. إيّاك وأن تحدثي صوتًا! أفهمتِ يا كلاوديا؟ تنتظرنا ملاكي الحارسة، ولكنّها ربما كانت متواريةً عن الأنظار. لا يهمّ. ما دامت قد وعدتنا بأن تنتظرنا هناك، فهي سوف تفي بوعدّها. الملائكة لا تستطيع أن تكذب، لأنّ الكذب ممنوعٌ منعًا باتًا. لو كذبت الملائكة طُرِدَت من العمل، وأصبحت عاطلة. وأن يصبح الملاك عاطلاً عن العمل أمرٌ سيّئٌ جدًّا.

لا بدّ أن تنسلّل بين الجدار والشجيرات، وأن نغمض عيوننا. لا يمكن أن تفتحي عينيكِ يا كلاوديا، وإلاّ خفتِ وضِيعتِ كلّ شيء. إنّها رحلةٌ في غاية الرهافة، ولا بدّ من الالتزام بالتعليمات، مثلما كنّا نفعل كلّما خرجنا بالحافلة مع تيتا إدو، التي تكرّر علينا تعليماتها مرارًا. ومنّ خالف الأوامر، كان عقابه قرصةً بالأصابع. سوف أحكي لك عن أسابار: في تلك النجمة أستطيع أن أرى كلّ شيءٍ بمنتهى الوضوح، كما

كنتُ أرى قبل الحادثة. قلتُ لكِ إنَّنا، في ذلك العالم، أنا وأنتِ أميرتان وماما ملكةٌ وتيتا إدو هي الجنيَّة الأم. ولكنِّي قد أخطأت. يبدو لي أنَّني لم أفهم ملاكي جيِّدًا، لأنَّ الكلَّ في أسابار سواء، البشر والكائنات السحريَّة والحيوانات. لا بدَّ من تحيَّة الجميع بانحناءة احترام، كما علَّمتُك. سوف أحكي لكِ عن مناظر النخيل والشواطئ في ذلك البلد، الألوان الزاهية، ومدينة البلَّور، وشلَّالات الأورتشاتا والكركديه، وأقواس قزح الظاهرة في السماء (التي لا تبدو باللون الأزرق، بل إنَّها تبدو ورديةً حينًا وصفراء حينًا)، والمسابع الممتلئة بالمُثلَّجات التي يُسمَح لنا بأن نأكل منها مجَّانًا (لأنَّ كلَّ شيءٍ مجَّانيٍّ في ذلك العالم)، والحيوانات الوديدة بكلِّ أنواعها (لأنَّها لا تجوع أبدًا ولا يزعجها أحد)، والموسيقى والسيرك الهائل حيث يمكننا ركوب الأفيال والتخليق بلعبة التراييز. لا أحد يخاف، فلو سقط أحدهم من التراييز لظلَّ طافيًا في الهواء كالمنطاد.

أما ديدي، فلن ينتزعها من بين أيدينا أحدٌ يا كلاوديا. لقد غضبتَ سنيوره ماريا من دون سبب، فلا ذنب لأحدٍ لو ابتلَّ الفراش. هكذا قالت ميس سيلينا هناك، في الملجأ، الأمر الذي يسري على دار التبني أيضًا. لا تملك سنيوره ماريا الحقَّ في أن تحرمننا من ديدي، ولقد أوضحْتُ لها ذلك تمامًا، لأنَّه ليس عدلًا. وقلتُ لها إنَّني سوف أتصل بفرائك، المحامي الخاصِّ بي، ما لم تردَّها لي. كادت تضربني، همَّت بأن تضربني، ولكنَّها ندمت، وأوصدت عليَّ باب خزانة الثياب بدلًا من ذلك. لم تحبسني إلَّا وقتًا قصيرًا. لم أشعر بالخوف. خزانة الثياب ممتلئةٌ بالأشياء المبعثرة في فوضى، وتفوح منها رائحة كريهة، لأنَّ فيها أحذيةً مُقرَّزةً أيضًا. لم يهمني أي شيء بخلاف الرائحة الكريهة ونقص الهواء. كلاوديا، تعرفين أنَّ العتمة لا تخيفني، لأنَّني لا أرى بعيني،

ولكنني انزعجتُ لأنها لم تسلّمني ديدي. طلبتُ منها أن تعاقبنا معًا في المرّة القادمة. الأمر الذي لم يرقّ لسنوره ماريا إطلاقًا، وقالت لي إنني أسخر منها.

تحدّثتُ ميس سيلينا إلى سنوره ماريا بشأن الخزانة، فسمعتُ كلَّ شيءٍ على الرّغم من الباب المغلّق، ومع أنّهما حاولتا خفض صوتهما. قالت سنوره ماريا إنّها قد أمضتُ أعوامًا طويلاً في تلك المهنة، ولم يسبق أن صادفتها طفلةٌ وقحةٌ مثلي. كما قالت إنني أعاني مشكلاتٍ عقليّةٍ إلى جانب العمى، وإنني لستُ طبيعِيّة. أجابتها ميس سيلينا بأنّه لا يوجد شيءٌ واحدٌ طبيعيٌّ في حياتي. وكانت على حقّ. بعد ذلك طلبتُ منّي ميس سيلينا أن أبذل جهدًا حتى أظهر الاحترام لسنوره ماريا، فلديها عملٌ كثيرٌ مع الأطفال الذين ترعاهم. فضلًا عن الفيروس الذي انتشر في الهواء. كما أنّها ليس لها من يساعدها، ولا يمكن إرسال الصغار إلى روضة الأطفال أو المدرسة، أو حتى المنتزه، لأنّه مُغلّق. لهذا تغضب سنوره ماريا، ولكنّها ليست شريرة. هكذا قالت ميس سيلينا، التي لا تعرفها.

كما سمعتُ أنّهم سوف يأخذونني إلى طبّية نفس. أعرف ما الذي يعنيه ذلك، لأنني قد ذهبتُ إلى طبّية نفس حين تعرّضنا للحادثة. إنّها كالمُعَلِّمة وليست كالأطباء، لأنّها لا تفحصني ولا تعطيني الحقن. سوف أذهب مع ميس سيلينا، ويمكنني أن أصطحب ديدي. وأنّ أيضًا ذاهبةٌ معنا يا كلاوديا. انسي أمر البكاء تمامًا. لا بدّ من التحلّي بالهدوء. لسنا تائهتَيْن. الريح تعرف اسمي، واسمكِ أيضًا. كلّهم يعرفون مكاننا. أنا هنا معك، أعرف مكانك، وتعرفين مكاني. هل رأيت؟ يجب علينا ألاّ نخاف. تستطيع ماما أن تعثر علينا، كلّ ما عليها أن تسأل ميس سيلينا أو تيتا إدو عبّر التليفون. حتى الملاك يجب علينا ألاّ نقلق بشأنها. لأنّها تعرف موقعنا دائمًا، ولا تبتعد عنّا أبدًا.

ليتيسيا

مكتبة
t.me/soramnqraa

بيركلي، مارس - يونيو 2020

مرّت ليتيسيا بمخبز برونيلي حتى تشتري كابتشينو لنفسها ولمستر بوغارت كدأبها كلّ صباح، عدا أيّام الأحد. ذكّرت النادل بأن يكون أحد كوبَي القهوة منزوع الكافين، القرار الذي اتّخذته من دون الرجوع إلى مستخدمها، لأنّ الكافين يصيبه بالخفقان. رأت أنّه لولا اعتنائها به لأصبح ذلك الرجل في القبر، وهو الذي استسلم للموت من فرط الأسى حين ترمّل، فرفض الأكل واقتصر طعامه على الخضروات المهروسة وحساء الدجاج الذي تعدّه من أجله من مكوّنات كلّها طبيعيّة. في تلك الحقبة كانت زوجته نادين تظهر له على طريقة الدّرج، كما ظهرت له نساء في ثياب عتيقة، أولئك النساء الضائعات اللاتي مارسن نشاطهنّ في ذلك البيت قبل أعوامٍ طوال، طوال. كان مستر بوغارت يصفهنّ لليتيسيا بأدقّ التفاصيل، بكلامٍ شديد الإقناع، حتى

بدأت تراهن بعينها هي الأخرى، مع أنها لا تؤمن بالأشباح. لو كان لها وجود، لزارتها بلدة كاملة من الأشباح.

من السهل أن يتخيّل المرء الأرواح التي تتعذب في بيت مستر بوغارت، لأنه بيت كبير، معتم، به حجرات موصدة، وكثير من الخشب، وقليل من الضوء. يثن البيت متأثراً بالأم المفاصل. بينما تغصّ المواسير بالبكاء أحياناً، عندما يتغيّر ضغط الماء. أمضت ليتيسيا عشرين عاماً وهي تنظف ذلك البيت، حتى صارت أعلم الناس به. مرّت بالمكنسة والمنفضة في كلّ ركن من أركان البيت، باستثناء العلّة. في البدء تراءى لها البيت في غاية القبح، ولكنّها صارت تحبّه مع الوقت. لو كان الأمر بيدها لدهنته بألوان زاهية من شأنها أن تضيء على البيت مظهرًا شبابيًا، وألقت إلى النفايات بنصف قطع الأثاث القديمة قدم البيت، ولا سيما الأبسطة المهترئة، التي قال مُستخدِمُها إنّها عريقة وذات قيمة كبيرة. كان قد اشتراها في رحلة إلى تركيا. ولكنّها أيقنت بأنّه قد تعرّض للخداع هناك، وإلا فلا يمكن تفسير كيف أقنعوه بشراء تلك الأبسطة القذرة ما دامت الجديدة تُباع في كلّ مكان.

اختفت نادين وفتيات الليل عندما بدأ مستر بوغارت يتناول أدوية الاكتئاب التي ردّته إلى عالم الأحياء، ولكنّه لم يعد إلى طبيعته حتى جاء پاكو لينقذه. كانت ليتيسيا قد عثرت على الكلب وهو ينبش القمامة في زقاق قريب من بيتها. وجدته في غاية النحول والمرض، فنجّا بمعجزة. كان هجيناً من دزينة من السلالات الرخيصة، له وجه ضبع، ولكنّه مُسالِمٌ مثل غاندي، لا يستفزّه شيء. نظّفت ليتيسيا الكلب، وحالما شفي من جراحه مضّت به إلى الرجل الأرملة حتى يكون معيناً له في أحزانه. وسرعان ما أصبح الرجل والكلب لا يفترقان.

أمضى مستر بوغارت أكثر من خمسين عامًا من حياته مُتزوِّجًا، ولكن مرض زوجته قد تمكّن منها بسرعة بالغة، فلم يسعفه الوقت حتى يستعدّ للترمل. وعلى الرغم من تمسّكه بخصوصيّة المشاعر، فلقد خمّنت ليتيسيا أنّه كان واقعا في حب زوجته، وإلاّ ما استمرّ في رؤية نادين. عرفت أنّ الأشباح تحوم حول كبار السنّ المصابين بالخرف في كثير من الأحيان، ولكنّ مستخدمها ما زال في كامل قواه العقليّة. لقد عملت لبعض الوقت بدار مُسنّين، حيث تأكّد لها أنّ الموتى يحضرون لزيارة المرء في نهاية حياته، متى استحوذت عليه العزلة. حتى الموتى يشعرون بعزلة شديدة، حسبما افترضت سيلينا. ولكنّ مستر بوغارت يرى زوجته مدفوعًا بالحبّ أكثر منه بالعزلة. رأت ليتيسيا أنّ الحبّ يزدهر في أيّ عمر. كما تأكّد لها في دار المُسنّين، حيث التقت عاشقين في أواخر التسعينيات من العمر، يمضيان يومهما معًا وكلّ منهما يرنو إلى الآخر، ساكتًا، سعيدًا. وإن لم يتمكّن من الزواج، لأنّ الأبناء لا يرغبون في تعقيد إرث السيّدة التي تمتلك بعض العقارات. وفي ظلّ الوضع القائم، ارتجلت ليتيسيا طقوسًا لعقد زواج العاشقين بالمعنى الشعريّ للكلمة: فارتدت ثيابًا سوداء مُتظاهرةً بأنّها موظّفة في السجلّ المدنيّ. اغرورقت عيون الحضور كلّهم تأثرًا بهيبة الخطاب الذي ألّفته ليتيسيا. وفرح العجوزان، في حين لم يعرف الأبناء شيئًا.

لم يقتصر الأمر على الكافين، فحتى الأخبار تصيب مستر بوغارت بالخفقان، ولذا كانت ليتيسيا تقدّم إليه الدواء قبل تشغيل التلفزيون. منذ أن وصل الرئيس الحالي إلى البيت الأبيض، صار مستخدمها كثير الغضب. ولكنّه لم يكن الوحيد، لأنّ تلك هي الحال التي انتهى إليها الجميع في بيركلي. ما عدا هي، لأنّها لا تلقى إلى السياسة أدنى بال، فلا شيء يتبدّل في حياة أولئك الذين يعيشون بالأسفل ويجنون قوتهم

بمشقة، أيًا كان الشخص الذي يتولَّى الحكم بالأعلى. وهكذا راحت تجني قوتها بغسل الصحنون في المطاعم الرثة، والاعتناء بالأطفال والمُسِنَّين، وتنظيف الكلاب، وبيع البيض والجبن من بابٍ إلى باب، وغير ذلك من الأشغال التي كانت أكثر مشقةً وأبخس أجرًا من المهنة التي صارت تعمل بها حاليًا. إذ بات يمكنها اختيار العملاء وتلقّي أجرها بالساعة نظير خدمات التنظيف. مكتبة سُر من قرأ

في السابعة والنصف صباحًا ينتظرها مستر بوغارت في الفراش، حيث يغطّ پاكو عند قدميه. تصل ليتيسيا، فتجده قد فتح النافذة، حتى في فصل الشتاء، لتهوية المكان وطرده رائحة الكلب. وإن حدّثتها الشكوك بأنّها رائحة الشيخوخة، لأنّ پاكو لا تنبعث منه الرائحة الكريهة. كانت الحجرة فسيحة، كثيبة، مثل باقي أرجاء البيت، ولولا الأزهار التي تشتريها ليتيسيا لتزيّن بها المزهريّات لأصبح المكان مثل الكهف. تصل ليتيسيا، فتجلس على أريكةٍ مُتهالِكَةٍ شأن باقي قطع الأثاث. يتناولان القهوة وهما يشاهدان الأخبار. ثم يستحمّ مستر بوغارت ويرتدي ثيابه من دون مساعدة، إذ روّعته فكرة أن تراه ليتيسيا مُجرّدًا من الثياب. اقترحت عليه أكثر من مرّة أن يهوّن على نفسه، لأنّها سوف تُضطرّ إلى تنظيف مؤخرته في المستقبل، فأجابها: «تأكّدي أنّي سوف أنتحر متى جاء ذلك اليوم». باستثناء الخفقان والضغط المرتفع، تمتّع الرجل بالصحة والوسامة، مع الأخذ في الحسبان أنّه في السادسة والثمانين من العمر. بل أنّه ما زال مُحْتَفِظًا ببعض الشعر أيضًا! كان شديد الاعتناء بنظافته الشخصية، فتراه يحلق ذقنه ويتأنّق دائمًا وكأنّه ذاهبٌ إلى جلسة تصوير، وهو الرجل صاحب الهواجس والأخلاق التي تليق بالفرسان القدامى. كان يذهب إلى النادي الرياضي ويجدّف بالقارب في الخليج ويقود الدراجة. خافت ليتيسيا أن يسقط على الأرض وينكسر عموده الفقريّ في أيّ لحظة، فتوسّلت إليه

حتى يضع درّاجة رياضيّة ثابتة في إحدى الغرف الخالية ما دام الغرض أن يمارس التمارين الرياضيّة، ولكنّه لم يلقِ إليها بالاً. بعد الأخبار، لا يلتقي مستر بوغارت وليتيسيا حتى اليوم التالي، لأنّه يمارس التمارين ثم يخرج، أو يشرع في إعداد محاضراته أو برنامجهِ الإذاعي، بينما تنتهي ليتيسيا من التنظيف ثم تذهب في العاشرة إلى باقي العملاء.

ذات صباح، رأت ليتيسيا على باب المقهى بوادر الشيء الذي غير حياتها وحياة العالم بأسره: «بدءاً من الغد، يُقفل مقهى برونيلي إلى حين إشعارٍ آخر بسبب الكوفيد (١٩)». منذ عدّة أيّام، صار الفيروس موضوع الساعة الذي طغى على منشورات الصحف. ولكنّ ليتيسيا لم تأخذ الأمر على محمل الجدّ حتى تلك اللحظة.

- مستر بوغارت، سيكون هذا آخر كابتشينو من برونيلي لبعض الوقت.. - أخبرته - يجب علينا أن نحصل على آلة لصنع القهوة.

شغلاً التلفزيون، فعرفا بأمر حظر التجوّل الذي يدخل حيّز النفاذ في كاليفورنيا بدءاً من منتصف الليل في اليوم التالي، وحظر الخروج إلّا لدواعي العمل الذي لا غنى عنه. أمّا باقي الناس فينبغي لهم العمل من بيوتهم. بدأ الوباء في الصين، وسرعان ما استشرى في باقي أنحاء الكوكب تاركاً في طريقه سيلاً من العجث والإصابات الخطيرة. في اللحظة نفسها تقريباً، بدأ يدقّ جوّال ليتيسيا، ومضى العملاء يخبرونها بتعليق خدماتها واحداً تلو آخر. طبقاً لتقديراتها، فلو استمرّت هذه الحالة الطارئة، لاضطّرت إلى الإنفاق من مُدّخراتها القليلة. اتّصلت بابنتها أليسيا، التي تعمل مساعدة تمرّض وتعيش في قاعدة عسكريّة جنوبي كاليفورنيا، لأنّ زوجها يعمل ملازماً في البحريّة. «ماما، الأوامر هنا تُنفذ. إنّهُ المكان الأوفر حظاً من الأمان، فهذهني من روعك»، قالت لها.

نزل حظر التجوّل على مستر بوغارت كالصاعقة، وهو الذي ألف الروتين الثابت الذي لا يتبدّل. من الآن فصاعدًا لا يمكنه الذهاب إلى النادي الرياضي أو إلقاء المحاضرات أو الاجتماع بالرباعيّ الموسيقيّ كدأبه كلّ أسبوع. كما لن يمكنه الذهاب لتمضية منتصف الليل في أحد نوادي سان فرانسيسكو، حيث يعزف موسيقى الجاز وينصت إليها. لم ينتقص العمر ذرّة واحدة من طاقته المشتعلة أمام البيانو في جلسات الموسيقى المرتجلة. أمّا وقد لزم البيت، فلم يعد في وسعه إلاّ تسجيل برنامج الإذاعة الكلاسيكيّة.

- افترض أنّك لن تهجريني... - قال لليتيسيا.

- مستر بوغارت، يجب عليّ ألاّ أستمّر في الحضور إلى هنا، على ما أعتقد. تصوّر لو نقلتُ إليك الفيروس. الإصابة بالعدوى مميتة في هذا العمر. - لا بدّ أن يكون للموت سبب.

- لقد علّق عملائي الخدمة من باب الاحتياط. إنّ هذا الفيروس ليس مزحةً يا سيّدي.

- لو بقينا في الحجر الطبي، لوجب عليك أن تبقي معنا.

- في هذا البيت؟

- أجل يا امرأة، في هذا البيت. لأسبوعين أو ثلاثة أسابيع فحسب. لا يمكن أن يستمرّ الوضع طويلاً، وإلاّ مُتّ أنا وياكو من فرط الضجر في هذا الحبس. وماذا نأكل؟ لا أعرف كيف أطهو بيضة واحدة.

- تعرف أنّي أعمل في أماكن أخرى.

- ولكنك قلبت من فورك إنهم قد علّقوا خدماتك في باقي البيوت؟ سوف أرفع أجرك، وأعفيك من العمل معظم ساعات اليوم. ما رأيك؟

- أنت لا تريد النظافة والطعام. بل إنك تريد الرفقة، أليس كذلك؟
- صحيح. ولكنك سوف تشعرين بالراحة هنا. تصوّري البقاء وحيدة في بيتك المُتَنقِل، إنَّ ذلك أشبه بالحبس في زنزانية بمعزلٍ عن العالم.
- بيتي صغير، ولكنّه في غاية الدفء.
- وافقي يا ليتيسيا!
- يجب عليّ أن أحضر بانتشيتو، ببغائي...
- لا توجد مشكلة واحدة. أهلاً به.

ذهبت ليتيسيا لتحضر الضروريات: بانتشيتو والثياب والنسيج والفيتامينات والرواية التي تطالعها ضمن فعاليات نادي القراءة. في طريق العودة مرّت بالسوبرماركت وعبأت حقيبة الطعام بما يكفي لأسبوعين. وجدت مستر بوغارت جاهزاً للخروج مع الكلب - الشيء الذي ما زال يُسمَح به حتى ذلك الوقت - ، وقد تحمّس بشدة لفكرة العيش معاً. اقترح عليها أن يكون ذلك الوضع دائماً لو نجحت التجربة. «سنصل إلى اتفاقٍ منصفٍ بشأن الراتب، طبعاً»، كرّر عليها. «على جثتي!»، أجابت وهي تفكر أنّه لا يناسبها أن تصبح عاملة منزليّة مسؤولة عن الخدمات كلّها بدوام كامل. وإلا اضطرت إلى تحمّل عيوب الزواج من عجوزٍ ولم تحظْ بأيّ من مزاياه، لو كان للأمر مزايا. لم يأخذ مستر بوغارت كلامها على محمل الإهانة، وقد استعدّ للإصرار حتى تكون له الغلبة. وعلى سبيل الإغراء قدّم إليها أجمل غرف البيت، التي كانت تطلّ على الحديقة وتضمّ حماماً خاصاً، وسبق أن اتخذتها زوجته مشغلاً. ما زال نولها الأثير هناك، وبعض المنسوجات التي صنعتها بنفسها. سرعان ما استقرّت ليتيسيا في الغرفة، وأبدت استعداداً للاستحمام في المغطس طويلاً ومشاهدة التلفزيون حتى مطلع الفجر، لأنّها قد تعلّقت بمسلسل برازيليّ مُدبّلج إلى الإسبانية يمتدّ لمئتين وأربعين حلقة.

اتَّصَلَتْ كاميل، ابنة مستر بوغارت، في حوالي الرابعة مساءً - أي السابعة بالنسبة إليها، بتوقيت نيويورك - حتى تمتعض لأنَّ أحدًا لا يستطيع الذهاب إلى المكتب بسبب الجائحة. كانت مديرةً بإحدى مجلَّات الأزياء. مضَّت كاميل تتلو قائمة مصائبها الخاصَّة كاملةً: ضرورة التخطيط لعدد المجلَّة القادم من البيت، وإلغاء الحفل الذي تقرَّر لجمع التبرُّعات من أجلِّ الباليه، وإغلاق صالون التصفيف الذي تتردَّد إليه، حتى المطاعم قد أغلِقت، أمَّا شراء الطعام في صحنٍ من الورق المُقوى فيبدو لها شيئًا مُتدنِّيًا، وماذا تفعل من دون المرأة الفلبينيَّة التي تنظِّف شقَّتها العلويَّة الفاخرة! لم تسأل والدها عن حاله، وهي التي جمعتها به علاقة مُتوتِّرة.

وفي لحظةٍ من لحظات الإحباط البالغ، أفضى مستر بوغارت إلى ليتيسيا بأنَّ كاميل لا يهتمُّها شيءٌ سوى النقود والمستوى الاجتماعيّ. لا تبدو ابنته ولا ابنة نادين ليبلانك. حتى رأيه في حفيده الوحيد مارتين، ابن كاميل، لم يَكُن إيجابيًا. «إنَّه أشدَّ فاشيَّةً من موسوليني»، قال لها، فاضطُّرت إلى البحث عن اسم موسوليني عبْر الإنترنت. حتى هي لم تُعجَب بذلك الحفيد، وإن رأت استحالة أن يكون غبيًّا بأيِّ شكل، مع الأخذ في الحسبان أنَّه قد نُصِّب مستشارًا للرئيس وهو لا يزال في مقتبل العمر. ولكنَّه سببٌ إضافيٌّ حتى لا يحبَّه الجدُّ. لقد عرفته ليتيسيا منذ كان طفلًا. ولكنَّها رآته آخر ما رآته في جنازة جدِّته نادين وهو في الثامنة والعشرين تقريبًا، بعد أن زحف الصلع إلى رأسه، شأن موسوليني. لم يزُر جدَّه منذ خمسة أعوام.

أمَّا والد مارتين، الذي اعتبره مستر بوغارت نصَّابًا، فلقد جنى ثروةً من تجارته بكثيرٍ من الحنكة وقليلٍ من الفضيلة، ثم ترك مبلغًا طائلًا لزوجته كاميل حين وقع الطلاق بينهما. كبر مارتين في بناءٍ له حارسٌ

بمنهاتن، والتحق بأفضل المدارس والجامعات الخاصة، حيث اشتهر منذ المراهقة بالعنصريّة والتشدد والمحافظة والتطرّف، الأمر الذي لم يستسيغه زملاء والأساتذة بوجه العموم. وبدلاً من أن يتعذّب بذلك الشيء، كان مارتين مزهواً بمشاعر العداوة التي يثيرها في نفوس الغالبية من الناس، علماً أنّ له جمعاً مخلصاً من المعجبين الذين يتبعونه دائماً. تلذذ بإهانة معارضيّه، تلك اللعبة التي يخرج منها فائزاً في كلّ مرّة.

حاول مستر بوغارت أن يتذكّر الطفل الذي كانه مارتين قبل التطرّف، حاول أن يتذكّر ذلك الصغير الذكيّ المفعم بالحيويّة الذي قاسمه أفلام الأطفال على شاشة التلفزيون، وعلمه كيف يلعب الشطرنج وهو في الخامسة من العمر، حتى صار مارتين يغلبه في السابعة. كانا يحلّان الأحجّيات معاً، فيضع الحفيد عشر قطع من الأحجّية في مكانها الصحيح مقابل كلّ قطعة واحدة يضعها الجدّ. وفي الإجازة، كان يخرج معه بالمركب لصيد سمك الطربوت والحفش في خليج سان فرانسيسكو أو للتنزّه بالدراجة في التلال كلّما أرسلته كاميل حتى يمضي أسبوعين مع الجدّ والجدّة في كاليفورنيا. حاول أن يمدّ بينه وبين الحفيد أواصر الصلة التي لم يحظَ بمثلها مع ابنته. تحدّث العجوز إلى ليتيسيا عن ذلك الزمن مُتسائلاً: أيّ لعنة حلّت بذلك الفتى حتى يتغيّر إلى هذا الحدّ!

بحنين، كانت ليتيسيا أيضاً تذكّر العام الذي تعرّفت خلاله بمارتين لأوّل مرّة، وهو لا يزال على أعتاب المراهقة. على مدى بضعة أشهر، ظلّ مارتين فتىً طبيعيّاً، يلتهم فطائر البانكيك التي تصنعها. ولكنّه ما كاد يلتحق بالمدرسة الثانوية حتى صار ذلك الشخص الذي لا يطيقه الجدّ. انطبعت في ذاكرتها أولى بوادر الرجل الذي صار إليه ذلك الطفل، حين طلبت منه الجدّة نادين أن يحمل صحنه إلى المطبخ، فما

كان منه إلا أن رمى الصحن أرضاً، وبغطرسة أكد أنه عمل ليتيسيا، ألم تكن هي العاملة المنزلية؟

شعرت المرأة بالأسف لأن لمستر بوغارت عائلة صغيرة ولكنها غير منسجمة على الإطلاق. بخلاف الرباعي الموسيقي، لم يكن لمستر بوغارت سوى قلة من الأصدقاء، لأنه قد أهمل العلاقات الاجتماعية عندما ترمل. في حياة زوجته كان البيت مشرع الأبواب، يتلقى الزيارات في كثير من الأحيان. بينما تعلّمت نادين كيف تعدّ وصفات نيو أورلينز الحريفة حتى تتألق ربّة البيت أمام الضيوف. ولكن في غياب نادين اكتسب البيت الكبير مظهرًا يشي بالهجران، وابتعد الأصدقاء، فلم يبذل مستر بوغارت أدنى جهد لاستبقائهم، لأنه لم يفتقدهم. وهكذا بات منغلّقًا على ذاته. ولكنه ربّما كان على تلك الحال طوال حياته، هكذا فكّرت المرأة الطيبة.

مرّ شهران منذ أعلنت الجائحة، وما زالت ليتيسيا مقيمة في بيت مُستخدِمها. لم يُحَيَّل إليها يومًا أن يطول الحبس كلّ هذا الوقت. جاء الربيع وسط حفلٍ عامٍ بالنحل والأزهار، مع أنّ البستانيّين لم يؤدّوا عملهم طوال تلك الفترة. خفّف الطقس الرائق من شدّة الوضع قليلًا. بينما لم تظهر في الأفق أيُّ بوادر تبشّر بأنّ حدّة الفيروس قد خفّت، بعد أن أودى بحياة أكثر من تسعين ألف حالة في البلد ومئات الآلاف في باقي أرجاء العالم. في حين انطلق سباقٌ محمومٌ بين عددٍ من المختبرات لتصنيع اللقاح. وإذا بالجائحة تغدو سلاحًا سياسيًا، فاعتبرها بعض الناس خدعةً دبّرتها المعارضة، ورفضوا استخدام الكمادات. في حين التزم الباقون بتعليمات خبراء الجائحة. وبينما راحت أعداد الموتى ترتفع، والمستشفيات تمتلئ، سعت الحكومة إلى التخفيف من أهميّة

الأمر، وأوصت بأدوية غير معقولة، مثل حقن المصابين بالمواد المُنظِّرة. لم ترَ ليتيسيا ابنتها أو حفيدتها وجهًا لوجه، بل اقتصر الاتصال بهما على فيستايم مرَّة واحدة كلَّ يومين أو ثلاثة. كما فقدت باقي زبائنهما ولكنها استطاعت أن تدفع نفقاتها القليلة ومساعدة ابنتها بما جنت من عملها لدى مستر بوغارت. شعرت بأنَّها سعيدة الحظَّ مقارنةً بآخرين.

في تلك الفترة أرسَتْ هي ومستخدمها النظام الذي ارتاح كلاهما إليه. فمِنذ اليوم الأوَّل، طالباها مستر بوغارت بأن تجلس إلى المائدة معه، وأن تنسى أمر الأكل في المطبخ، كما كانت تفعل فيما سبق.

- متى تناديني باسمي يا ليتيسيا؟ يعرف كلُّ منَّا الآخر منذ قرين من الزمان، وما زلتِ تناديني «مستر بوغارت». - سألها.

- لن أفعل أبدًا يا سيّدي. لا بدَّ من مراعاة الألقاب. أمَّا الألفة بين الرئيس والمرؤوسة فعادةً ما تنتهي نهايةً وخيمة. - أجابت.

تعرف أنَّ بوغارت ليس اسمه الحقيقي، بل إنَّه لقبٌ أطلقته عليه زوجته لحظة تعرُّفت به لأنَّه كان يشبه هامفري بوغارت في شبابه. - بأمارات خيبة الأمل المرتسمة على وجهه، والقُبعة المائلة - ، ذلك المُمثِّل الذي بلغ من القدم حدًّا جعل ليتيسيا لا تسمع باسمه قطَّ. ولكنها سرعان ما اكتشفته، وشاهدت فيلم «كازابلانكا» عدَّة مرَّات بطلب من مستخدمها. في البدء تمنَّعت لأنَّ الفيلم بالأبيض والأسود، ولكنها سرعان ما أدمنته وصارت تطلب مشاهدته ما لا يقلُّ عن مرَّة واحدة كلَّ أسبوع. بل إنَّها حفظت عددًا من حوارات الفيلم عن ظهر قلب، وصارت تلقىها مُبالِغةً في الدراما حتى تُدخل البهجة إلى قلب العجوز. حاولت أن تتخيَّل شكل هامفري بوغارت في أواخر التسعينيات من العمر. ولكنَّ المُمثِّل لم يعمُر، بل إنَّه قد فارق الحياة في السابعة والخمسين

من فرط التدخين، قبل أن تُولَد هي بوقتٍ طويل . كان مستخدمها يُدعى صامويل أدلر، ولكنه سيظلّ بالنسبة إليها «مستر بوغارت».

لم تصدّق نادين، زوجة مستر بوغارت، أنّها على مشارف الموت، مع أنّ التشخيص جاء مُدْمَرًا. ولذا لم تستعدّ للموت. قرّرت ليتيسيا أن تستغلّ أوقات الفراغ الطويلة في ترتيب الفوضى التي خلّفتها نادين. سبق أن منعها الأرملة من ذلك قائلاً: «ليتيسيا، سأخبرك متى شعرتُ بأنني مُستعدٌّ لذلك. وعندئذٍ يمكنك أن تفعلي ما شئتِ بأغراض زوجتي». أصرّ على منع ابنته من المساس بالأشياء التي تركتها أمُّها، وإن استحوذت كاميل على كلّ ما يحلو لها من دون علمه.

- يرغمني ضجر الحبس على التأمل. أحتاج إلى ترتيب حياتي وبيتي قبل الرحيل. - أخبر ليتيسيا.

- لماذا تفكّر في ذلك يا سيّدي؟ بالعباية الملائمة، يمكنك أن تصل إلى المئة عام.

- أتعنين بي؟

- إن لم أفعلها أنا، فمن يعتني بك؟ ولكنّ المرء في حاجةٍ إلى قليلٍ من الرومانسيّة للحفاظ على شباب الروح، ذلك شيءٌ لا يفوت أوانه أبدًا.

- بأيّ حماقةٍ تتفوّهين يا امرأة! - صاح مُقهقهًا.

- كلامي أبعد ما يكون عن الحماقة. يمكنك التعرف بصديقةٍ عبر الإنترنت. أستطيع أن أساعدك، إن شئت. لا بدّ أنّك العازب الثمانينيّ الأشدّ إغراءً في كاليفورنيا: فمتاعبك الصحية قليلة، ومظهرك حسن، ورأسك في مكانه الصحيح، أضفْ إلى ذلك أنّك رجلٌ ثريّ.

- أتعرفين كم أملك من المال؟ - سألها.

- لا أدري، ولكنِّي أعرف أنَّك لستَ معوزًا. الكثير من النساء المُتقدِّمات في السنَّ يبحثن عن رفيقٍ في مثل عمرهنَّ، فلا يجدن إلاَّ قلائل من الرجال الذين يقدرّون على ربط جملتين ولا يُضطرّون إلى استخدام الحفاضات. أمّا أولئك الرجال القلائل، فيريدون نساءً أصغر منهم بثلاثين عامًا. ولكنَّ هذا لا يسري عليك. - قالت ليتيسيا.

- لا بأس بشابّة صغيرة...

- إيّاك وأن تفكّر حتى في ذلك يا سيّدي! سوف نراعي أقصى درجات الحرص في اختيار المُرشّحات، لأنَّ كثيراتٍ منهنَّ يبحثن عن المال. بالقرب من بيتي عاش طبيبٌ بيطريٌّ في الخامسة والستين من العمر، من أصحاب الأملاك المُستأجرة. ولكنّه وقع في براثن ساقطةٍ في الخمسين، وفارق الحياة قبل مضيِّ عامٍ واحد، فورثت الأرملة مبلغًا ضخمًا. يُقال إنَّها قد دسّت له السمّ.

- لا بدّ من الانتظار حتى تمرّ الجائحة لتنفيذ ذلك المشروع يا ليتيسيا. دعينا نرتّب هذا البيت قبل التفكير في تلك القاتلة الافتراضية. - إذن، فأنت تعطيني الإذن...

- أجل، ولكن لا تتخلّصي من شيءٍ واحدٍ ما لم تسأليني أولًا.

- أعدك بذلك. - أجابت وهي لا تضمّر أدنى نيّةٍ للوفاء بوعدّها.

شرعت في العمل مُتفاجئةً من ذلك الكمّ الهائل من الآثار التي يتركها كلّ شخصٍ في هذا العالم طوال حياته. في خزائن الثياب الخاصّة بنادين، عثرت ليتيسيا على ثيابٍ من الستينيّات، وأحذيةٍ ذات كعبٍ عالٍ، وتنانير من الهند مُرصّعةٍ بالمرايا الدقيقة. كانت نادين

ترتدي ثياب الهيبى آنذاك، مع أنّها قد أنجبت كاميل وبدأت تصنع لنفسها اسمًا في عالم المنسوجات. وبينما راحت ليتيسيا تستخرج الثياب من الخزائن، استطاعت أن تقتفي أثر نادين في كلّ حقبة بالنظر إلى الثياب، التي انتشرت العثة في كثيرٍ منها. في عقد الثمانينيات لم يتبقّ أدنى أثرٍ للبهيمية، إذ صارت نادين آنذاك فتاةً معروفةً ترتدي ثياب الرجال. عثرت ليتيسيا على صورٍ تظهر فيها نادين بالبدلة وربطة العنق والنظارة ذات الإطار الأسود والبوط. وفي الخمسين من عمرها، مرّت بفترةٍ قصيرةٍ تخلّلتها التناير القصيرة والكنزات الضيقة والكعب العالي، وكأنّها تحاول أن ترى نفسها مثيرةً أو تسعى إلى إرضاء العشيق الذي حان دوره آنذاك. ثم تعبت من صيحات الثياب الرائجة، في لحظةٍ بعينها، فتبنت الجينز الباهت والأقمصة الرياضية التي شدّت على مظهرها اليافع خلال الأعوام التالية، وحتى موتها. جاءت النتيجة أشدّ جاذبيّةً من الثياب المثيرة ذات الصدر المفتوح التي تعودت ارتداؤها في سنّ اليأس.

أخرجت ليتيسيا من الخزائن والجوارير أدويةً منتهية الصلاحية ومستحضرات تجميلٍ زنخةٍ وحليًا أجنبيةً ومشغولاتٍ يدويّة. أمّا الحلبي القيمة، فلقد استولت عليها كاميل يوم دُفنت أمّها. كما عثرت ليتيسيا على يوميّات نادين ورسائلها، فطاف بخلدها أن تقرأها، ولم تعتبر الأمر تعدّيًا على السريّة لأنّ الأرمل لم يكّد بيدي أدنى فضولٍ تجاه تلك الأشياء. لعلّه لم يرغب في التحقق من الشكوك التي راودته.

طالت الأيام، وجاءت كلّها مُتشابهة، وذابت بعضها في بعض. «اليوم كالأمس، وغدًا كالיום»، قالت ليتيسيا مُتتهّدة. كان مستخدمها قد اشترى آلة صنع الكابتشينو، وصارا يبدآن يومهما بالقهوة الأولى

ومشاهدة الأخبار على شاشة التلفزيون، كما في سابق عهدهما. بعد ذلك يرتدي هو ثيابه ويخرج لتمشية ياكو واضعًا الكمامة على وجهه والقفاز المطاط في يديه، بينما تتولّى ليتيسيا تنظيف المكان. صارا يذهبان للتسوّق معًا، فيبقى هو في السيّارة بينما تدخل هي إلى المتجر بالكمامة والقفاز أيضًا. تذرّ الناس بسبب نقص بعض الأشياء (الطحين والموادّ المُطهّرة والحليب المُجفّف وورق التواليت). «من الواضح أنّ أولئك الناس لم يمرّوا بأوقاتٍ عصيبةٍ قطّ»، تمتّمت ليتيسيا. كانا يتناولان طعامًا خفيفًا على الغداء، سلطّة في أغلب الأوقات. ثم ينصرف كلّ منهما إلى شؤونه في المساء. فيعود هو إلى كتبه وموسيقاه ودراجه الرياضية الثابتة التي نصّبها في إحدى الحجرات أخيرًا. بينما تنصرف هي إلى المسلسل البرازيليّ وإلى نبش ماضي الأسرة، وتحديدًا ماضي نادين الذي صارت ليتيسيا مهووسةً به، بينما حدّثها هاجسٌ بأنّه على صلةٍ بماضيها هي نفسها.

خطر لمستر بوغارت أن يجعل العشاء على قدرٍ من الرسميّة تجنّبًا للانحدار إلى الهمجيّة. تلك العادة التي تبنّاها المستعمرون البريطانيّون في أقصى بقاع الإمبراطوريّة، إذ كانوا يرتدون الثياب الرسميّة لتناول صحن العدس ويخنة النمر التي يقدّمها إليهم السكّان الأصليّون بالقفازات البيضاء تحت مظلاتٍ من القماش، وإن لم يمنعهم ذلك التصرف كالهجم في كثيرٍ من الأحيان. أصبح مستر بوغارت يحضر إلى العشاء بالسترة، بينما تتخلّى ليتيسيا عن المئزر وتزيّن بالأقراط وتلوّن أهدابها. «تبدين رائعة الجمال يا ليتيسيا»، مضى يقول لها كلّ يوم وكأنّه يؤدّي تمرينًا على اللباقة، «وأنت أيضًا يا مستر بوغارت». كانت تعدّ المائدة بالمفرش الطويل والأدوات الفاخرة وكؤوس البلّور، بينما يشغلّ هو موسيقى ملائمةٍ للذائقة الشعبيّة، إذ افترض أنّها لا تقدّر

الموسيقى الكلاسيكية حقَّ قدرها. كان كلُّ منهما يتناول كأسًا قبل العشاء، فيشرب هو الفودكا بالثلج بينما تشرب هي الكوكتيل بشتَّى أنواعه: بينيا كولادا، أو كوبالييري، أو بلودي مارياتشي، أو مارغاريتا بالمانغا، أو مارتيني بجوز الهند، أو غير ذلك من صنوف الكوكتيل التي ترتجلها ليتيسيا وفق ما يلائم إلهام اللحظة. ضمَّ البيت مخزونًا وافرًا من الشراب في تلك الحقبة، عندما كانت الأسرة تتلقَّى الضيوف. ولقد تبقَّت عدَّة قوارير من ذلك الزمن، فعزمت ليتيسيا على أن تأتي عليها رويدًا رويدًا حتى لا تهدرها. درجا على تجاذب أطراف الحديث في تلك الساعة، وهكذا راح كلُّ منهما يتعرَّف بالآخر شيئًا فشيئًا. مضت ليتيسيا تتقصَّى المعلومات بحذر، لأنها كلَّمَا أفرطت في إظهار الفضول تمسَّك هو بالتزام الصمت. كان رجلًا قليل الكلام، ولكنه بعد كأسين أو ثلاث كؤوسٍ من الفودكا يصبح طليقًا، ويبدأ في التحدُّث عن ماضيه وزوجته. التي يحنُّ إليها.

- ألا تظنَّ أنَّك قد صنعتَ أسطورةً من فرط التفكير في السيِّدة نادين؟ - سألته ليتيسيا.

- كلُّنا نملك الحقَّ في صنع أساطيرنا.

- ولكنِّي لستُ في حاجةٍ إلى صنع أسطورتِي الخاصَّة يا سيِّدي.

عملت ليتيسيا في ذلك البيت أعوامًا طويلاً، ولكنها لم تكن قد صعدت يوماً إلى تلك العلَّية التي يصل إليها المرء عبْر فتحةٍ شديدة التعقيد في سقف الطابق الثاني، تُفَتَّح بلفٍّ مقبضٍ مُتَّصل بقضيبٍ من الحديد في طرفه خُطَاف، وما إن تنفرج الفتحة حتى يسقط سلَّم قابلٌ للطَّي. لم يسبق لها أن رأت أحداً يصعد إلى هناك، فكاد السلَّم يشجَّ رأسها عندما أدارت المقبض للمرَّة الأولى من دون أن تتوخَّى الحذر.

وجدت التسلّق إلى العلّية شاقاً، لأنّ درجات السلم مصنوعة من عيدان واهية مُرتجفة. كادت العلّية تغرق في العتمة، باستثناء ضوء الصباح الذي يتسلّل إليها عبّر منورين صغيرين. استغرقت ليتيسيا وقتاً طويلاً في تبديل المصابيح المحترقة والعثور على مفتاح الإضاءة. كانت مساحة هائلة تشبه الكهف وتشغل مساحة البيت كاملاً، وكأنّها طابق علويّ. لم يسبق أن نُظّفت من قبل، فتراكم الغبار على الأسطح كلّها، وتدلت بيوت العنكبوت من العوارض كالدانثيل. لم تر ليتيسيا فئراناً، وإن عرفت بوجودها نظراً إلى كريّات الفضلات. مثّلت العلّية كوناً قائماً بذاته، حافلاً بالكنوز والأسرار، حيث يمكنها أن تمضي شهوراً في فتح الخزائن العتيقة والصناديق والحقائب التي كادت تهترئ من شدّة العفن. وجدت ألعاباً سبق أن كانت لكامل ولابنها أيضاً، وعدداً من أشجار الميلاد الصناعيّة، ونصف دزينة من الدراجات في مختلف أطوار الشيخوخة، وأدوات رياضيّة، وأنوالاً كانت لنادين... خلاصة القول إنّها قد وجدت كلّ ما قد يخطر على البال. واكتشفت خزائن خفيّة بين العوارض، خُصّصت لحفظ الأغراض القيّمة، حيث عثرت على مجموعة من الأنية الفضيّة التي ما زالت في أغلفتها الأصليّة، بما في ذلك: طاقم شاي وعدّة صوانٍ وشمعدانات وطاقم أدوات مائدة كامل... بل إنّها قد وجدت ملاقط لتناول سرطان البحر وشوكاً في منتهى الصغر لتناول الحلزون ومنافض سجاثر لم يعد أحدٌ يستخدمها وأطر لوحاتٍ بشتّى الأحجام. أوضح لها مستر بوغارت أنّه قد اشترى تلك الشحنة مع زوجته في رحلة إلى المكسيك، ثم دبّ شجاراً بينهما وافترقا قبل تسلّم الشحنة التي وصلت بعد أن صار يعيش وحيداً في البيت، فوضع الصناديق في العلّية ونسي أمرها.

- ماذا نفعل بكلّ ذلك؟ لا أستطيع أن أمضي البقيّة الباقية من حياتي في تلميع فضيّات السمك. - قالت له ليتيسيا.

- اتركها في مكانها. سوف تأخذها كاميل متى فارقت الحياة.

اهتمت ليتيسيا أكثر ما اهتمت باليوميات والرسائل والصور الفوتوغرافية التي وجدتها في صناديق نادين. كانت تملك من الوقت والصبر ما يكفي لكشف طلاس ذلك السر، والتعرف بحياة تلك المرأة التي كثيرًا ما استأثرت بفضولها. شعرت بالأسف لأنها لم تجرؤ على سؤالها وهي لا تزال على قيد الحياة، علمًا أن نادين كانت تحب استحضار الذكريات وسرد الحكايات. وإن رأت ليتيسيا أن دورها يقتصر على تنظيف البيت وغسل الثياب وطهو الطعام، فلا يمكنها إهدار الوقت أو الاستخفاف بالسيّدة بمثل هذه الأسئلة. أمّا في غياب نادين، فباتت ليتيسيا قادرةً على أن تنبش قصتها، لأنّ الزوج لم يحظر عليها ذلك. حتى الآن لم تفتح إلا عشرةً بالمئة من الصناديق والخزائن، ولكنها اكتشفت أمورًا كثيرة.

كان «ليبلا نك» اسم عائلة نادين قبل الزواج، فلم تتخذ لنفسها اسمًا آخر مدى الحياة. ولقد رأت ليتيسيا أنّ الحب الذي شعر به الزوج نحو نادين يستحق إعجابًا مضاعفًا، لأنها زوجة غير تقليدية. أن تكون المرأة زوجةً شيء في غاية الصعوبة، ولكنها ما دامت مرتبطة بالرجل بتلك الحماقة المتمثلة في الزواج فيجب عليها الالتزام بعددٍ من القواعد، أو على الأقلّ الحفاظ على المظاهر، فكّرت ليتيسيا. ولكن نادين كانت تسخر من المظاهر. لم تكن مخلصّة بطبعها، ولم تبذل جهدًا لإخفاء ذلك، بل إنّها قد تركت خلفها من الآثار ما يسمح لأيّ شخص باكتشاف أمرها. بل إنّها قد اعترفت إلى ليتيسيا ببعض الأسرار، مزهوةً بكونها امرأةً شغوفًا. الأمر الذي لم تجد فيه الأخرى ميزة، وإنما عيبًا. أخبرتها نادين بذلك حين لم يعد شيئًا مهمًا، بعد أن تقدّمت في العمر كثيرًا. لكلّ شيء في الحياة أوان، والشباب أوان ارتكاب الحماقات

بدافع الشهوة. أمّا حين يتقدّم المرء في العمر، فيُعدّ مثل هذه الأمور ضرباً من المجنون. هكذا رأت ليتيسيا، وإن لم يكن من اختصاصها إطلاق الأحكام الأخلاقية، فكلّ امرئٍ حرّ في ضميره.

أخبرتها نادين بأن زوجها أيضاً قد خاض المغامرات العاطفية، ولكن قبل أعوام طوال، قبل أن تبدأ ليتيسيا في العمل هناك، ولكنها لم تجد دليلاً واحداً على صحّة ذلك. أمّا نادين، فلقد عرفت عشاقاً كثيراً، الشيء الذي تأكّدت منه ليتيسيا بما لا يدع مجالاً للشكّ. بل إنّها قد تعرّفت بالشخص الذي يُرجّح أنّه كان آخر عُشّاق نادين، ذلك الإيطالي المدعوّ برونو برونيلي، مالك المقهى والمخبز الذي يحمل اسمه وتنتشر فروعه في بيركلي وسان فرانسيسكو والمطار. كانت ليتيسيا تشتري القهوة اليومية هناك قبل الجائحة، وتنوي الاستمرار في ذلك بعد أن تعود الحياة إلى مجراها الطبيعي، لأنّها لم تر في الأمر معضلةً أخلاقيةً. لقد صار برونيلي من الماضي، وعاد إلى مسقط رأسه في إيطاليا حتى يقضي السنوات الأخيرة من عمره تاركاً تجارته بين يدي ابنه.

في يوميّاتها، كتبت نادين: «انتظرتُ حتى موعد إغلاق المقهى. بعد ذلك استقبلني في المطبخ. وأذاقني كعك اللوز وكريم الفانيليا من فمه. تطارحنا الحبّ فوق الطاولة، ثم وصلتُ إلى البيت وقد تناثر السكر الناعم على ثيابي». «أه، يا عذراء مريم!»، قالت ليتيسيا حين قرأت تلك السطور مُتعبّبةً من السيّدة التي كان شعرها قد اكتسى بالشيب وهي تتلوّى مرحاً وسط كعكات برونو برونيلي.

وفي يوميّات العلّية اكتشفت ليتيسيا «مغامرات» أخرى، كما أطلقَتْ عليها الكاتبة. كانت أغلب المغامرات التي سبقت برونو قليلة الأهميّة، إذ اقتصر ذكرها على الحروف الأولى من اسم سعيد الحظّ، وعبارتين بشأن المكان وملابس اللقاء، كيلا تنسى المغامرة تمام

النسيان. ولكن بالحكم على الأوصاف المقتضبة، فقلّما اهتمّت نادين بأحدٍ كما اهتمّت بالخبّاز. في إحدى اليوميّات المُدوّنة، رأت ليتيسيا حرفي «ك. ت.» في تاريخ يوافق الفترة التي تولّى كروس توريس خلالها إعادة تصميم البيت. نازعتها رغبةً شديدةً في العثور على شيءٍ يخصّها هي أو والدها في تلك اليوميّات، إلى حدٍّ جعلها تخشى أن تخرج منها باستنتاجاتٍ لا أساس لها من الصّحّة. ولكن نادين قد أرفقت الحرفيّين «ك. ت.» بوصفٍ سطحيٍّ ربّما جاء ملائمًا لذلك الرجل الذي تعرفه ليتيسيا، فقالت عنه إنّه: «قويّ، ذو عنفوان، له شعرٌ أسود كثيفٌ ويدان صلبتان تليقان بعامل، وعلى كتفه جرحٌ طويل، يهمس إليّ بالإسبانيّة، أفهم منه القليل، تتقاسم الرّغبة والعشق». تكرّر الحرفان مرّاتٍ كثيرةً في يوميّات نادين. من الوارد جدًّا أن يكون الحرفان لكروس توريس، الذي كثيرًا ما ساعدها هي ووالدها في زمن الفقر، كما أنّها تدين له بعملها في بيت آل أدلر.

استمرّت الإصلاحات في بيت بيركلي العتيق شهورًا، لأنّ مشكلاتٍ جديدةً قد طرأت في أثناء العمل، فإن شُقّت حفرةٌ هنا انفجرت ماسورةٌ هناك، وإن استبدلت أنابيب الصرف تفكّك القرميد، وإن استبدلت أطر النوافذ انخلعت الأبواب... أشرفت نادين على العمل بينما انصرف زوجها إلى دروسه وموسيقاه من دون أن يلقي أدنى بالٍ إلى عمل كروس توريس وفريقه، إيمانًا منه بأنّ ذلك البيت الكبير عصيّ على الترميم، ولا بدّ من تقبله على حاله أو هدمه بالجرفاة (الإيمان الذي لم يجانبه الصواب كثيرًا).

لاحظت ليتيسيا أنّ صداقةً مثيرةً للفضول قد جمعت بين المقاول ونادين ليلانك آنذاك، على الرّغم من الاختلافات الواضحة القائمة بينهما. كان كروس توريس يصغرها بما لا يقلّ عن عشرة أعوام،

أضف إلى ذلك أنه من طبقة اجتماعية أخرى، وعرق آخر، ويفتقر تمامًا إلى رقي نادين. كثيرًا ما وجدتهما ليتيسيا في المطبخ وهما يتناولان القهوة ويتجاذبان أطراف الحديث همسًا، ولكنهما يسكتان أو يبدآن دقة الحديث أمامها. في إحدى المرّات، بعد أن انتهى العمل في البيت بعامّين، خُيِّلَ إليها أنها قد رأتهما عبْرَ الواجهة الزجاجيّة جالسَيْن في أحد المطاعم، وقد تشابكت يداهما على الطاولة. وحين رُحِّلَ كروس توريس إلى المكسيك عام 2008، بدأت نادين تسافر إلى هناك بقدرٍ من الانتظام.

وفقًا لحسابات ليتيسيا، فلا بدّ أنّ مغامرة نادين ليلانك مع برونو برونيلي كانت قصيرةً نسبيًا، ما دامت قد جمعتها علاقة غراميةً بكروس توريس. ودّعت نادين الرجل المكسيكي وهي في التاسعة والسّتين، ثم غادر برونيلي إلى إيطاليا حتى يعيش هناك وهي في الثانية والسبعين. لو شاءت لما منعتهما السنُّ من العثور على بديل لو عزّمت على ذلك، وهي المرأة الأنيقة الجريئة الرشيقة التلقائية، ذات الشعر الأشيب الثائر والضحكة الرنّانة القادرة على إيقاظ الموتى والوجه الذي ترسم فيه الخطوط كلّما ابتسمت. كانت تزهو بالدماء الفرنسيّة والإسبانيّة والإفريقيّة التي تجري في عروقها، وتنعت نفسها بالخلاسيّة، وتقول إنّ واحدًا من أفرع العائلة كان في الماضي أسود اللون، واسع الثراء، ثم ضاع اللون والثراء بالإفراط في الزواج من البيض الفقراء. بحنين، تذكّرت ليتيسيا تلك المرأة السخية الطريفة. كانت نقيض زوجها، الذي عاش حياته وهو ينوء بحقيبة ملأى بالذكريات السيئة وآلام الماضي. في أسى لا يحده شيء، رأته ليتيسيا وهي تتدهور في وقتٍ قصيرٍ وتموت تحت وطأة السرطان الذي لا يرحم. ثم جرّت الأعوام بسرعة هائلة، حتى إن ليتيسيا ما زالت تُفاجأ بغياب نادين.

تعاونت ليتيسيا ومستر بوغارت على الاعتناء بنادين وهي تحتضر. ترك كل شيء حتى يرافقها، فتقاعد من عمله بالجامعة والأوركسترا السيمفونية وهجر قوارب التجديف والدراجات وبات يمضي الليل والنهار إلى جوار زوجته. أمّا إذا اشتدّ عليه الغم حتى صار عصيًا على الاحتمال، فكان يهرب إلى واحدٍ من نوادي الجاز لبضع ساعات. كانت ليتيسيا تنظف البيت مرتين في الأسبوع قبل مرض نادين، ولكنها بدأت تذهب إلى هناك يوميًا منذ ذلك الحين. فوضا إليها أمورهما كلها. لم تعد نادين قادرةً على أي شيء، في حين لم يتدخل زوجها في الشؤون المنزلية. وفي تلك المرات القليلة، حين ذهب إلى المطبخ حتى يلقي عليها بعض التعليمات، استوقفته ليتيسيا بحدّة. تولّت أمر الفواتير وإجراءات البنوك والأدوية والأطباء. حتى إنها قد تولّت أمر كاميل، التي كانت جاهزةً للإدلاء برأيها دائمًا مع أنها لم تأخذ من وقتها شيئًا لمرافقة أبويها في ذلك الوضع التعيس. أرسى مستر بوغارت قاعدةً تنصّ على أن يسلم ليتيسيا مصاريف الشهر، من دون أن يسألها عمّا تنفق فيه النقود أبدًا. ولكنها احتفظت بالإيصالات وسجلّت الحسابات بدقة، حتى لا يتمكن أحدٌ من اتّهامها بتبديد سنت واحد.

بدأت ليتيسيا تهتمّ بباقي أرجاء البيت حين مضت تستكشف أسرار العلّية، فبين تلك الجدران يقوم المسرح الذي جرى فيه جزء كبير من حياة نادين ليلانك. ظنّت ليتيسيا أنها صارت أعلم الناس بها، وإن لم تدرِ عن أصول نادين شيئًا.

- لهذا البيت تاريخ. - حكى لها مستر بوغارت - لقد ابتناه مصرفيٌ ليجعله بيتًا صيفيًا، عندما كان السفر من سان فرانسيسكو إلى هنا بالسفينة ممكنًا. وبعد المصرفي شغلت البيت مالكة كازينو، ولكن

يبدو أن الحجرات العلوية قد اتُخذت مأخوذاً للرجال ذوي الشأن الذين يطالبون بالتكثف.

حكى لها أن البيت قد تحوّل إلى عيادة نفسية لمدمني الكحول والمخدّرات من مشاهير هوليوود لفترة غير طويلة. وبعد شرائه بوقت قصير صار البيت ملاذاً لضيوف نادين من المُشرّدين، نظراً إلى فائض المساحة. حتى كان أن سئم مستر بوغارت من الإنفاق على مجتمع العاطلين أصحاب الشعر الكثيف. عندئذ وقع الطلاق.

- حقاً؟ هل تطلّقتما؟ - سألته ليتيسيا عاجزة عن التصديق.

- أجل.

- وماذا كان من أمر كاميل؟

- عندما نفدت النقود، غادر الهيبي وسافرت نادين مع الطفلة إلى بوليفيا.

- ولماذا ذهبت إلى بوليفيا؟

- لدراسة النسيج. لأنها صارت تأخذ فنّ النسيج على محمل الجد بحلول ذلك الوقت. أمضت شهرين في بوليفيا، ثم ذهبت إلى غواتيمالا. المنسوجات هناك رائعة الجمال.

حكى لها أن زوجته قد وقعت في حبّ ذلك البلد وظلّت على اتصالٍ بالقرى التي مرّت بها، ولكنّ عدداً من تلك القرى قد دُمّرت بعد وقتٍ قصير في الإبادة الجماعية التي ارتكبتها الجيش والحكومة ضدّ مجتمعات المايا، وراح ضحيّتها مائتا ألف قتيلٍ ومليون ونصف من النازحين، وانمحت من الخارطة أكثر من ستمئة قرية. قُتلت أغلب مُعلّّقات نادين، كما قُتلت عائلاتهنّ ومجتمعاتهنّ أيضاً. في التسعينيات عادت نادين إلى غواتيمالا زائرة. ومنذ ذلك الحين كرّست نفسها

لتشجيع منسوجات ذلك البلد، فمضت تعرضها في المتاجر الحصريّة والمعارض الفنية، ثم ترسل الأرباح كاملةً إلى صانعات النسيج.

- ذهبتُ إليها في غواتيمالا، وأنا على يقينٍ من إمكانية البدء معًا من جديدٍ بعد أن ذهب أولئك الصعاليك الذين كانوا يعيشون على نفقتي. حالفني النجاح. وتزوجنا مرّةً ثانية. لم تكن الأخيرة.

- دعنا نرَ يا سيّدي، ماذا تقصد؟ - سألت ليتيسيا.

- لقد تزوّجتُ أنا ونادين ثلاث مرّات. الأولى والثانية في السجلّ المدنيّ، أمّا في المرّة الأخيرة فاكْتفينا بتجديد نذور الزواج. وفي كلّ مناسبةٍ كُنّا نتفق على الشروط الجديدة للعلاقة.

- ألم يقع أحدكما في حبّ شخصٍ آخر يومًا؟ - سألت ليتيسيا.

- بلى، ولكنّا قد استثمرنا في زيجتنا كثيرًا، ما جعل محاولة إنقاذها تستحقّ العناء. اسمعي يا ليتيسيا: يتغيّر الناس، وتتغيّر الزيجات أيضًا. لقد عشتُ أنا ونادين أطوارًا شتى. في الطور الأول كوّنا أسرة، ولكن تلك المرحلة قد انتهت بسبب الهيببي. أمّا في الطور الثاني، فكان كلانا يمرّ بأزمةٍ وجوديّة، ولذا اتّفقنا على الزواج المفتوح، الذي جاء كارثيًا. أمّا في الطور الثالث، فلقد نذرت نفسها لفنّها ونذرت نفسي لعملي. وهكذا أهمل كلانا العلاقة. كُنّا في طورٍ مُتقدّمٍ من العمر حين عرفنا الاستقرار أخيرًا.

- والحبّ أيضًا، على ما أفترض. أليس كذلك؟

- لقد أحببتها حبًّا جارفًا. كانت نادين امرأةً رائعة. أتذكرين؟

- بالطبع. أذكر أنّكما قد أقمتما حفلًا في الحديقة، ثم سافرتما إلى الأرجنتين. لا بدّ أنّ خمسة عشر عامًا قد مرّت، أليس كذلك؟

- بلى، كانت تلك آخر مرّة نجّد فيها الوعد بأن نظلّ معًا.

- لو لم تكن السيّدة نادين قد فارقت الحياة، لبات عليكما الزواج مُجدّدًا.

- بالتأكيد يا ليتيسيا. وماذا عنك؟ لم أسألك إن كان لديك حبيبٌ يومًا...

- تزوّجتُ ثلاث مرّات، وتطلّقتُ مرّتين، وترملتُ مرّةً واحدة. لا يُحسب للزوجين الأول والثاني أدنى حساب. أمّا الثالث فكان حبّ حياتي الحقيقي ووالد ابنتي، ولكنّ القدر قد انتزعه من بين يديّ قبل الأوان. مات فجأة، في أحد المتاحف.

- لم أعرف أنّك أرملة. - قال مُعقّبًا.

- ما زلتُ أحبّ ذلك الرجل، وسوف أحبه حتى الموت.

على مدى الأسابيع التالية توغلّت ليتيسيا في يوميات نادين، فألفت أسلوبها وتمكّنت من كشف طلاسَم كتابتها بصورة أفضل. عند ذاك اشتبهت في أن تكون الحروف الواردة في اليوميات التي دوّنتها خلال الأعوام الخمسة عشر الأواخر من حياتها لا تشير إلى أحد العشاق العابرين، كما سبق أن افترضت، بل إنّها كانت شفرة. وإذا بها تُصدَم عندما اكتشفت أنّه حتى أوصاف المنسوجات كانت شفرة: فكلّ لونٍ تذكره يشير إلى شيءٍ لا يمتّ بصلةٍ إلى النسيج. جاء الحرفان «ك. ت.» مُرفّقين باللون الأصفر في كثيرٍ من الأحيان. وبين الملفات التي احتفظت في داخلها نادين بمئات الرسوم وعيّنات الأقمشة من أجل تصميماتها - الملفات التي أغفلتها ليتيسيا في أوّل الأمر - عثرت على قصاصاتٍ من الصحف وصفحاتٍ من الكتب تتحدّث عن الهجرة

غير الشرعية. عرفت أن نادين قد أولت المسألة اهتمامًا: إذ قدّمت الدعم إلى أشخاص غير موثّقين وأسهمت بالعمل التطوعي والتبرّعات المُقدّمة إلى ملاذ الخليج الشرقيّ، تلك المجموعة التي اتّخذت لها مقرًا في قبو إحدى الكنائس. وهكذا تخيّلت ليتيسيا أن الشفرة على صلبة بتلك الأمور.

غلبها الفضول، فاتفّلت بكروس توريس في المكسيك. لم يكن أحدهما قد تحدّث إلى الآخر منذ عامين، ولكنّه ما كاد يسمع كلمة واحدة منها حتى ميّز صوتها. كان كروس توريس قد بلغ السبعين من العمر، ومّرت على عودته إلى المكسيك اثنتا عشرة سنة. استقرّ في پويبلا، حيث افتتح فندقًا صغيرًا للسائحين من أصحاب الموارد القليلة بالنقود التي ادّخرها على مدى الأعوام الطويلة التي أمضاها في العمل بالولايات المتّحدة. كان كروس قد هاجر إلى الشمال وهو في مقتبل العمر تاركًا زوجته التي حافظ على علاقته بها دائمًا رغم المسافة، وأنجب منها ثلاثة أبناء. ظلّ يسافر للقائها بين حين وآخر، وإن تباعدت الزيارات حين صعب عبور الحدود بصورة غير شرعية. كانت زوجته قد فارقت الحياة عندما رُحل كروس توريس من الولايات المتّحدة، ورجع إلى بلده بصورة نهائية، فعاش مع ابنته التي شاركته الإشراف على إدارة الفندق.

بعد أن أطلع كلّ منهما الآخر على مستجدّات حياته، أخبرته ليتيسيا بأنّها تعمل على ترتيب الأشياء التي تركتها نادين ليبلانك أخيرًا، بعد رحيلها عن الحياة بخمسة أعوام.

- معذرة يا دُون كروس، أتمنّى ألا تأخذ الأمر على محمل الإهانة، ولكنني قد أطلعتُ على الرسائل واليوميات التي تركتها السيدة نادين، حيث ورد ذكرك...

- تعرفين أننا كنا صديقتين .

- بل أكثر من مُجرّد صديقتين، أليس كذلك ؟

- لا يمكن السؤال عن ذلك . ما الذي تريد من معرفته ؟

- كانت نادين تساعد المهاجرين . لقد تحدّثتُ إلى راهبةٍ من ملجأٍ في بيركلي، فأخبرتني ببعض الأمور . لم أتمكن من الذهاب لرؤيتها بصفةٍ شخصيّة، ولكن ما إن تنتهي أزمة الفيروس حتى أذهب إلى هناك .

- يسرّني العلم بأنّ الأخت مورين ما زالت على قيد الحياة . إنّ تلك الأيرلنديّة لا تُقهر . بم أخبرتك ؟

- أخبرتني بأنّ السيّدة نادين قد أخذت بعض الناس إلى الملجأ، وبأنّها قد ساعدت في نقل المهاجرين من الحدود وإخفاء عائلاتٍ كاملةٍ عندما شنت الحملات على المهاجرين غير الشرعيّين . أعتقد بأنّها قد دوّنت في دفاترها الحروف الأولى من أسماء أولئك الأشخاص، وأشارت بالألوان إلى ظروف كلّ حالة . ماذا تعرف عن ذلك ؟

- افترض أنّك على حقّ، ولكنني لم أر دفاترها قطّ . - أجاب كروس .

- تظهر الحروف الأولى من اسمك باللون الأصفر .

- كنتُ أهرّب المهاجرين عبْر الحدود وأتركهم بالقرب من سان دييغو . لعلّ ذلك اللون يشير إلى النقل .

- ألا تراه شيئاً غريباً أن تلجأ نادين إلى الشفرة؟ يبدو وكأنّها كانت تلعب لعبة الجاسوسيّة .

- لقد اضطرّرتُ إلى توخّي الحرص يا ليتيسيا، إذ كانت بين أيديها مصائر وهويّات أشخاصٍ في موقفٍ بالغ الضعف .

- دُون كروس، أين تعرّفت بها؟

- في متحف مكسيكيّ بسان فرانسيسكو، خلال معرض فنّي عن المهاجرين عُرضت فيه أكياس من البلاستيك تتدلّى من السقف وتضمّ أغراضاً عُثر عليها في النهر، هناك حيث غرق كثير من المهاجرين وهم يحاولون الوصول إلى ضفاف الولايات المتّحدة. كان بعضهم من الأطفال. تأثرت نادين بشدّة لمرأى حذاء طفلٍ رضيع يطفو على صفحة الماء القذر في أحد الأكياس. بدأنا نتجاذب أطراف الحديث... لا بدّ أنّنا قد تعاقدنا على إجراء الإصلاحات في بيتها بعد ذلك اللقاء الأوّل بعام.

- وعندئذٍ ساعدتها أنت على الخوض في مسألة اللاجئين، أليس كذلك؟

- بل إنّها كانت تعمل مع الأخت مورين آنذاك، فجنّدتني للانضمام إليها. جاء كثير من أولئك المهاجرين من غواتيمالا، البلد الذي ارتبطت به نادين عاطفيّاً ومهنيّاً بسبب المنسوجات. وهكذا شملت الكثيرين بالحماية، وكرّست مواردها لذلك الغرض.

- لقد أمضت أعواماً طويلاً على تلك الحال، لا أفهم كيف لم يعرف زوجها من ذلك شيئاً.. قالت ليتيسيا.

- لقد فضّلت ألاّ يعرف حتى لا تعرّضه للخطر، لأنّ ما فعلناه آنذاك شيءٌ غير قانونيٍّ. ولكنّي أعتقد بأنّه لم يلقِ إلى الأمر أدنى بال، فهو منصرفٌ إلى الموسيقى تماماً. شرّ العميان أعمى لا يريد أن يرى. أليس كذلك؟ - قال كروس توريس.

- أتخيّل أنّك قد رُحلت لهذا السّبب يا دُون كروس.

- كلاً. لا شأن لذلك بترحيلي. لقد أُلقي عليّ القبض أنا وآخرين في إحدى حملات المداهمة. كانت لديّ بعض المشكلات القانونية: مخالفات بسبب قيادة السيارة تحت تأثير الكحول، وتوصيل الكهرباء بلا تصريح، وتهربُ ضريبيّ، وأشياء أقلَّ أهميّة، ولكنّها كافيةٌ لترحيلي. لقد أسفْتُ أشدَّ ما أسفْتُ لأنّني لم أستطع أن أودّع نادين حين مرضت. - أعتقد بأنّ من واجبي أن أخبر مُستخدِمي بما كانت تفعله السيّدّة نادين؟ - سألته ليتيسيا.

- ولماذا؟ اتركه في سلام. لو عرف لحزن لأنّ زوجته قد أخفّت عنه كلّ هذه الأسرار، ولم تسمح له بالمشاركة في نشاطها يومًا. أرى أنّها قد قبلت الاختلاف التام بينهما منذ بداية الزواج، وتخلّت عن فكرة مشاركته الهوموم.

- ولكنّها كانت زيجّة ناجحةً على الرّغم من ذلك. - قالت.

- بالتأكيد، مع الأخذ في الحسبان أنّهما استمرّا معًا حتى النهاية.

تعلّدت حياة ليتيسيا ومستر بوغارت عندما خطر له أن يصعد إلى العلّية. زلّت قدماه على الدرجة الثانية من السلم، فسقط والتوى كاحله. ظلّ ملقّى على الأرض، وانقطعت أنفاسه مُتأثّرًا بالخوف أكثر منه بالسقوط. سحبته ليتيسيا إلى الشاحنة بمشقةٍ بالغة، وحملته إلى قسم الطوارئ خشية أن يكون عددٌ من عظامه قد انكسر، أو أن يتعرّض لنوبة. استقبله طاقم الرعاية الصحية وقد تغطّت أجسادهم كاملة بثياب الجراحة الخضراء والقفّازات والكمادات والأقنعة البلاستيكيّة الشفّافة. حُظر عليها الدخول، فاضطّرت إلى أن تودّعه وهو محمولٌ على السرير النقال، وقد شحب حتى صار بلون الملاءة. وطوال الساعات الستّ التالية، ظلّ

مستر بوغارت تحت الملاحظة وخضع للفحص بالأشعة السينية، بينما رافقته ليتيسيا عبر الجوّال من مكانها في موقف المستشفى حتى نفدت البطارية. تورّم كاحله، ولكنّ عظامه لم تُصَب بالأذى. قال الطبيب إنّ علاجه الوحيد مُسكّنات الألم والراحة. ولكنها مضت تمسّد كاحله بدهانٍ من القنب أيضًا.

- هكذا صارت الماريجوانا تُسمّى الآن، يا للابتذال! ولكنّه مُسكّن للألم، كما أنه مشروعٌ أيضًا. لستُ مُضطرّةً إلى شرائه من مُهرّبي المخدرات. - أوضحت للمريض. لم تأسف ليتيسيا لما حدث، فهكذا يمكنها أن تحظى بالعلية لنفسها من دون أن يراقبها.

لم يُعد مستر بوغارت قادرًا على الخروج لتمشية پاكو، الشيء الوحيد الذي كان يدفعه إلى الخروج على قدميه قبل السقوط. كما بات عاجزًا عن التبدّل بقدميه على الدراجة الرياضية الثابتة أو قيادة الشاحنة. وهكذا بات من نصيب ليتيسيا العمل سائقةً، وتمشية الكلب في الخارج، فضلًا عن عملها مرافقةً ومديرةً منزل.

- نقضي وقتًا طويلًا جدًّا معًا، من المعجزات أن يحتمل كلّ منا الآخر! إنّ شهر العسل الذي أعيشه معك هو الأطول في حياتي. - قال ساخرًا. بهذا الإيقاع البطيء الذي تمرّ به الجائحة، سنظلّ محبوسين إلى الأبد. من جانبي، فليس لديّ أيّ مانع...

- كيف حال كاحلك؟ - قاطعته سائلة.

- كما هو. أمنعك من أن تذكر لي لكامل شيئًا، لأنّني أشم رائحة الفكرة التي تحدّثها بأن ترسلني إلى إحدى دور الرعاية. لو عرفت أنّني قد سقطت لاغتنمت الفرصة لتضغط عليّ. ترغب في بيع هذا البيت. لقد قدّمت الجامعة عرضًا لشراء الأرض نظير ثروة طائلة. ولكنّي لن

أخرج من هنا إلا في النعش، هل سمعتني؟ سوف تعتنين بي حتى النهاية، فأنتِ شابةٌ قويّةٌ. - قال لها.

- أجل، ولكنني لا أستطيع الدفاع عنك في وجه ابنتك، فأني سلطةٌ أملك؟ يمكن لكامليل أن تعلن فقدانك الأهلية.

- لا أنوي الإصابة بالخرف والنزول بإحدى دور الرعاية المُخصّصة للمُسنّين المجانين، حيث أتناول الجيلاتين وأجلس في انتظار الموت. - متم مستر بوغارت، ثم انفجرا صاحكَيْن وهما يتخيّلان ذلك الاحتمال. - ليتيسيا، أتدريْن؟ أنتِ أكثر معارفي مرحًا. تجدين كلّ شيءٍ مُسلّيًا، تغنّين في أثناء الطهو وتنظّفين الأرض بالمكنسة على إيقاع الرومبا.

- هكذا نحن، أهل السلفادور. قديمًا قيل عن السلفادور إنّه بلد الابتسامة. ولكنني أفترض أنّ الابتسامة كادت تختفي من الوجوه منذ اندلعت الحرب الأهلية.

- لا بدّ أنّك تعيشين حياةً هائلة.

- لا أشكو حالي لأنّني أعيش في سلام، ولكنني لم أعش هكذا دائمًا.

- كم مرّة على معرفتنا؟ - سألتها.

- عشرون عامًا. لقد أحضرني كروس توريس، المقاول الذي رمّم البيت. كنتُ شابةً حين بدأتُ في العمل معك أنت والسيدة نادين.

- ما زلتِ شابة.

- أبدو بمظهرٍ لائقٍ بالنسبة إلى سنوات عمري السبعة والأربعين، أليس كذلك؟ لا تظهر علينا الشيخوخة بمثل ما تظهر على أصحاب البشرة البيضاء. - أجابت ساخرة.

- صحيح يا امرأة. أعرفُ أنَّكِ تنبشين الأغراض الشخصية
لنادين. عمَّ تبحثين؟ - سألها.

- لا شيء، لا تقلق. أحاول التنظيف. أنت لا تذكر حتى الأشياء
التي تحتفظ بها في العلّية، هناك عالمٌ كاملٌ من المهملات. أعتقد بأنَّ
فتيات الليل اللاتي كنتَ تراهن في كلِّ مكانٍ يسكنَ هناك. هل تذكر؟
- اطلبي منهنّ النزول، فلن يزعهنَّ أحدٌ هنا. واطلبي منهنّ أن
يُحضرن نادين أيضًا.

مكتبة

t.me/soramnqraa

آنيٲا

ٲوكسان؁ إبريل - يونيو 2020

كان الملجأ أفضل . لا ٲروٲني دور الٲبني . أعتقد بأن الدار الجديدة أسوأ من ٲلك الخاصة بسنيوره ماريا؁ فالنزلاء كلهم من الأولاد؁ وكلهم عديمو الٲهذيب . يمشون وٲتهم في الشجار؁ وحتي كلمة «شكرًا» لا يقولونها . إنهم أشقياء جدًا . لو ٲولٲ ٲينا إءو أمرهم فمن المؤكد أنها قادرة على ٲهذيبهم في أقل من أسبوع واحد . وفوق ذلك؁ لا بد من الٲحدٲ بالإنجليزية هنا . لقد تعبٲ من الإنجليزية؁ الٲي ٲجعلني أحسّ وكأنّ في فمي منشفة . أمّا أنتِ فٲرفضين حتي الٲحدٲ بالإسبانية؁ كما ٲرفضين الطعام . إلى متى يا كلاوديا ! لم ٲعودي ٲفلة صغيرة . أنتِ كبيرة . لقد ٲردٲنا سنيوره ماريا بسبب نوبات الصراخ الٲي ٲصيبك . أٲريدين أن ٲنتهي بنا الحال ونحن نٲسؤل في الشارع ؟ الحقّ أنّ سنيوره ماريا لم ٲتحلّ بالصبر؁ ولم ٲحبٲني . أعتقد بأنّها قد كرهٲني . لم نُٲرد بسببك يا كلاوديا؁ فأنٲ ٲفلة هادئة جدًا . والأفضل أنّا قد غادرنا ذلك المكان .

كانت طبيعة النفس تتحدّث الإِسْبانيّة، ورفضت أن تسمح لميس سيلينا بالدخول إلى مكتبها معي. أعارَتنِي بعض الدُمى حتّى ألعب بها قليلاً، فأخبرتها بأنّ ذلك شيءٌ يليق بالأطفال الصغار، وأنا سأتمّ الثامنة من العمر. عندئذٍ قالت إنّنا سوف نتجاذب أطراف الحديث، لا أكثر. سألتني عن ديدي، وعنكِ أنت، وعن الحياة التي عشناها قبل ذاك، وعن حياة ماما. كما سألتني عن دار سنيوره ماريا، وعن بلل الفراش، وعن مسألة الخزانة، مع أنّني لم أثرثر مع أحدٍ عن ذلك. لا أدري كيف عرفت. اضطرّرتُ إلى أن أخبرها بأمر «الثّلاجة»، وبما جرى حين أخذوا ماما وانتزعوني منها بالقوّة وأرغموني على ركوب الأتوبيس مع أنّني رحّْتُ أركل وأصرخ وأصرخ. لا يروقني أن أتذكّر ذلك، لأنّه يُشعِرني برغبةٍ في البكاء. والبكاء مع طبيبات النفس ليس جيّداً - كما سبق وتعلّمت حين التقيتُ طبيبةَ النفس بالمدرسة - ، لأنّه يصيبهنّ بالتوتر. بعد ذلك طلبت منّي ميس سيلينا ألا ألقى، وقالت إنّني سوف أنقل إلى دارٍ أخرى.

ولكن حتّى الدار الجديدة لم تعجبني، مع أنّ صاحبته أفضل من سنيوره ماريا. قالت لي صاحبة الدار الجديدة إنّنا سوف نجتمعنا علاقةً طيّبةً جدّاً، فلطالما أرادت أن تكون لها ابنة، ولكنّ الرّب لم يعطها ما أرادت. قالت إنّني سأكون في مقام ابنتها. أوضحتُ لها إنّ ذلك شيءٌ غير ممكن، لأنّ لي ماما حقيقية. ولا أستطيع أن أناديها «ماما»، أو حتّى «عمّة»، لأنّ ذلك شيءٌ غير مألوفٍ هنا. أذنت لي بأن أناديها باسمها، سوزان. ولكنّي أجد من الوقاحة أن أناديها باسمها. أمّا زوجها، فلا يجب عليّ أن أناديه «بابا» أو «عمّ»، بل «مستر ريك». من باب الاحترام، كيلا يغضب. أمّا أولئك الأولاد فليسوا إخوتي، والأفضل ألا أتحدّث إليهم أبداً.

لا بدّ من مضغ تلك الأقراص الوردية وابتلاعها، لأنّها فيتامينات. ليست مُقرّزة. يجب عليّ أن أغمض عينيّ مُتظاهراً بأنّها مصاصة بمذاق الفراولة أو الكراميل. تقول سوزان بضرورة أن أكل أكثر وأتناول الفيتامينات لأنني في غاية الهزال ولن أنمو بهذه الطريقة. ليس ذنبي أنّ مذاق الطعام غريب. قالت سوزان إنّها لم يسبق أن رأت طفلاً لا يحب الشطائر، ووعدت بأن تبحث عن وصفة فطائر البوبوسا عبر الإنترنت، ولكنّي لا أعتقد بأن تفي بوعدّها، فليس لديها مُتسع من الوقت، كما أنّها لا تجيد الطهو، لا تجيد سوى إعداد الشطائر. قالت إنّ الفيتامينات ضرورية. ولكنّي لم أتلق الأمصال إلّا مرّة واحدة، حين جئتُ إلى الشمال. ولستُ في حاجةٍ إلى مزيد من الأمصال. تناولني القرص وتراقبني حتى أبتلعه. يجب عليّ أن أفتح فمي لترى أنّني لم أخفِ القرص تحت لساني. ولكن كيف أخفيه؟ إنّهُ قرصٌ كبيرٌ جدّاً.

يجب عليّ أن أفعل كما تقول المُعلّمات عبر برنامج زوم، لأنّ الدراسة في المدرسة مُعلّقة. بسبب الفيروس. أفضّلت المدارس وأرغم الأطفال كلّهم على الدراسة من البيت، ولهذا يبقى هنا أولئك الأولاد - الذين هم ليسوا إخوتي - ويقضون يومهم كاملاً في إزعاج الآخرين. لا تستطيع سوزان السيطرة عليهم، فهم يفعلون ما يحلو لهم، ولا يدرسون أبداً، بل إنّهم يمضون وقتهم في اللعب بألعاب الفيديو ومشاهدة التلفزيون. لا يحسنون الأدب إلّا حين يصل مستر ريك، لأنّهم يهابونه حقّاً. مستر ريك هو السلطة في هذا البيت. يحاول أن يتودّد إليّ، ولكن بلا جدوى.

لا أرى بوضوح عبر زوم، أو بمعنى أصحّ لا أكاد أرى شيئاً. ولكنّي أسمع ما تقول المُعلّمة. الدروس للأطفال الصغار. لقد أوضحتُ لسوزان أنّني شبه عمياء، ولكنّي لستُ جاهلة. يمكنني الالتحاق بفصلٍ لأطفالٍ

في مثل عمري. كما أُنّني أفهم الإنجليزِيَّةَ بالقدر الكافي. يجب على ميس سيلينا أن ترتّب تلك المسألة، لأُنّني لا أتعلم شيئاً في الوقت الحالي، بل إنّني أهدر وقتي.

مستر ريك يعمل في البريد، ولهذا يخرج كلّ يوم. بعض الناس يمكنهم الخروج للعمل، ولكن بالكمامة. والبريد مثل شاحنة القمامة وسيّارة الإسعاف، يجب أن يستمرّ دائماً. تنبعث من مستر ريك رائحة غريبة. لم أكن أُنّني إلى روائح الناس قبل الحادثة، إلّا في حالة الروائح الكريهة جدّاً. أمّا الآن، فصرت قادرةً على تمييز كلّ شخص من رائحته. على سبيل المثال، أعرف لِمَنْ كلّ قميصٍ عندما أضع الثياب في الغسّالة. لكلّ أولئك الأولاد رائحة كريهة. ولكنّها ليست رائحة واحدة، بل إنّها تختلف من شخصٍ إلى آخر. قالت تيتا إدو إنّني أصبحتُ مثل الكلاب، ويمكنني الحصول على وظيفةٍ في المطار للإيقاع بمهرّبي المخدّرات. لبعض الناس رائحة البهجة والطيبة، ولبعضهم رائحة الشرّ. لسوزان رائحة الصبر، والحزن أيضاً. أمّا مستر ريك فله رائحة شيءٍ محترقٍ في قاع القدر. ربما كانت تلك هي رائحة البريد.

لقد أخبرتني ملاكي بأنّها مختفيةٌ عن الأنظار، وبأنّها تجد صعوبةً كبيرةً في الظهور أحياناً. ولكنّها طمأنتني وطلّبت منّي ألا أقلق. لأنّها قريبةٌ منّي دائماً، وتعرف رغبتني في أن أكون مع ماما. وهي تعمل على ذلك، مثل فرانك. كما أعطتني فكرةً رائعةً لمسألة الحزن، فقالت لي إنّ في إمكاني الاختفاء عن الأعين بدلاً من البكاء. حتى ذلك الشيء في غاية الصعوبة. لا بدّ من التركيز بقوة. كما تفعل الملاك حتى تظهر، ولكن بالعكس. سوف أعلمك كيف تفعّلينها يا كلاوديا. نستطيع أن نتدرّب معاً عندما نصبح وحدنا.

الاختفاء عن الأنظار شيءٌ مفيدٌ جدًا، لأنَّ من الممكن استخدامه في أغراضٍ كثيرة. مثلاً، عندما يبدأ في إزعاجي أولئك الأولاد - الذين هم ليسوا إخوتي - يمكننا التركيز والاختفاء عن الأنظار بدلاً من الاشتباك معهم. لا جدوى من الاشتباك معهم لأنَّهم أكبر عمراً. ومتى اختفينا لا يمكنهم أن يتعرَّضوا لنا مطلقاً. كما أنَّ الاختفاء مفيدٌ عندما لا نريد أن يتحدَّث أحدٌ إلينا، أو عندما نشعر بالخوف.

أمَّا لو تعرَّض لنا مستر ريك أو أحد الأولاد الأكبر عمراً أو أيَّ رجلٍ باللمس في المنطقة السفليَّة، كما فعل ذلك المدعو كارلوس ذات مرَّة، فيجب علينا ألاَّ نختفي أبداً، أبداً، في تلك الحالة. لا يمكن لأحدٍ أن يلمسنا. هكذا علَّمتني تيتا إدو. لو لمسني أحدهم، فيجب عليَّ أن أصرخ بأقوى ما أستطيع. وأنتِ أيضاً يا كلاوديا، أتعدينني بذلك؟ لا شأن لمستر ريك بي عندما أكون في الفراش. سأظلُّ مستيقظةً قدر الإمكان للمراقبة، فربَّما كانت ملاكي الحارسة تحتاج إلى المساعدة في ذلك. أمَّا لو رأيتُ مستر ريك أو أيَّاً من الأولاد الكبار قرب فراشي، فإنَّني سوف أصرخ وأصرخ. يجب عليك أن تفعلني بالمثل. ليس صحيحاً أنَّنا سوف نُلقَى في الشارع لو صرخنا أو أخبرنا أحدهم بما يجري. ولو طُردنا إلى الشارع سنُتَّصل بميس سيلينا. لديَّ رقمها، ويمكنني الحصول على جوال. ولديَّ رقم فرانك أيضاً، غير أنَّه يعيش في مكانٍ أبعد، وقد يستغرق وقتاً طويلاً للوصول.

لا شيء في هذه الدار، دار التبني، أو أيَّاً كان اسمها، سوى الضوضاء والمزيد من الضوضاء. لا أتحملُ كلَّ هذا الصخب. أسوأ الأشياء التي حدثت لنا هنا، في الشمال، هي تلك «الثلاجة» التي أخذوا ماما إليها. تليها في قائمة أسوأ الأشياء: هذه الدار. تقول سوزان إنَّها لم تُعدَّ تحتل المزيد، وإنَّها قد سئمت فوضى الأولاد، وإنَّها لو تولَّت رعاية

فتياتٍ صغيراتٍ مثلي لصارت حياتها أسهل كثيرًا، فأنا لا أثير الفوضى، بل إنني أساعدها في النظافة والغسيل . قالت إنها مكتئبة ومتعبة . أعتقد بأن ذلك هو السبب الذي يجعلها تقضي يومها في الأكل ومشاهدة التلفزيون مستلقيةً على الفراش . أمّا هذا البطن الضخم، فلم ينتفخ بشدة لأن فيه طفلًا صغيرًا! انظري إلى الفوضى التي تعم المكان! أتعثّر في طريقي بالأشياء المُلقة أرضًا . كلُّ شيءٍ لزج . دعي عنكِ ذكر الحمام! الرائحة مُقزّزة، تجعلني أحسّ برغبةٍ في القيء . لو رأت تيتا إدو هذه الأشياء لأصيّبت بأزمة . لم تعد سوزان تقوى على شيءٍ سوى الشجار مع زوجها . تترقّب وصوله حتى تنفجر صارخةً في وجهه . يبدو لي أنها تحبّني، ولكنها لا تستطيع أن تحميني . لا بدّ أن أبقى منتبهةً كيلا يحاول الأولاد الأكبر مني الاستحواذ على يدي أو الاشتباك معي . لا بدّ أن أبقى منتبهةً حتى أختفي عن الأنظار متى وصل مستر ريك .

كلاوديا، هل رأيت؟ لقد نجحت حيلة الفجوة! إنّ تلك الفجوة الصغيرة في الجدار تحديدًا هي الموضع الذي كنتُ أحتاج إليه حتى أترك الرسالة لملاكي الحارسة . لقد وفّت بوعدها بأن تُخرجنا من دار التبني . سوف نرحل عن هنا أخيرًا . لقد أخبرتني ميس سيلينا بأننا سوف نبقى هنا لفترةٍ قصيرة . ولكنّي أعتقد بأننا قد أمضينا هنا ثلاثة أشهر، أو ثلاثة أعوام، لم أعد أذكر . لقد أمضينا في الشمال وقتًا طويلًا، لأنّ الطقس قد تغيّر كثيرًا، والحرّ الآن صار أشدّ منه في السلفادور، ولكنّ الهواء جافّ . والمطر لا يسقط . أتذكرين صوت المطر؟ كان أقوى من صوت الدشّ . ينقسم العام هنا إلى ربيعٍ وصيفٍ وخريفٍ وشتاء، ولكن من الصعب أن نفرّق بين تلك الفصول . لقد قسّمناها حسب الحرارة: كان الطقس حارًا عندما وصلنا . ثم أصبح على قدرٍ من البرودة

حين ذهبنا إلى الملجأ. ثم عاد حارًا مرّةً أخرى ونحن في دار سنيوره ماريا، ولكن بقدرٍ أقلّ. أمّا هنا، في دار سوزان، فلقد صار الطقس شديد الحرارة. أجل، لقد مرّ وقتٌ طويل، هذا شيءٌ مُؤكّد. لا بدّ من التحلّي بالصبر. إنّها الحياة.

ما زلنا في انتظار ماما. يبدو لي غريبًا ألاّ تحضر ماما لتأخذنا، بل إنّها لم تتّصل حتى بنا. لا بدّ أنّ المكان الذي ذهبت إليه بلا هواتف. عندما تتمكّن ميس سيلينا من التحدّث إلى ماما سوف تخبرها بمكاننا. لسنا تائهتين يا كلاوديا. لا يجدر بنا أن نخاف، كلُّ ما في الأمر أنّنا قد افترقنا عن ماما. على الأقلّ يمكننا الاتّصال بتيتا إدو بين حينٍ وآخر. يجب علينا ألاّ نخبرها بأمر مستر ريك لأنّها بعيدة، ولا أريد أن أغرز في قلبها سكينًا.

إنّ ما جرى مع مستر ريك شيءٌ جيّد جدًّا يا كلاوديا. لقد عرفتُ أنّ ذلك سوف يقع، وأحسستُ به هنا، في بطني، وكأنّه فكرةٌ عالقة. إنّهُ الإحساس الذي راودني عندما اقترب منّي وأعطاني الحلوى وأخذ يلاطفني. لم يفعل شيئًا من ذلك مع باقي الأطفال. إنّهُ رجلٌ شرير، مثل كارلوس. أعرف أنّني قد خفتُ بشدّة. ولكن حتى ذلك شيءٌ جيّد، فالآن نُنقل إلى مكانٍ آخر، لا إلى دار للتبنيّ مثل هذه الدار أو دار سنيوره ماريا. لقد وفّت ملاكي الحارسة بهذا الوعد، والآن ينقصها أهمّ شيء: العثور على ماما. ميس سيلينا لا تتكلّم عن العثور على ماما أبدًا، ولكنّي لستُ بلهاء. لقد لاحظتُ أنّها لا تعرف مكان ماما، لأنّها لو عرفتْ لاتّصلتْ بها.

دخل مستر ريك إلى الحجرة في صمّ مطبق. أيقظتني رائحة البريد، ولكنّه كتم فمي قبل أن يسعفني الوقت لعمل أيّ شيء. وإذا

به ينقض عليّ ويبدأ في شدّ سروالي الداخلي بيده الأخرى، بينما راح يلهث كالكلاب، ويقول لي إنه سيعطيني كلّ ما أريد لو بقيت هادئة، وإلاّ فإنه سوف يخنقني. عجزتُ عن الحركة والتنفّس، وكدتُ أموت مختنقة، بينما راح هو يباعد ما بين ساقَيّ، ويدسّ بينهما شيئاً. عند ذاك استطعتُ أن أعضّ يده، وبدأتُ أصرخ بكلّ ما أملك، كما علّمتني تيتا إدو. «سوزان! سوزان! Help! النجدة!». انتفض مستر ريك، ولكن يبدو لي أنّه قد تعرّث في سرواله القصير. تابعتُ صراخي، فاستيقظ كلّ من في الدار. لا أدري كيف حضرت سوزان في أقلّ من دقيقة واحدة، وزوجها لا يزال مُلقًى على الأرض. بعد ذلك قلتُ الحقيقة، فغضبت سوزان أكثر من أيّ وقتٍ مضى، بينما غادر مستر ريك وصفق الباب خلفه. لهذا السبب وصلت ميس سيلينا في الصباح الباكر. أعتقد بأنّ سوزان قد اتّصلت بها. من حسن الحظّ أنّك لم تنتبهي إلى شيء ممّا حدث يا صغيرة، فأنت الوحيدة التي لم تستيقظ على صراخي.

مستر بوغارت

بيركلي، يونيو - سبتمبر 2020

في حياته الطويلة رأى صامويل أدلر مُدناً دُمِّرَتها الحرب، ولكنه لم يرَ شيئاً كمشاهد الجائحة: الشوارع والأبنية المهجورة الخالية من كلِّ نفسٍ في نيويورك وروما وشانغهاي... بدا الأمر وكأنه كارثة من كوارث الخيال العلمي. اتَّخَذَت إجراءاتٌ مُشدَّدةٌ لمكافحة الفيروس في كاليفورنيا. أمّا في باقي الولايات فصدرت تعليماتٌ مُبهمّة، بينما اتَّخَذَ كلُّ حاكمٍ أو عمدةٍ قراراته بما يوافق التيارات السياسيّة المحليّة، بلا أدنى اعتبارٍ للعلم. مضى صامويل يشاهد مظاهر توقُّف الحياة في العالم على شاشة التلفزيون، ويتشَمَّم رائحة الأدخنة الآتية من الحرائق القريبة التي اجتاحت ملايين الهكتارات من الغابات في صيف ذلك العام، وهو مُرغمٌ على البقاء في بيته خلال الحجر الذي ما زال مُستمرّاً منذ عدّة أشهر. في بعض الأحيان كانت كثافة الدخان تشتدّ حتى يغدو كالضباب، وتبدو أشعّة الشمس مبهمّةً ضاربةً إلى اللون البرتقاليّ في

السماء الحمراء. أخبر ليتيسيا بضرورة الاستعداد لإخلاء البيت في أي لحظة، وبضرورة الاحتفاظ بمستندات الهوية وبعض المال نقدًا، وتعبئة الشاحنة بالوقود والأغطية وقوارير الماء والغذاء للكلب والبيغاء... باختصار: الأشياء الضرورية باختصار.

- لو شاء لنا القدر أن نحترق حتى الموت، فلا أرى فائدة من تلك الاستعدادات. - أجابته.

- اسمعي ما أقول لك يا امرأة، ودعي عنك الإيمان بحتمية القدر.

- سنرى أيهما يقتلنا أولًا، الفيروس أم الحرائق.

- لا أخشى أن يقتلني الفيروس، لأنّ كلينا يعتني بنفسه جيدًا. ولكنني أخشى أن يسرق مني الوقت المتبقي لي في الحياة، وأن يجعلني شيخًا عاجزًا. لقد توقّفت التحدّيات التي أبقتني في كامل قواي العقلية حتى الآن، كالموسيقى والمحاضرات. أمّا مشروع السفر إلى جزر غالاباغوس وجزيرة الفصح، فلقد ذهب أدراج الريح.

- هكذا أفضل. ما دام الغرض أن تشاهد السلاحف والتماثيل، فالأفضل أن تبقى هنا. يجب عليك أن تعتني بنفسك.

أدرك صامويل أنّ أبناء جيله يفارقون الحياة شيئًا فشيئًا، وأنّه لم يبقَ له سوى معارف قلائل من أبناء جيله. كان الموت في الماضي شيئًا يصيب الآخرين، ولكنّه بات يحسّ بالموت يلاحقه وينهش كاحليّه في الشهور الأخيرة. تسارعت وتيرة الشيخوخة منذ فقد زوجته. بات يكشر من التفكير في خاتمة المطاف، وفي احتمال الوصول إلى النهاية فجأة، فلا يسعه الوقت لترتيب حياته. وهكذا يترك خلفه الكثير من الآثار الواضحة، كما فعلت نادين. ولكنّ شرّ الآثار هي تلك التي لا يعرفها سواه: النفايات العاطفية، والندم، والخزي، والخبث. مضى يتدرّب كل يوم على

التعبير عن الامتنان وتجاوز الأحقاد. الأمر الذي تعلّمه من نادين، ولكنّه لم يبدأ في تطبيقه إلّا في الأعوام الأخيرة، حين لم تُعد نادين هناك حتى تأخذ بيده وتهديه عبْر تلك الطريق. كانت زوجته تحضر لزيارته بين حين وآخر، وكأنّها دفقة مفاجئة من الريح، فيتجمّد مكانه ويقطع أنفاسه حتى لا يخيفها. وفي صمتٍ يطلب منها أن تبقى معه أطول قليلاً.

ألمه كاحله وبات يسير مائلاً، بخطى عرجاء، بسبب الحذاء الطبيّ. غير أنّه قد أمسك عن ذكر متاعبه الصحيّة، وصار يغضب من ليتيسيا إذا أولّته من العناية أكثر ممّا ينبغي. سلّبت السقطة عن السّلم شيئاً من الطمأنينة، فبات يتوخّى الحذر في الحركة، ويفتقر إلى الجرأة على قيادة الشاحنة، ويخاف ألاّ يتمكّن من العودة إلى قيادة الدراجة في الهواء الطلق أبداً. أ تكون بداية النهاية؟ حتى متى يقدر على مقاومة تدهور الجسد المحتوم؟ وتدهور العقل؟ فجأةً صارت تغيب عن ذهنه كلمة، فكرة، اسم، فيجتاحه الخوف من النسيان، ومن ذلك الاحتمال المروّع، احتمال أن يظلّ على قيد الحياة عاجزاً عن التفكير أو التذكّر. طبقاً لتقديراته، يمكنه أن يتجاوز التسعين من العمر لو تحمّل قلبه ولم يُصَب في حادثة، ما يعني أنّ لديه قرابة ألف وخمسمئة يومٍ من أيام التقويم. ليس هذا بالوقت الطويل، والزمن يمضي سريعاً كما تتسلّل الرياح. بل إنّّه قد أمضى أكثر من مئة يومٍ حبيباً في بيته، في واقع الأمر.

- لولاكِ أنتِ والفتاة الصغيرة وياكو ل بقيتُ أشدّ وحدةً وكأبةً من المحكومين بالإعدام. - أخبر ليتيسيا.

- ولا تنسِ بانتيتشو. - أجابت.

لم يستلطف صامويل ببغاء ليتيسيا، ذلك البغاء مدمن الكحول الذي يستغلّ أدنى بادرة سهوٍ حتى يدسّ منقاره في كأس الفودكا

الخاصة بصامويل، ثم ينطلق مُنتَفِشَ الريش، مُتَخَبِّطًا في الجدران.

- سوف تحتاج إليك الفتاة الصغيرة لما لا يقلّ عن عشرة أعوامٍ أخرى يا مستر بوغارت، فإيّاك وأن تفكّر حتى في الموت.

في البدء تلقت ليتيسيا اتّصالًا هاتفيًا من شخصٍ يُدعى فرانك أنجيليري، قدّم نفسه بصفته محاميًا، وقال إنّه قد تولّى الدفاع عن الطفلة القاصر أنيتا دياس. أجابت ليتيسيا بأنّها لا تملك أدنى فكرة عن تلك المدعوة أنيتا، وأغلقت في وجهه. ما هي إلّا ثلاثون ثانية حتى عاود الرجل الاتصال، فأغلقت ليتيسيا في وجهه مُجدّدًا. اتّصل مرّةً ثالثة، فردّ صامويل طالبًا منه أن يفسّر كلامه. قال الرجل إنّه يحتاج إلى أن يتكلّم مع ليتيسيا كورديرو بشأن مسألةٍ عائليّة. عند ذاك التقطت ليتيسيا السماعة الأخرى، وأنصت كلاهما إلى حديث المحامي، بينما هي تزداد توترًا وهو يزداد فضولًا.

- إنّها طفلةٌ أتمّت الثامنة من العمر في الآونة الأخيرة. جاءت من السلفادور مع أمّها إلى معبر نوغاليس في أكتوبر من العام الماضي. أرغمت أنيتا على مفارقة أمّها، ثم أرسلت إلى ملجأ. وحين تعذّر جمع شملها بالأمّ أو غيرها من الأقرباء، نزلت الطفلة بدار للتبني مؤقتًا. لم تكن مثاليّةً لحالتها، فنُقِلت إلى دارٍ أخرى، ثم...

- أنا لا أعرفها. - قاطعته ليتيسيا.

- انتظري لحظةً يا ليتيسيا. دعينا نسمع باقي القصة. - قال لها صامويل.

- لقد تحقّقنا من صلة القرابة التي تجمع والد الطفلة بليتيسيا كورديرو.

- أين هو الآن؟ - سأله صامويل .

- لقد مات عام 2015. اسمه بالكامل : روتيليو دياس كورديرو. في السلفادور يأتي اسم عائلة الأب (أي «دياس»، في هذه الحالة) قبل اسم عائلة الأم، الذي قلّما يُستخدم .

- آه! لهذا تحمل الطفلة اسم عائلة دياس .

- بالضبط! أتعرفين روتيليو دياس يا سيّدة كورديرو؟ - سأل المحامي ليتيسيا .

- سيّدي، أعيش هنا منذ كنتُ طفلةً صغيرة. لم تجمعني أيّ صلةٍ بأقربائي في السلفادور. - أوضحت له .

- ولكن، هل تعتقدين بأنّ هذه الطفلة قد تكون من عائلتك؟

- لا أدري... كيف توصّلتُم إليّ مكاني؟

أوضح لها فرانك أنجيليري أنّه قد استعان بخدمات أحد المُحقّقين الذين يعملون لحساب شركة المحاماة، وهو خبيرٌ مُتخصّصٌ في اكتشاف الآثار والأدلة والعثور على الشهود والأشخاص محلّ الشبهات. لم يكن لديهم سوى معلومةٍ وحيدة: أنّ ماريسول دياس، قبل انقطاع الاتصال بها، قد ذكّرت ابنة عمومة لها تعيش في كاليفورنيا وتُدعى ليتي أو ليتيسيا. تعذّر العثور على أحدٍ يشترك مع ماريسول في اسم عائلتها الأوّل أو الثاني: أندراي أو دياس. وهكذا اتّصل المُحقّق بالجدّة إدوبيخيس في السلفادور، واكتشف أنّ اسم عائلتها كورديرو، ما يعني أنّه اسم العائلة الثاني لزوج ماريسول الراحل. شرع المُحقّق يبحث عن ليتي أو ليتيسيا كورديرو، على أمل أن تكون لديها أوراقٌ ثبوتيةٌ وإلاّ ما تمكّن من العثور عليها.

- استغرقنا وقتًا طويلاً، ولكنَّ الحظَّ قد ابتسم لنا. - ختم المحامي حديثه.

- لم يُعدُّ أحدٌ يدعوني لِيَتِي. هكذا كنتُ أدعى في طفولتي. - غمغمت ليتيسيا.

- أتريدين التعرفُ بابنة قريبتك؟

- لا أدري...

- ماذا جرى للأمِّ؟ - سأل صامويل.

- لقد اختفت. نعتقد بأنَّها قد رُحِلَت.

- اختفت؟

- لم يَرها أحدٌ في السلفادور. ربما رُحِلَت إلى بلدٍ آخر. تختلط الأمور في بعض الأحيان. وببساطة يُرسل كثيرون إلى المكسيك، مع تعليماتٍ بالانتظار إلى حين استدعائهم للمثول أمام القاضي، الأمر الذي قد يستغرق شهوْرًا أو حتى أعوامًا. هناك مخيّماتٌ للاجئين على الجانب الآخر من الحدود، حيث يعيش عشرات الآلاف من الأشخاص في الخيام، في ظلِّ أوضاعٍ مزرية.

- أعرف. أقرأ الصحف.

- لا يعرف الناس ولو نصف ما يحدث هناك.

- سيّد أنجيليري، خلاصة القول إنَّ آيتا بلا أمٍّ ولا أبٍ في الوقت الحالي، أليس كذلك؟ - سأل صامويل.

- بالفعل يا سيّدي. وفي أثناء البحث عن أمّها، تلك المهمّة التي تبدو في غاية الصعوبة، سيكون من المفيد جدًّا أن يتولّى أمر آيتا أحد

الأقرباء. أسيّر في إجراءات اللجوء النهائي لها، وأبحث عن الطريقة المناسبة لجمع شمل الأم والابنة. ولكن ربّما استغرق ذلك وقتًا غير قليل، ولا سيّما الآن في ظلّ الجائحة. أنيتا طفلة ذكيّة ومهذّبة ومحترمة.

خيّم الصمت قرابة دقيقة، بينما راحت ليتيسيا تجفّف دموعها وأخذ صامويل يفكّر في ماضيه. وإذا بتلك الصور الأليمة التي ظلّ محتفظًا بها في خزانة سرّيّة من خزائن القلب تداهمه كالسيل المنهمر: الصرخات، الدخان، الخوف، أمّه الجميلة التي استبدّ بها الحزن وهي توّدعه في محطة القطار، الكولونيل فولكر العجوز في زيّه العسكريّ وهو يثبّت نوط الشجاعة السّحريّ في معطف صامويل الذي ظلّ محتفظًا بالنوط مع الكمان بعد ثمانين عامًا مضت. بدّل صامويل آلتة الموسيقى عدّة مرّاتٍ خلال مسيرته، وإن ظلّ نوط الشجاعة وصورة أبويّه في حقيبة الكمان دائمًا. وعلى الرّغم من ذلك، فلقد عجز عن استحضار ذكرى أبيه، الذي ظلّ غائبًا طوال الأيّام الأخيرة قبل أن يُرسل صامويل إلى إنجلترا. هل أحبّه أبوه بقدر ما أحبّته أمّه (كما تأكّد له بالفعل)؟ كاد ينسى كلّ ما سبق تلك الليلة المروّعة، ليلة الزّجاج المُحطّم. ولكن، هل كان طفلًا سعيدًا قبل تلك الليلة؟ هل طمس الأعوام الخمسة الأولى من حياته عمدًا، أو أنّه ببساطة كان أصغر ممّا يسمح له بأن يتذكّرها؟ مضى صامويل يتساءل. أنيتا الآن أكبر ممّا كان هو حين أرغم على مفارقة أسرته. لن تنسى أنيتا شيئًا.

- كنتُ أوّد لو شرحتُ لكما الوضع بصفةٍ شخصيّةٍ وأطلعْتُكما على المستندات وبعض الصور، وإن تعذّر ذلك بسبب الفيروس. - ختم أنجيليري كلامه.

- أمهلنا لحظة، من فضلك. هل يمكنك الاتّصال خلال عشر دقائق؟ - طلب منه صامويل.

أمضى الدقائق العشر في إقناع ليتيسيا بأن واجب كليهما يقتضي مساعدة تلك الطفلة التي عانت أكثر ممّا ينبغي. قريبةً كانت أم لم تكن، سيّان. لقد أعطاهما القدر فرصةً لعمل شيءٍ من أجلها. ولو امتنعا عن المساعدة إيثارًا للراحة، لبات ذلك عارًا لا يُغتفر.

- لدينا فائضٌ من المساحة. انظري إلى حجرات البيت كلّها! -
قال مُحْتَجًّا.

- ومن يتولّى أمر تلك الطفلة الصغيرة؟ أنت؟ - سألته.

- سوف يتولّى كلانا أمرها.

- لقد نسيّت ما الذي تعنيه رعاية الأطفال يا مستر بوغارت. أضف إلى ذلك أنّ هذه الطفلة مُصابةٌ بصدمة، وتفتقد أمّها. لقد انتزعت من كلّ ما تعرفه، انتزعت من العائلة والأصدقاء والمدرسة والحَيّ واللغة. هل تتخيّل؟

- أتخيّلُ على أكمل وجه.

- إنّها مشكلة. مسكينة...

- بالضبط يا ليتيسيا: مسكينة. دعينا نخبر أنجيليري بالموافقة، وبعد ذلك نرى كيف ندبّر أمورنا.

- عدني بأنك لن تتذمّر، مهما حدث. متى وصلت هذه الطفلة إلى هنا، فهي لن تذهب إلى مكانٍ آخر ما لم تُعد إلى أمّها. حسنًا؟
- أعدك.

وهكذا بدأت تلك المغامرة. بعد يومين رتّب أنجيليري اجتماعًا عبّر زوم مع أنيتا دياس وسيلينا دوران، التي قدّمها بوصفها المرشدة

الاجتماعيّة التي تعرف الطفلة أفضل من الجميع. لاحظ صامويل تعلّقها هي والمحامي بالطفلة التي لن يهدأ لهما بالّ حتى يعثرا على أمّها. لم يَكُن أنجيليري قد ذكر لهما أنّ أنيتا عمياء، فلم ينتبها إلى ذلك في أوّل الأمر لأنّ الصورة تبدو رديئةً عبْر زوم. ولكن سرعان ما ظهر الأمر بوضوح، فانهارت دفاعات ليتيسيا الأخيرة أمام ذلك العنصر الحاسم.

أثارت الطفلة في نفس صامويل أمواجًا عاتيةً من الذكريات الأليمة، فأحسّ بقلبه ينشقّ في صدره. كان يعاني من اضطراب ضربات القلب، تلك الحالة المزعجة التي لا يستفيد المرء كثيرًا بالانتباه إليها. ولكنّه قد اكتسب عادة جسّ شريان العنق لقياس نبضه والإنصات إلى ضربات قلبه. مضّت الفجوة في صدره تتّسع أكثر فأكثر، وكأنّها فمٌ يتثاءب خلال نصف الساعة التي أمضاها في النظر إلى صورة أنيتا على الشاشة، تلك الطفلة الهشّة الصغيرة بقدر ما كان صامويل في مثل عمرها.

- متى تحضر الصغيرة؟ - وجّه سؤاله إلى سيلينا دوران.

- خلال أسبوعين. سوف أذهب لأتركها في بيتك. لقد أجرينا فحص الكوفيد 19، ف جاءت النتيجة سلبية. ولكنّا سوف نبقى في الحجر الصحيّ على سبيل الاحتياط.

- وكيف تحضران؟

- بالسيّارة. - قالت.

- أتقودين السيّارة من نوغاليس؟ المسافة بعيدة جدًّا!

- سوف نتوقّف ببيت بعض الصديقات في الطريق. هنّ أيضًا سوف يجربن فحص الفيروس. لا تقلق، سوف نتوخّى الحذر.

- ما الأشياء التي نحتاج إليها حتى نستضيف أنيتا؟

- لستما في حاجةٍ إلى شيءٍ استثنائيٍّ. لقد تعودت على الحد الأدنى. كل ما تحتاج إليه الاستقرار والعاطفة.

- أنا قلقٌ لأنها عمياء، فهذا البيت كبيرٌ وحافلٌ بالأشياء.

- لا تقلق بهذا الشأن يا سيّد أدلر. ترى أنيتا أشكالا ضبابيّة، وكأنّها تراها عبْر الزجاج المغبش أو الفازلين. في الإضاءة الساطعة، وباستخدام العدسة المكبّرة، يمكنها أن تقرأ ما دام الخطّ كبيرًا. تملك ذاكرةً قويّةً وحسًّا مرهفًا بالمساحة والاتّجاه. كما أنّها لا تتعثّر، وتستطيع تحديد موقعها بسرعةٍ في أيّ مكان.

بعد أن انتهت المكالمة عبْر زوم، أُصيبَت ليتيسيا بحمّى من النشاط. أبّت أن تهدر دقيقةً واحدة، مع أنّ أمامهما أسبوعين. بدأت بالانتقال إلى الطابق الثاني حتى تنام بالقرب من حجرة أنيتا. في حين جهّزت الحجرة بورق حائط بلون الليمون، تتناثر عليه رسوم الفراشات وأزهار المارغاريتا. كما طلبت مرتبةً مُزيّنةً برسوم ديزني، وجدها صامويل بشعة. «إنّ هذه الطفلة الصغيرة في حاجةٍ إلى البهجة. لا يمكنها أن ترى الرسوم، ولكنها سوف ترى الألوان قليلًا، على ما أعتقد»، اتّخذت ليتيسيا قرارها. تسلّخت بالسلم والفرشاة ودلوًا من الغراء، وألصقت ورق الحائط كما جاء في التعليمات التي وجدتها عبْر الإنترنت، بينما راح العجوز والكلب يراقبانها في إعجاب. ملأت خزانة المؤن والثلاجة بكميّاتٍ من الطعام تكفي للنجاة من حصار. اشتريا بعض الألعاب والكتب الصوتيّة. وإن استقرّا على الانتظار إلى حين وصول الطفلة قبل شراء الثياب من أجلها، لأنّهما لا يعرفان القياس المناسب لها.

- لا أعتقد بأنها تجيد القراءة بطريقة برايل . - قال صامويل .

- لا بدَّ أنَّها قد تأخَّرت عن الدراسة كثيرًا .

- سوف نُلحِقها بمدرسة فيرمونت للمكفوفين في أقرب وقتٍ ممكن . تقع المدرسة على بعد أربعين دقيقةً تقريبًا من هذا البيت .

- لعلَّها لا تجيد الإنجليزية بالقدر الكافي . - قالت ليتيسيا .

- لقد أمضتُ عدَّةَ أشهرٍ في هذا البلد ، لا بدَّ أنَّها تعرف شيئًا من الإنجليزية . سوف أحرص على أن تتعلَّم بشكلٍ صحيح . لقد اشتغلتُ بالتعليم لأعوامٍ طوالٍ يا ليتيسيا . وما دمتُ قد نجحتُ في تعليم الموسيقى لتلاميذ بلا موهبة ، ففي يدي أن أعلم تلك الطفلة الصغيرة الإنجليزية ، وما هو أكثر من الإنجليزية .

وفي اليوم المُرتَقَب ، اتَّصلتُ بهما سيلينا قبل أن تصل بنصف ساعة . يومذاك تفتنَّت ليتيسيا في إعداد أطباقٍ من السلفادور حتى تشعر آنيثا بأنها في بيتها : الفاصوليا ، والموز المقلِّي ، وفطائر الذرة ، والكعك . كما جهَّزت الأورتشاتا ، ذلك المشروب الذي يُعدُّ باستخدام الحبوب والبذور والأرز والحليب والتوابل . مضى كلاهما ينتظر الطفلة بلهفةٍ جارفة ، حتى إنَّهما قد تناوَلَا كأسًا مزدوجةً من الويسكي في العاشرة صباحًا للسيطرة على توتُّر الأعصاب .

- مستر بوغارت ، ماذا نفعل إن لم نستلطف آنيثا ؟ - سألته ليتيسيا .

- لو حدث ذلك لكان شيئًا مؤسفًا بحق . إنَّ مشاعر المودَّة غامضة ، لا تخضع للقواعد المعروفة . هكذا هي المودَّة ، إمَّا تنشأ بعفويَّةٍ وإمَّا لا تكون ، يستحيل أن يُرغم المرء عليها .

كان عليهما ألا يستبقا ذلك الاحتمال، فما كادت الطفلة تصل حاملَةً حقيبتها على ظهرها، وترجّل عن سيّارة سيلينا دوران التي يكسوها الغبار، حتى أسرت قلبيهما. جاءت كالغزال الصغير بساقَيْها النحيلتين وثوبها المُستعمل وحذائها الرياضي، وقد أطلّت عيناها الخائفتان من فوق الكمامة الإيجاريّة. تقدّمت مُتردّدة، ممسكةً بيد سيلينا، مُتشبّهةً بدميتها المصنوعة من القماش. انحنّت ليتيسيا وضمتّها بين ذراعيها وقد جاشت مشاعرها.

- أنا عمّتك ليتيسيا. وهذا مستر بوغارت. الكلب يُدعى پاكو، وفي المطبخ ببغاء يُدعى پانتشيتو. كما يحضر قطّان لتناول الطعام وينامان هنا أحياناً، ولكنّ كليهما شبه برّي، بلا اسم. - قالت بصوتٍ مرتجف. - مرحباً بك. - لم يخطر لصامويل أن يقول لها أكثر من ذلك.

وحسنًا فعل حين لم يقترب منها، لأنّ وقتًا طويلاً سوف يمرّ قبل أن تشعر آنيّا بالارتياح إليه. في وقتٍ لاحقٍ عرف صامويل أنّها ترتاب في أمر الرجال، وافترض أنّ شعره الأبيض قد هدأ من روعها.

كانت البداية مُتوتّرة، وإن هدأت الأجواء عندما قدّمت إليها ليتيسيا مشروب الأورتشاتا وكعكة تريس ليتشيس، التي قالت عنها إنّها الأكثر شعبيةً في السلفادور. سلّمتهما إحدى الهدايا التي حصلّا عليها من أجلها: دميةٌ تسير كالزومبي وتعمل ببطّاريتين في بطنها. تسلّت آنيّا بالدمية لبضع دقائق، فراحت تتلمّسها بيديها وتستكشف طريقة عملها. ولكنّها لم تفارق دميّتها. سألها صامويل إن كانت تعرف أغنية. أقنعها بأن تدندن إحدى أغنيات الأطفال، ثم راح يعزفها على البيانو بزخرفاتٍ على الطراز الباروكي المُتكلف. افتتنت آنيّا بذلك، فقدّمت إليه ألحاناً أخرى بسيطةً لقيت مصير الأغنية الأولى. بعد ذلك جهّزت ليتيسيا

الحَمَام من أجلها، لأنها جاءت متعبَةً من الرحلة، بينما جلس صامويل مع سيلينا حتى يتلقَى التعليمات الضرورية.

- أنا ممتنٌ لَأَنَّكَ قد أَحضرتِ أُنيتا. - قال لها.

- كَلَّا يا سيّدي، بل إنَّني أنا الذي يجب عليّ أن أشكركَ أنت وليتيسيا لاستضافة أُنيتا. لقد تأدّت كثيرًا من قسوة منظومة الهجرة.

- التفريق بين أفراد العائلة شيءٌ غير إنسانيّ، إنَّها وصمة عارٍ على جبين هذا البلد... - تمت صامويل، ساخطًا.

أوضحت له سيلينا أنَّ إصابة أُنيتا بالعمى تشبه الإصابة بضمور بقعيّ في طورٍ مُتقدّم. لقد تعرّضت لحادثة سيّارةٍ قبل عامين، فأصيبت بجرح في القرنية، ولكنّها لم تتعرّض لضررٍ بالغ.

- يبدو لي أنَّ هناك علاجًا قادرًا على مساعدتها. - أردفت.

- لا بدّ أنَّكَ تقصدين زراعة القرنية. سوف أتحقّق من الأمر. - قال صامويل.

- خلال لقاء ماريسول، أمّ أُنيتا، وضابط اللجوء، أخبرته بأنَّ خطر الموت هو السبب الذي دفعها إلى الهرب من بلدها. وقالت إنَّها تتمنّى لو حصلت على المساعدة من أجل أُنيتا في الولايات المتّحدة. ولكن ذلك التصريح لم يعزّز موقفها، إذ فسّره الضابط على أنّه نيّةٌ مُبيّنةٌ لاستغلال المنظومة الصحيّة.

- توجد مدرسة للمكفوفين على مسافةٍ قريبةٍ نسبيًا من هنا. سأتكفّل بالمصاريف. ولن تستغلّ الطفلة المنظومة. - قال لها صامويل.

- بشيءٍ من المساعدة، يمكن لأُنيتا الالتحاق بمدرسةٍ عادية. تجيد القراءة والكتابة. كما أنّها طالبةٌ مجتهدة. ولديها ذاكرةٌ

سمعيّة قويّة، إذا سمعت الشيء مرّةً واحدةً استطاعت أن تكرّره بعد أسابيع.

- يروقني ذلك، تقصدين أنّه من الممكن أن أعلمها الموسيقى.

- سمح القاضي بأن تبقى الطفلة في هذا البلد حتى نعثر على أمّها. - أوضحت له سيلينا- لقد أثبت فرانك أنجيليري أنّها ضحيّة أزمة إداريّة تدعو إلى الرثاء. من المؤسف أنّها ليست الوحيدة، ولكن قلب القاضي قد رقّ لحالة أنيتا. آخر ما يريده أن تكتب الصحف أنّه قد أمر بترحيل طفلة صغيرة عمياء فقدت أمّها، على ما أفترض.

- كم تبقى معنا؟

- لا أعرف. لديّها تصريحٌ باللجوء المؤقت. لقد ذهبتُ إلى السلفادور مع فرانك أنجيليري في مطلع فبراير بحثًا عن ماريסول دياس، فلم نعثر عليها.

قبل وصول أنيتا، أمضت ليتيسيا وصامويل شهرًا في عزلة، فرتبًا أمورهما وكانّهما زوجين عجوزين: إذ التزم كلٌّ منهما بجدوله مع مراعاة مساحة الآخر، كما كانا يتسلّيان في الأوقات التي يقضيانها معًا. أمّا التعايش الإجماليّ خلال الجائحة، فلقد أتاح لهما فرصة استثنائيّة للتعارف. وهكذا ظلّت مشاعر التقدير المتبادلة تترسّخ كلّما توطّد التعارف بينهما. ثم جاءت الصغيرة، فبدّلت إيقاع البيت وعادات كلّ منهما. غير أنّها قرّبتهما أكثر من ذي قبل. وفي حضور أنيتا صاروا أسرة واحدة.

كانت أوّل ليلةٍ تمضيها في بيت صامويل ليلةً صعبة. بدّت أنيتا مدعورة، وانزوت على نفسها أرضًا، وتشبّثت بدميتها ديدي التي كانت

في غاية القذارة. أدخل ورق الحائط الأصفر والمرتبة الجديدة إلى نفسها شعورًا بالبهجة حين وصلت، مع أنها لم تكّد تتبيّن الألوان. ثم استحوذ عليها الخوف في الليل، لأنها لم تحظَ بغرفةٍ لها وحدها في أيّ وقتٍ مضى. بدا الأمر معقولاً من وجهة نظر صامويل، فحتى هو كان ليقشعرّ بدنه لمرأى ذلك الورق. استغرقت نصف ساعة تقريبًا حتى أوت إلى الفراش، ولم تتمّ إلّا بعد منتصف الليل. في اليوم التالي، وجدتْها ليتيسيا وقد انزوت على نفسها مرّة أخرى في أحد الأركان، واستغرقت في بكاءٍ صامت. ثم اكتشفت ليتيسيا أنها قد بلّلت الفراش.

- لا يهمّ يا أنيتا، فمن الممكن أن يحدث ذلك لأيّ شخص. -
قالت في محاولةٍ منها لمواساتها.

- لم أبلّل الفراش قطّ عندما كنت أعيش مع تيتا إدو. لا أدري لماذا يحدث لي ذلك الآن. - أجابت الطفلة وهي تغصّ بالبكاء.

- هوني عليك يا عزيزتي، لا توجد مشكلة، سوف نبذل الملاءة وانتهى الأمر.

أخبرت صامويل، الذي لم يُفاجأ بما جرى.

- لم تعد في عمرٍ مناسبٍ لذلك. - عقّبت ليتيسيا.

- وما العمل؟

- لقد ألفت النوم إلى جوار الجدّة أو الأمّ في بلدها. يجب أن تنام إلى جوارى. هل يمكنني استخدام سرير كاميل؟ إنّه سريرٌ واسع.

- لك أن تستخدمني ما شئت. لا بدّ من نقل السرير.

لم يكن هناك من يساعدهما في تلك المهمّة. ولم يعد صامويل بالقوّة نفسها، مع أنّه بعيدٌ عن العجز كلّ البعد. نجحوا في فكّ سرير كاميل

واستبداله بسرير ليتيسيا، على الرّغم من كاحل صامويل الملتوي. لم تعد أنيتا تبلّل الفراش منذ بدأت تنام إلى جوار عمّتها. رأى صامويل أنّ ذلك الحلّ لا يراعي إجراءات النظافة، وإن تقبّله من دون تعقيبٍ واحد، لأنّه تذكّر الخوف الليليّ الذي كان يشعر به في الطفولة حين وصل إلى إنجلترا، وتذكّر كيف كان يدفن رأسه تحت الوسادة حتى لا يسمع بكاءه أحد.

في بعض الأحيان كان يستيقظ من النوم مذعورًا، تحت وطأة الكابوس المُتكرّر نفسه: الذي يسمع فيه نعيق البومة وصوت فروع الأشجار وهي تضرب النافذة، بينما تخيم العتمة في ليلةٍ مدلهمة. أمّا هو فيستلقي على فراشه الصلب الضيق وقد تجمّد من فرط البرد القارس. غير أنّه يحسّ بشيءٍ دافئٍ تحت جسده، ويدرك مذعورًا أنّه قد تبوّل على نفسه. كم مرّة عاش تلك اللحظة في الطفولة؟ الخزي، والمهانة، والبكاء المختنق، والتأنيب، والعقاب، وسخرية باقي الأطفال. كانت ذكريات ذلك الماضي أشدّ نبضًا بالحياة من الحاضر. ولذا شعر بعطفٍ جارفٍ نحو أنيتا، التي تمرّ بالشيء نفسه. عرف معاناة أنيتا على وجه التّحديد، وعرف لماذا تنادي أمّها وهي نائمة، وعرف لماذا تبقى عند مدخل البيت طوال ساعاتٍ منصتةً إلى الأصوات الآتية من الشارع على أمل أن تحضر ماريسول.

رأى صامويل أمّه آخر ما رآها وهي تودّعه في محطة القطار، وسط حشدٍ غفير. كان صغيرًا جدًّا، يرتدي معطفًا فضفاضًا ووشاحًا من الصوف، وينتعل حذاءً أكبر ممّا يلائمه. رحل مع مئاةٍ من الأطفال على متن ذلك القطار. وعلى مدى أعوام، ظلّت تلك الصورة ضبابيّة، مُفكّكة، عصيّة على الفهم. وإن استطاع أن يللم شظايا الأحجّيّة في لحظةٍ من لحظات الشباب، وأدرك ماذا حدث. كان أطفال القطار من

اليهود. بينما قرّرت والدته، مثلها كمثل باقي العائلات الحاضرة على رصيف القطار، أن ترسله وحيداً إلى إنجلترا، حيث يتولّى أمره الغرباء، لإنقاذه من عنف النازيين، في ظلّ غياب اليقين بشأن المستقبل. تمتّ أمّه أن يكون حلّاً مؤقتاً، وأن يلتئم الشمل قريباً.

قبل سنواتٍ طوال، في عام 1995، زار صامويل أدلر متحف الهولوكوست في واشنطن. وقبل ذلك ذهب إلى فيينا لرؤية الحي الذي وُلد فيه. وجد مصرفاً يشغل الموقع الذي قامت فيه عيادة أبيه وشقّة أسرته. كما ذهب لرؤية أطلال داخاو ورافنسبروك وأوشفيتس، في رحلةٍ إلى أعماق الخسّة البشريّة. لم يبقَ سوى أقلّ القليل، ولكن ما زالت هناك آثارٌ باقيةٌ من بعض الثكنات وأسوار الأسلاك الشائكة وأبراج المراقبة ومداخن أفران الحرق، ما يكفي لتكوين فكرةٍ وافيةٍ عن الجرائم التي ارتكبت هناك. مضى يجوب تلك الأبنية المشؤومة في صمتٍ ثقيل، وقد خلّت الأمكنة المحيطة حتى من الطيور، ولم تكن بها ولو عشبَةٌ واحدة. أيقن أن الهواء حافلٌ بالحضور، الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، ملايين وملايين الأرواح.

تحقّق من قوائم ضحايا الإبادة في المتحف، فعثر على اسم أمّه، راشيل ساره أدلر، والعمة ليا، ونساء عائلته جميعاً. غير أنّه لم يجد اسم والده. لقد سجّل النازيون أفعالهم يوماً بيوم، حتى أبشع الفظائع التي ارتكبت قد وثّقت توثيقاً وافياً. ولكنّ بعض السجّلات قد أُتلفت بصورةٍ منهجيّةٍ بعد الهزيمة.

لم يجد صامويل مفراً من ذلك الحجّ الأليم. لقد اجتثّت جذوره وفقد أبويّه وأجداده من دون وداع، ومن دون تفسيرٍ واحد، حين ركب قطار الأطفال. وهكذا كبر وهو في حالةٍ من الانتظار. وطغّت على حياته

مشاعر الغم والحنين في تلك الأعوام. عاش طفولته مُمزَّقًا، مُقسَّمًا بين الحاضر المرير الذي يتمنى الهرب منه والخيال الضبابي الذي يرى فيه أسرةً وبيتًا، ذلك الخيال الذي راح يمدّه بذكرياتٍ أشدَّ وأشدَّ إبهامًا، تعود إلى ماضٍ أسطوريّ.

طوال ثلاثة أيّامٍ مُتعاكِبة، ظلَّ يذهب إلى المتحف منذ أن يفتح أبوابه حتى موعد الإغلاق. غاص في القصص، وحفظ الصور، وعاش مع الأشباح، وبكى بحرقة، ومضى يصبّ جام الغضب المُتراكم طوال عقود. تقبَّل حقيقةً أنّ مصيره ليس استثنائيًا، فهو مُجرّد ضحيّة وسط ملايين الضحايا. وأدرك أنّ أمّه لم يبقَ لها خيارٌ سوى الافتراق عنه حتى تمنحه فرصةً للعيش. خُيِّلَ إليه أنّها قد عانت أكثر منه كثيرًا، ثم فارقت الحياةً واسم ابنها الوحيد على شفّيتها. فكانت تلك هي الخاتمة التي احتاج إليها صامويل حتى يدرك أنّه لن يتمكن من طرد أشباحه أبدًا، ويجب عليه أن يتعلَّم كيف يعيش معها.

في الشهور التالية، تبنّى صامويل وليتيسيا دورَي الجدّ والعمة بعفويّة، حتى بات من الصعب أن يتذكّرا كيف كانت حياتهما قبل وصول أنيتا دياس. عمل كلاهما على تهيئة الأجواء لتتمكّن الطفلة من التحرك بسهولة، فنقلوا قطع الأثاث ونزعا الأبسطة التي يمكن أن تتعثّر فيها أنيتا. كما ثبّتوا في البيت مصابيح كثيرةً حتى صار يبدو للناظر عن بعدٍ ساطعًا، وأصبح يشكّل خطورةً على حركة الملاحة الجويّة، حسبما قال صامويل. تولّت ليتيسيا المهمّات الروتينيّة - الغذاء، والاعتسال، وتصفيف الشعر - ، بينما تولّى صامويل تعليم الطفلة وتسليتها. عانت أنيتا من فقدان الشهية، حتى صار إقناعها بتناول الطعام معركة، في حين أصرّ صامويل على أن تجلس إلى المائدة مع الكبار. أجادت

الطفلة استخدام أدوات المائدة والمنديل، وتحلّت بالآداب الملائمة، وكانت تطلب الإذن قبل أن تغادر المائدة. «شكرًا يا عمّة ليتيسيا، شكرًا جزيلًا يا مستر بوغارت»، كانت تقول بالإنجليزية حتى يفهم حديثها. في البدء تجنّبت صامويل، ولكن سرعان ما تعزّز شعورها بالأمان، وفقدت الشعور بالخوف، حتى صارت تبحث عنه بنفسها. مضى العجوز يعدّها حتى تبدأ الدراسة حالما تفتح المدارس أبوابها. حصل على الكتب المدرسيّة الملائمة لعمرها، كلّها باللغة الإنجليزية، وشرع يدرس معها ثلاث ساعاتٍ من كلّ يوم. أقبلت الطفلة الصغيرة على الدراسة بنهم. ولمّا كانت عاجزةً عن الكتابة بيدها، فلقد أعارها صامويل آلةً كاتبةً عتيقة، تمكّنت من استخدامها بمشقّة. كما طلب من أجلها كمبيوتر بلوحة مفاتيح خاصّة للمكفوفين.

اهتمّت آنيّا أكثر ما اهتمّت بالبيانو. «البيانو أسهل من الكتابة على الآلة، فلو أخطأتُ جاء صوته سيئًا»، قالت. كانت منضبطة، وأدركت ضرورة التدرّب على السّلم الموسيقيّ يوميًا حتى تكتسب أصابعها المهارة المطلوبة.

- الذاكرة أنواع: الذاكرة البصريّة تمثّل مشكلةً بالنسبة إليك. في حين لا تجددين في الذاكرة السمعية أدنى صعوبة. كما أنّ الموسيقيّ في حاجةٍ إلى الذاكرة العاطفيّة والعضليّة أيضًا. يجب أن تتذكّر أصابعك كيف تعزف من تلقاء نفسها، مدفوعةً بالمشاعر. - كرّر عليها صامويل.

- أستطيع أن أعزف سمائيًا. - احتجّت آنيّا.

- أجل، ولكن يجب عليك أن تتعلّمي قراءة الموسيقى وأن تؤدّي التمارين كلّ يومٍ حتى تتقني ذلك حقًا.

بدأ يكتب النغمات بقلم أسود عريض، بخط كبير، تمكّنت من قراءته بالعدسة المكبّرة. كما طلب عدّة نوتاتٍ موسيقيّة مكتوبة بطريقة برايل عبر الإنترنت، وبدأ يتعلّمها حتى يلقّن طالته إيّاها. إذ رأى ضرورة أن تقرأ أنيتا النوتة الموسيقيّة باللمس ثم تحفظها.

أمّا ذلك الوضع الغريب، حيث عاش حبسًا مع ليتيسيا وأنيتا والحيوانات، فلقد ردّ إليه الرغبة في العيش. منذ أن ترمّل، كان صامويل يشعر بتراكم الخسائر والغيابات والاختفاءات والموت والمسافة والفراق والنسيان. والخيبة في الحبّ أيضًا. جفّت مشاعره. واعترف لليتيسيا بأنّه لا يفتقد ابنته ولا حفيده، الذي كثيرًا ما احتفى به ودلّله في الطفولة. قالت نادين إنّ المرء لا يختار عائلته، ولا بدّ أن يتقبّل كلّ من شاء لهم القدر أن يكونوا من أقربائه عن طيب خاطر. ولكن صامويل لم يوافقها، ورأى أنّ المودّة لا تُهدى من دون مُقابل، ولا تُقدّم إلى من لا يستحقّها. وحفيده لا يستحقّ من الحياة سوى بضع صفعاتٍ حتى تزول عنه تلك الغطرسة ويتعلّم الرحمة.

سكن حبّ أنيتا قلوبَ الناس بعفويّة، حتى قلب صامويل، وهو الرجل الذي يميل إلى العزلة. افترض أنّه لو كان ذلك وقتًا طبيعيًا لذهبت الطفلة إلى المدرسة، وأمضى برفقتها وقتًا أقلّ بكثير. ولكنّها مضت تغزو قلبه بخطى واسعة، لأنّها حاضرة دومًا. حتى عندما لا تكون برفقته، كان يسمع صوتها في باقي أنحاء البيت أو يراها من خلال النافذة وهي تلعب مع پاكو في الحديقة، أو ترشّ جسدها بماء الخرطوم في الأيام شديدة الحرارة. كانت تمضي ساعاتٍ في تلك المساحات الخضراء، حيث تخرج عن السيطرة وتستغرق في ألعابها الغامضة. وخلال الوقت القصير الذي عاشته تحت سقف البيت، استطاعت أن تملأ كلّ ركنٍ من أركانه. في الأيام الأولى كانت تسير ملتصقةً بالجدران، في صمت،

وهي أقرب ما يمكن من ليتيسيا وأبعد ما يمكن عنه. ولكنها سرعان ما تجاوزت الخجل، فمضت تجوب الأمكنة كلها بحذر شديد، وتحفظ المسافات ومواقع النوافذ والأبواب. إلى أن تمكنت من التحرك في أمان، والصعود والنزول على الدَّرَج من دون أن تستند إلى شيء. واستطاعت أن تركض عبْر الأروقة في أثر پاكو، الكلب الذي اتَّخذ أنيتا صاحبةً بدلاً من صامويل، وصار يتبعها أينما ذهبت، ويرتمي إلى جوارها. بل إنه كان لينام إلى جوار أنيتا على الفراش لو سمحت له ليتيسيا بذلك. استسلم صامويل لخسارة الحيوان الذي كانت لديه نزعَة طبيعيَّة إلى مرافقة عميان.

- سوف يحزن پاكو بشدَّة متى غادرت الطفلة الصغيرة. - عَقَّبَتْ ليتيسيا.

- ليتيسيا، هل ستغادر أنيتا؟ لو كان الأمر بيدي لبقيت وكبرت هنا، وصارت حفيدتي.

- الحالة الوحيدة التي تسمح بذلك ألا تعثر على أمها.

- لا أستطيع أن أتمنّى ذلك، وإلا كانت تلك نذالةً من جانبي. - ختم حديثه.

بعد أن سقط عن السلم، أدرك صامويل أنه لن يصعد إلى العليَّة مرَّةً أخرى. لم تكن لديه أدنى فكرةٍ عما يُوجد هناك. لا بدَّ أن العليَّة صارت كهفَ أشباحٍ ممتلئًا بالحطام العائليَّة التي تراكمت وتضاعفت هناك بمضيِّ الأعوام. بالتحريّ والسؤال، كشفت ليتيسيا بعض الأسرار، وتركت اسم برونو برونيلي ينسلّ من بين شفَّتيها عدَّة مرَّاتٍ في محاولةٍ منها لجسّ النبض والتحقُّق من مقدار ما يعرفه صامويل. ولكنه لم يشبع

فضول ليتيسيا، لأنها مسألة خاصة تفتقر إلى الأهمية، ولا حاجة إلى تسليط الضوء عليها. كان على علمٍ بأمر برونيلى. لقد استمرت العلاقة التي جمعت بين زوجته وصاحب المخبز عامين، فكيف لا يكتشف أمرها! كانت تلك العلاقة مُجرّد تسليّة في غاية التفاهة، حتى إنّ نادين لم تحرص على إخفائها. ولكنها لم تكن الخيانة الوحيدة التي ارتكبتها، فهو على علمٍ بحالاتٍ أخرى. وعرف بأمر العلاقة الأطول والأعمق بينها جميعاً، والصلة الوحيدة التي صارت حبّاً حقيقياً. إنّها تلك العلاقة التي جمعتها بكروس توريس، آخر شخصٍ قد يرتاب في أمره. ولكنها اعترفت إليه بذلك والدموع تنهمر من عينيها بغزارة عندما رُحل توريس. لم توضح له كم استمرّ ذلك الحب. وإن قدّر صامويل أنّه قد بدأ مع التصليحات التي أُجريت في البيت، وانتهى بعد ثمانية أعوام، ليشمل بذلك حقبةً مهمّةً من حياة نادين الناضجة. استحوذت عليه الغيرة بأثرٍ رجعيٍّ لبعض الوقت. حتى أدرك أنّ توريس لم يعد يشكل خطراً على زواجه بعد أن رجع إلى المكسيك، ولم يعد يؤثر في المودّة وعلاقة الزمالة القائمة بينه وبين نادين. افترض صامويل أنّ المكسيكيّ كان عاشقاً ملتهب المشاعر، قدّم إلى نادين شيئاً تحتاج إليه، شيئاً لم يتمكن من تقديمه إليها بنفسه. بعد أن عاش مع نادين عقوداً، بات حبّهما أخوياً، والجنس أشبه بعلاقةٍ مُحَرّمةٍ بين الأقرباء، هكذا فكّر صامويل. لا يمكن أن يُطالب المرء بأن يلتزم بشريكٍ واحدٍ فقط لخمسةٍ وخمسين عاماً من الزواج.

في تلك الأثناء انهمكت عدّة مختبراتٍ في العمل على إنتاج المصل بالتزامن، فلم يشكّ صامويل في إمكانية نجاحها. خلال حياته الطويلة تأكّد له أنّ كلّ شيءٍ يمرّ، وإن شقّ عليه التفكير في المستقبل وأحسّ بأنّه عالقٌ في حاضر الجائحة الذي لا يتبدّل.

كيف يكون الوضع الطبيعي الجديد؟ سوف تُفَتَّح الأبواب والنوافذ، ويخرج البشر على استحياء في الأيام الأولى، ثم في سعادة غامرة. مضى يتخيّل جموع الناس وهم يتعانقون في الشوارع، كما يحدث في المهرجانات. وإن لم ينطبق ذلك على حالته. ففكر في اغتنام فرصة الوباء طويل الأمد حتى يبعد عن أولئك الذين لا يحبّهم، ويتنصّل من الالتزامات التي لا تهّمه في شيء. لم يعد يحتمل إلا قلة قليلة من الناس. ولكنّه يُتَقَن إخفاء ما يعتمل في نفسه إلى حدّ جعله يُعرَف بأنّه رجل طيّب، لا يمكن اتّهامه بالغطرسة أو الأنانيّة، كلّ ما في الأمر أنّه غريب الأطوار. تعودت نادين أن تقول له: إنّ غرابة الأطوار مثيرة للإعجاب لو جاءت مرفقةً باللهجة الإنجليزيّة. قبل وصول آنيّا ظلّ مُتَشَبِّهاً بالعمل والدراسة حفاظاً على نشاط الذهن، خشية أن يغوص في ضباب الشيخوخة، ذلك الاحتمال القائم بالفعل في مثل عمره. أمّا في حضور الطفلة، فلقد صار لديه ما يكفي من التحديات حتى يتصدّى لشبح الخرف بصورة أفضل.

نظريّاً، انشغلت ليتيسيا بآنيّا والمهمّات المنزليّة إلى حدّ جعلها لا تملك من الوقت أو الهمة ما يكفي لتحريّاتها المرصّية في العلّية. أمّا من الناحية العمليّة فلم تكن الحال كذلك، بل إنّها قد اتّخذت الطفلة شريكاً لها، وأصبحت كلتاها تمضيان أمسيّات كاملةً وهما تتسلّيان بالبحث عن كنوز الماضي المُحتملة. تعلّمت آنيّا كيف تستخدم السّلّم القابل للطّيّ بلا تردّد، وكيف تتحرّك وسط العوارض والعوائق المتناثرة في العلّية وكأنّها قادرةٌ على الرؤية بكلّ وضوح. سمح لهما صامويل بإنزال ألعاب ابنته كاميل وحفيده، تلك الألعاب التي يتقدّم بها العمر هناك منذ عقود، وكذلك أشجار أعياد الميلاد، أشجار الصنوبر الصناعيّة

المُزَيَّنَة بالمصباح، فَوُضِعَتْ في شَتَّى أركان البيت في غير حاجةٍ إلى الانتظار حتى ديسمبر. استحوذَتْ أُنيتا على طاقم شاي وبضعة فناجين من الخزف، وصارت تدعوهُما إلى تناول الشاي المثير للغثيان الذي تعدّه بأوراقٍ مِنَ الحديقة، فيشربه صامويل مُحلّى بعدة ملاعق من العسل حتى يتمكّن من ابتلاعه. كانت الطفلة تصحب دميته المُرْوعة ديدي والكلب پاكو في نزهة بالسيّارة الإنجليزيّة التي سبق أن كانت لكامل، بينما دميته - الزومبي - الجديدة ترقد منسيّة. راق لها الإمساك بطوق پاكو أو لجامه، طلبًا للرفقة وليس لأنّها في حاجةٍ إلى ذلك. أَصَرَّت على ألاّ يساعدها أحد. «أستطيع أن أفعلها وحدي»، هكذا كان الشعار الذي رفعته أُنيتا. وجدها صامويل طفلةً مذهلة. لم يسبق له أن عاش في عالمٍ من نسج الخيال، وهو الذي هبط على أرض الواقع منذ أوّل الطفولة. أما أُنيتا، التي تعدّبت بشروخ في النفس كتلك التي عانى منها صامويل، فلقد تمكّنت من التحليق في بُعْدٍ خياليّ، وهربت إلى العليّة والحديقة والحجرات الخاوية.

بالانتباه إلى همسات الطفلة، اكتشف صامويل أمر «أسابار»، ذلك النجم البعيد الذي تسافر إليه أُنيتا في كثيرٍ من الأحيان، وتأخذ معها پاكو. كان أسابار هو العالم المثاليّ، عالم السعادة التي لا تفنى، والمكان الذي يجتمع فيه الغائبون. في البدء استخدمت أُنيتا لهجةً خاصّةً مؤلّفةً من لغتين. ولكنّها حين تقدّمت في دروسها واستمعت إلى التلفزيون بدأت تتقن الإنجليزيّة، وهكذا استطاع صامويل أن يفهمها قليلًا.

- هل لاحظتِ أن أُنيتا تتحدّث إلى نفسها؟ لا بدّ أن لديها صديقةً مُتخيّلة، إنه أمرٌ شائعٌ في حالات الأطفال الذين يعيشون في عزلة. - قال مُعقّبًا لليتيسيا.

- إنّها تتحدّث إلى أختها الصغيرة. - أجابت.

- كيف؟ أيّ أختٍ صغيرة؟ - سأل صامويل مُتَعَجِّبًا.

- كلاوديا، التي لقيت مصرعها في الحادثة التي أصابت أنيتا بالعمى. كانت كلاوديا في الثالثة من العمر آنذاك، بينما أتمت أنيتا عامها السادس قبل الحادثة بوقتٍ قصير. جمعت بينهما صلةٌ وثيقة. كانت دمية القماش لكلاوديا، ولهذا تحبّها أنيتا حبًّا جارفًا.

- وكيف عرفتِ كلّ هذا؟

- لأنّني سألتها يا مستر بوغارت.

- وهل أخبرتكِ بأنّ كلاوديا قد ماتت؟

- أجل. أنيتا لا تهذي، وتعرف أنّ كلاوديا ليست هنا. يا للصغيرة المسكينة... في البدء مات أبوها، ثم أختها، ثم فقدت عينيها، وكادت أمّها تُقتل، بعد ذلك اضطرّت أنيتا إلى مفارقة بيتها وجدّتها وأُرغمَت على مفارقة أمّها. صارت وحيدة، فبعثت أختها من الموت لتكون برفقتها.

- لا أدري كيف يمكنها التعافي من كلّ ذلك... غمغم صامويل.

- إنَّها قويّة. أملُ أن تنجح في التجاوز بمضيّ الوقت.. - أجابت.

منذ عدّة أسابيع بدأ صامويل يفكّر في التغيّرات التي ينوي أن يُدخلها على وصيّته. اجتمع بمحاميه عبّر زوم حتى يصدر إليه التعليمات التي أخطر بها ليتيسيا: بوفاته يبقى البيت تحت الوصاية الائتمانيّة لحماية أنيتا، على أن تشرف ليتيسيا على الوصاية لأنّها عمّة الطفلة.

- انس الأمر، فبمثل هذا الكلام تستحضر الموت. وماذا تقول كاميل؟ سوف تلقي عليّ أنا باللائمة، وتقول إنّ العاملة المنزليّة قد خدعتك بعدما أُصِبت بالخرف حتى تغيّر وصيّتك.

- سوف ترث كاميل باقي ممتلكاتي. ولن تعرف بأمر الوصاية الائتمانية إلا بعد فوات الأوان. لديّ شهادتان طبيّتان كلتاهما تثبت أنّني في كامل قواي العقلية. سوف تتدبّرين أمركِ مع كاميل، سترين. لطالما قالت نادين بضرورة أن يكون هذا البيت ملاذًا لكلّ من يحتاج إليه. أريد أن تُدفع مصاريف دراسة أنيتا من ريع هذا البيت.

- ومن أخبرك بأنّها سوف تبقى هنا؟

- سوف تحتاج إلى الدراسة، أينما ذهبَت. ولو بعَتِ هذا البيت لوجدتِ من المال ما يكفي لذلك. حتى لو آثرتِ تأجيرِه يمكنكِ الحصول على مبلغ غير قليلٍ كلّ شهر.

- تأجيرِه؟ البيت على وشك أن يتهدّم!

- لا تبالي. لا بدّ من إجراء بعض التصليحات في البيت بعد الجائحة. - أجبها.

- تُوجد هنا حجراتٌ كثيرة... لقد أخبرتني بأنّه كان بيتًا سيئ السّمة في الماضي.

- ليتيسيا، لعلّكِ لا تفكرين في إقامة بيت للمتعة، يا إلهي!

- هذا شيءٌ مُعقّد! ولكن من الممكن تأجير الحجرات لطلّاب الجامعة وإقامة ما يشبه النزل. ما رأيكِ؟

- ما دمتِ أنتِ موافقة، فالى الأمام! سيكون جسدي تحت التراب بحلول ذلك الوقت. انسي أمر إحراق الجثمان تمامًا، فأنا أريد قبرًا إلى جوار نادين.

- أرى أنّك قد أودعتني ثقةً كبيرة.

- أثقُ في قدراتك ونزاهتك وحبِّكِ لأنيتا ثقةً مطلقة. هل بلغتكِ أخبارٌ من فرانك أنجيليري؟

- يرجِّح فرانك أن تكون هناك مساعٍ إلى لَمَّ شمل العائلات لو تغيَّرت الحكومة بعد الانتخابات الرئاسية في شهر نوفمبر.

- إنها مُجرَّد أوهام يا ليتيسيا. ما زالت تفصلنا عن الانتخابات ستَّة أشهر، ولا أحد يضمن النتيجة. - ذكَّرها صامويل.

- لطالما كنتُ في غاية التشاؤم!

- لا يسعني التفاؤل في هذا العالم الحقيق. ولكنِّي أشعر الآن برغبةٍ غير مسبوقَةٍ تدفعني إلى تغييره.

آنيٲا

بيركلي، سبٲمبر 2020

سوف نقيم في هذه الحديقة بيتًا سرّيًا صغيرًا، محجوبًا وسط الشجيرات، حتى لا يكتشفه أحد. وسوف نعدّ الشاي بالماء والأوراق. إنه شايٌّ مُخصَّصٌ لدعوة الملائكة وسُكَّان الحديقة المسحورين. أعرفُ الأوراق المطلوبة. سوف ندعو پاكو أيضًا، ولكنّه لا يحبّ الشاي، ويفضّل الكعك أو العظام. سأحصل على بعض الكعك، فالعمّة ليتي تحتفظ به في المطبخ دائميًا، ولكنّ الحصول على عظمّة أشدّ صعوبة. كلاوديا، لا بدّ من دعوة مستر بوغارت في جميع الأحوال، لأنّه عجوز، ولأنّه طيّب جدًا معنا. إنّه في غاية الطيبة، ولذا سنأخذه معنا ذات يوم إلى أسابار. يقول إنني سوف أذهب إلى المدرسة حين يختفي الفيروس، ولكنّي أفضل أن أتعلّم معه لأنّه لا يغضب منّي أبدًا، حتى لو أخطأت في العزف على البيانو أو في الدروس. ولا يغضب لأنّ پاكو صار يحبّني أكثر ممّا يحبّه الآن.

سوف تنصب في الحديقة شركًا للإيقاع بالأطفال المسيئين والرجال الأشرار. لقد فكّرتُ في الأمر جيّدًا. يجب علينا أن نصنع حفرةً كبيرةً أوّلًا، ثم نضع فيها شبكةً من تلك الشباك التي كانت على شاطئ إلتونكو. لا بدّ من حجب الحفرة جيّدًا بأفرع الأشجار وقليلٍ من النفايات حتى لا يراها المعتدون، فيسقطون داخل الحفرة. وعندئذ نلقي إليهم الشبكة، ونوقع بهم أحياء. بعد ذلك نرى ما العمل بهم. الأمر يختلف، فلو أوقعنا بكارلوس أو مستر ريك، لتركناهما يموتان عطشًا وجوعًا. أمّا لو أوقعنا بـ«دودة الكاكا» مثلاً، فسوف نرميه بالأحجار ثم نتركه هناك طوال الليل، وفي اليوم التالي نطلق سراحه.

كلاوديا، من أين عرفتِ أنّ في هذه الحديقة ثعابين؟ لا ثعابين هنا، كان ذلك في السلفادور. أمّا هنا فيوجد أقزام، أولئك الصغار أصحاب الأذان الطويلة المُدبّبة. وتوجد حوريّات وجنّيات بكلّ الأنواع. ويونيكورن واحد، أو ربّما اثنان. ليس هذا مُؤكّدًا. ولكنّه كائنٌ خجولٌ يتوارى عن الأنظار، ولهذا لم نره. كما يُوجد كنزٌ سبق أن دفنه القراصنة. ومتى عثرنا على الكنز، سوف نرسل إلى تيتا إيدو نقودًا من الذهب كيلا تُضطرّ إلى العمل مرّةً أخرى أبدًا. كان القراصنة هنا في الماضي، قبل زمنٍ طويل. أمّا الآن فلم يعدّ لهم وجود، لأنّهم قد رُحّلوا.

لقد جعلني مستر بوغارت أتحدّث إلى طبيب العيون عبّر زوم، فكان عليّ أن أحكي له كلّ تفاصيل الحادثة ثلاث مرّاتٍ تقريبًا، وأن أخبره بما أستطيع رؤيته وبما أعجز عن رؤيته. لا بدّ أن يراني شخصيًا على كلّ حال. ولكنّ الأمر ما زال غير ممكن. لأنّه لا يتلقّى سوى الحالات الحرجة بسبب الفيروس. وفي رأيه أن حالتي ليست حرجةً إلى هذه الدرجة. ولكنّها كذلك بالنسبة إليّ أنا، لأنّني قد تعبْتُ من

العمى. قال لي مستر بوغارت إنَّني سوف أخضع لعملية زراعة، كما أوضحت لي العمَّة ليتي أنَّهم سوف يزرعون لي عينيَّ مُنتزعتين من أحد الموتى. ولو ابتسم لي الحظَّ لحصلتُ على عينيَّ زرقاوين. ولكن الأمر يخيفني، فأنا لا أريدهم أن ينتزعوا عينيَّ، ولا أريدهم أن يزرعوا في جسدي شيئاً قد انتزع من أحد الموتى. ينصحنى مستر بوغارت بألا أهتمَّ بما تقول العمَّة ليتي، لأنَّ عملية الزراعة أمرٌ هين، ولن ينتزع عينيَّ أحد. لقد نذرت تيتا إدو نذرًا للقديسة لوسيا، شفيعة الإبصار، في جميع الأحوال.

يروقني هذا البيت، أليس رائعاً؟ لقد أخبرتني العمَّة ليتي بأنَّه يُدعى «البيت المسحور» لأنَّ فيه أرواحاً. ولكني لا أخاف منها، وأتمنى ألا تخافي منها أنت أيضاً يا كلاوديا، لأنَّها أشباح سيِّداتٍ في غاية الأناقة يهمن في المكان من دون أن ينتبه إليهنَّ أحد. يقول مستر بوغارت إنَّ الأشباح غير موجودة، ولكنه مُجرَّد كلام. لقد حكَّت لي العمَّة ليتي أنَّ أحد الأشباح للسيدة المرحَّة رائعة الجمال التي كانت تُدعى نادين، زوجة مستر بوغارت. ما زلتُ لا أستطيع رؤيتها، يجب عليَّ أن أنتظر إلى ما بعد الجراحة، ولكني أستطيع أن أشمَّ عطرها إذا ركزتُ انتباهي. أميَّزه لأنَّ العمَّة ليتي قد أعطتني قارورةً صغيرةً ما زالت فيها بقايا العطر التي تركتها السيدة في خزانة الزينة. لا أستطيع أن أستخدمه، لأنَّ مستر بوغارت يُصاب بحالةٍ من الأسى. كما حدث عندما تعطَّرتُ به في إحدى المرَّات، فأقفل باب المكتب على نفسه، ولم يسمح لي بالدخول. مع أنَّني طرقتُ الباب نحو ألف مرَّة.

بدت لي تيتا إدو غريبةً قليلاً عندما تحدَّثنا عبْر الهاتف. ما رأيك أنت يا كلاوديا؟ لقد أصبحت تردَّد أنَّني أفضل حالاً في الشمال، وتكرَّر ضرورة التأقلم والبقاء هنا، لأنَّ ذلك ما أرادت لي ماما، ولهذا جئنا إلى

هنا. قالت تيتا إادو بضرورة الحصول على درجاتٍ جيّدةٍ في المدرسة، وإتقان الإنجليزية، وتلقّي المناولة الأولى، ولكنّي لا أفكر في ذلك ما لم تكن هي وماما حاضرتين. كما قالت لي إنّها سوف تتّصل بي عبر التليفون دائمًا، وإنّها سوف تحبّني من كلّ قلبها. ولكنّها طلبت منّي أن أنساها، لأنّ الذكريات أليمة.

وكيف أنسى تيتا إادو؟ لقد جعلتني أبكي بحديثها، ثم بكّت هي أيضًا. وهكذا راحت كلّ منّا تبكي وقتًا طويلًا. وعندما لم يعد لديّنا مزيد من الدموع، اتّفقنا على ألا أنساها أبدًا، وعلى أن تحضر إلى هنا لتراني في كاليفورنيا حالما تجد من يعتني بجدي.

سألتُ مستر بوغارت إن كان من الممكن أن تعيش ماما معنا حين تأتي. تستطيع ماما أن تساعد العمّة ليتي في التنظيف، لأنّ هذا البيت كبيرٌ جدًّا وبه خمسة حمّامات، ولا أدري كم حجرة. وافق، وعانقني، ولكنّي لمستُ في صوته قليلًا من الحزن. هكذا هي حال المُتقدّمين في السنّ يا كلاوديا، يحزنون فجأة، ولا يُعرَف لحزنهم سببًا. سوف نعيش كلّنا معًا حين تأتي ماما، ولن نفرق أبدًا. أتنخّلين ذلك يا كلاوديا؟ إنّه شيءٌ ساحرٌ جدًّا!

سيلينا وصامويل

بيركلي، سان سلفادور، سبتمبر 2020

ظَلَّت سيلينا دوران تتَّصل بصامويل عبْر زوم كلَّ أسبوعٍ للاطلاع على مستجدَّات أنيتا، وإن تفرَّع الحديث إلى موضوعاتٍ جانبيةٍ في كثيرٍ من الأوقات. لم تكن ساعةً واحدةً تكفي، ما يضطرهما إلى ترتيب موعدٍ آخر في اليوم التالي أحيانًا. وجدا كثيرًا من الأمور للتحديث عنها بشأن أنيتا: التقدُّم الذي أحرزته وسط الأسرة الصغيرة التي استقرَّت معها، وفي الدراسة، فضلًا عن طبيب ستانفورد المُتخصِّص في القرنية الذي سوف يعالجها بعد أن تمرَّ الجائحة، ووزنها الذي زاد قليلًا مع أنَّها لا تزال فاقدة الشهية. أصبح صمويل كالجدِّ الحنون، ومضى يخبر ليتيسيا بتلك الطرائف عديمة الأهمية، طرائف الصغيرة أنيتا وپاكو وپانتشيتو، ويجعلها تستمع إلى عزف أنيتا على البيانو. قال عن تلميذته إنَّ لديها حسًّا موسيقيًّا في غاية الرهافة، وإنَّها شديدة الاجتهاد، إلى حدٍّ قد يجعلها تُقدِّم الحفلات الموسيقية يوميًا. مع الأخذ في الحسبان

بوجود عددٍ من عازفي البيانو المكفوفين، بمن فيهم ذلك الطفل الياباني الذي لا تملّ أنيتا الاستماع إليه عبّر يوتيوب. كما أصبحت قادرةً على تحديد صوت كلّ آلةٍ من آلات الأوركسترا، وتعلّمت كيف تقدّر موسيقى الجاز.

في بعض الأحيان، كان فرانك أنجيليري ينضمّ إلى الاتصال عبّر زوم حتى يخبرهما بالمستجدّات القانونيّة. اضطرّ إلى العمل بسرعة، من دون مساعدة. تعوّد المحامون الذين يُوكّلون للدفاع عن القُصّر أن يقفوا أمام قضاة عاجزين عن رؤيتهم أطفالاً، عملاً بالمبدأ القائل إنهم: ما داموا قد وصلوا وحدهم أو افترقوا عن ذويهم، فهم يستحقّون معاملة المجرمين لأنّهم قد خرقوا القانون. وعلى الرّغم من ذلك، فلطالما أبدى فرانك تفاؤلاً وحماسةً أمام العقوبات القانونيّة التي لم تترك في نفسه أدنى شعورٍ بالخوف. خطّط للحصول على إقامةٍ دائمةٍ لأنيتا في الولايات المتّحدة. وفي حال لم يُعثر على أمّها، فإنّه سوف يسعى إلى الحصول على «البطاقة الخضراء» من أجلها، باعتبار أنيتا قاصراً مهجورة، الإجراء الذي قد يستغرق عامين أو ثلاثة أعوام. أمّا في حال ثبت موت الأم، فمن المؤكّد أنّها سوف تحصل على الحقّ في اللجوء، وبعد فترةٍ ربما أصبح في مقدور ليتيسيا أن تتبناها. الصبر، أوصى أنجيليري بالصبر لأنّ البيروقراطية بطيئةٌ وشاقةٌ.

أصبح العجوز يهفو إلى موعد الاتصال بسيلينا وكأنّه عاشق. كان ذلك اللقاء الأسبوعيّ ليغدو مستحيلاً في الأوقات العاديّة لأنّها تعيش في أريزونا، ولكنّ الجائحة سمحت لهما بالتحدّث عبّر الشاشة وكأنّهما في حجرةٍ واحدة. بل إنّهما صارا يتناولان الشاي معاً، كلّ في مكتبه. افترض صامويل أنّ الشابة لا تملّ حديثه كثيراً، لأنّها تحيد عن موضوع أنيتا وتخبره بحياتها الخاصّة وتحكي له عن عائلتها الغريبة، عائلة النساء

اللاتي يتمنى أن يتعرّف بهنّ، وعن مشكلاتها في الشغل وعلاقتها بالحبّ. كانت واضحة كلّ الوضوح في أهدافها المهنية. وإن عصفت بحياتها العاطفيّة الشكوك.

- أنت الأب الذي تمنّيته لنفسى. - قالت له في إحدى المناسبات.
- دعينا نقل إنني في عمر جدك. كما أنّني لستُ أبًا صالحًا لابنتي، ولا جدًا صالحًا لحفيدي. وضميري مُثقلٌ بذلك.

أخبرته سيلينا بأمر ميلوش دوديك، وكيف أنّه حصل على رتبة رقيب في حربَي العراق وأفغانستان، ولكنّه خرج من الحرب مخذولًا، مقتنعا بعدم جدوى الغزو الأميركي في هذين البلدين. شكّلت التجربة التي خاضها في الجيش شخصيّة، وأبعدته عن أبيه الذي روّعه في الطفولة وسحقه في المراهقة بطباعه الحادّة المتفجّرة. لم يسكن بالقرب من عائلته في شيكاغو مرّةً أخرى، وإنّما اكتفى بزيارة المُقربين إليه في مناسباتٍ خاصّة. كما أنّه لم يفقد المجتمع البولنديّ الذي كبر وسطه. كان يتمتّع بمظهر المحارب الرومانيّ والإصرار في العمل والاستقامة على الطريقة القديمة قليلًا، الأمر الذي تجلّى في حبه للرّب والوطن والعائلة. ولكنّ سيلينا قد انجذبت أشدّ ما انجذبت إلى روحه الرومانسيّة. تعرّفت به بعد أن ترك صفوف الجيش، وبعد أن تخرّجت هي من المدرسة الثانويّة بوقتٍ قصير. كان رجلًا يعود إلى الحياة المدنيّة قائدًا للشاحنات، بعد أن صقلته الخدمة العسكريّة. أمّا هي فكانت طفلةً دلّلتها نساء آل دوران، لم تطلّ بأنفها خارج البيت والمدرسة إلّا قليلًا.

حين تعرّف بها ميلوش خيّل إليه أنّه قادرٌ على تشكيلها وإرشادها في الحياة ومساعدتها حتى تنضج، وظلّ مُتمسكًا بتلك الفكرة. كان

ليتزوّجها على الفور، ولكنها أرادت أن تستكمل دراستها. لم يُجرِ ميلوش دراساتٍ عليا، وضاق بالنساء المهنيات القليلات وسط معارفه نظرًا إلى شعوره بأنه لا يلقي منهنّ التقدير الذي يستحقّ. لم يرَ الجدوى من أن تكون لها مهنةٌ لأنّ مستقبلها يقتصر على الزواج والأمومة، ولكن سيلينا التحقّت بالعمل الاجتماعي من دون أن تطلب رأيه. وحين أراد أن يخبرها برأيه، ضحكت منه. «أنت رجل كهفٍ يا ميلوش. لهذا أحبك، لأنّك مشروعٌ أعملُ عليه»، قالت له في جدل. أمّا مشروع سيلينا فكان تغيير ميلوش، الأمر الذي نجحت فيه بدرجةٍ كبيرة مع الوقت. وعلى الرّغم من ذلك، فلقد شهد مشروع ميلوش تراجعًا، لأنّها لم تكن مُستعدةً للترويض.

- لا أدري لماذا يحبّني. - اعترفت سيلينا لصامويل - إنّهُ شخصٌ دقيق، مُنظّم، منضبط في المواعيد، يرتعد خوفًا من الجرائم، ويغسل الخسّ بالصابون، ولا يطبق التّبذير ولا الفوضى ولا الإفراط. يلتزم بالمواعيد والمسافات والروتين. أمّا أنا فأعيش يومًا بيوم، وأترك الأشياء كلّها مبعثرةً والأبواب مفتوحة، ولا أملك أدنى فكرة عمّا تبقى لي من المال في حافظتي، وأفقد المفاتيح... خلاصة القول إنّني كارثة.

لم تعترف سيلينا لصامويل بأمر العلاقة الغرامية التي جمعتها بفرانك. وشعرت بالخزي والارتباك لأنّها قد خانت ميلوش. كان فرانك يعرف أنّها مخطوبةٌ إلى ميلوش، ورأى الخاتم في إصبعها. وعلى الرّغم من ذلك، فلقد قال لها إنّها تظلّ حرّةً ما لم تكن مُتزوّجة. وهكذا أعطى نفسه الحقّ في الفوز بها، اعتقادًا منه بأنّها ما دامت قد امتنعت عن الزواج طوال الأعوام السابقة، فالسّبب أنّها لم تكن واقعةً في الحب. ظلّ فرانك مُنعزلاً منذ شهر مارس بسبب الجائحة، وياشر العمل من بيته شأنه شأن باقي مُوظّفي شركة المحاماة. أمّا القضايا الجارية، فلقد علّقت بسبب

تعطيل المحاكم. وهكذا لم يحرز أي تقدم في قضية أنيتا دياس. أرغمته شهور الحبس التي طالت أكثر كثيرًا مما توقع أي شخص على أن يغيّر نمط حياته. افتقد فرانك المطاعم والحانات والأسفار والنادي الرياضي ومباريات التنس، ولكنه افتقد رفقتها أشد ما افتقد. وداعًا لمخططات العيش معًا. لا بد من الانتظار. مضى يرتب المواعيد مع سيلينا عبر زوم، ويرسل إليها شتى الهدايا، بدءًا بالكتب والأزهار وصولًا إلى خدمات توصيل الطعام المخصّص لحمية الكيتو الغذائية، التي كانت تسلمها أطباق اليوم في شقتها بمدينة نوغاليس.

بات السفر بالطيران محفوفًا بالأخطار، وفُرضت عليه القيود. ولكن بحلول شهر يونيو لم يعد فرانك يحتمل الفراق، فذهب لرؤيتها. استأجر سيارةً ومعدّات تخييم ثم مرّ بها، وذهبا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في منتزه بحيرة پاتاغونيا معًا. كان الوقت صيفًا. وعلى الرغم من ذلك، فلقد خلا المكان من كلّ أثرٍ للسائحين، وظلّ كلّ شيءٍ مُقفلاً، الأمر الذي مثّل ميزةً خلال شهر العسل القصير الذي خطّط له فرانك. عقد العزم على أن يغتنم هذين اليومين حتى يثبت لسيلينا أنّها لا تستطيع العيش من دونه. كاد لا يمتلك أيّ خبرةٍ في التخييم، ولكنه نجح في الارتجال بإلهام من الحبّ، وأوشك على تحقيق مراده خلال تلك الإجازة. خلص إلى أنّه لو كانت لديه ثلاثة أيّام أخرى، لاستطاع أن يقنع سيلينا بأن تترك كلّ شيءٍ وتهجر وظيفتها لتمضية أيّام الجائحة معه في سان فرانسيسكو. وضع المخططات للمستقبل، وعزم على التكفّل بمصاريف دراستها في الجامعة حتى تحصل على شهادة القانون من دون أن تُضطرّ إلى طلب قرضٍ للدراسة. ومتى تخرّجت، سوف يستقلّ بنفسه ويفتتح مكتب المحاماة الخاصّ به. استطاع أن يتخيّل اسم الشركة مكتوبًا بالحروف المذهّبة على الباب: «أنجيليري ودوران، شركة محاماة».

وفي تلك الأثناء، ظلّ ميلوش يقود شاحنته من دون أن يشتبّه في وجود فرانك أنجيليري أو الدور الذي لعبه في حياة خطيبته. رأى كثيرٌ من زملاء، في المدن الأشدّ محافظةً التي يُضطرّ إلى التوقّف بها، أنّ الفيروس مُجرّد خدعةٍ من جانب المعارضة، فاكتملت الكمامة مغزى سياسيًا. استمرّ ميلوش في استخدامها طوال الوقت، مُجازفًا بأن يلقاه الآخرون بالاستهزاء. تفاقم شعوره بالرعب من الجراثيم والأمراض، فبات يطهر يديه وكلّ ما في متناوله. ولمّا كان عاجزًا عن ضمان خلوه من العدوى، فلقد توقّف عن زيارة بيت آل دوران ورؤية سيلينا. ولكنّه ظلّ يتّصل بها على أوقاتٍ مُتقاربةٍ حتى يقول لها إنّه يهيم بها حبًّا ويعدّ الدقائق لرؤيتها مرّةً أخرى، وحتى يسألها عن مكانها والأشياء التي تفعلها. كانت مظاهر الاهتمام تورثها شعورًا بالإطراء، لأنّها دليلٌ على الحبّ ما دامت آتيةً من فرانك. أمّا لو جاءت من ميلوش، فكانت تزعجها لأنّها دليلٌ على الارتياب. ولكنّه مُحقّقٌ في ارتيابه، مضت تفكّر وهي تشعر بالخزي لأنّها تخونه.

- أحبّ ميلوش كثيرًا. إنّهُ مخلصٌ كالكلب الوفيّ. - اعترفت لصامويل - لقد انتظرني أعوامًا طويلاً. ميلوش لا يعرف الشكوك. الحياة عنده بسيطة، يكفي الالتزام بمبادئ الأخلاق الأساسيّة.

- ما رأيهِ في عملك مع الأطفال؟ - سألها صامويل.

- يقول إنّ تلك المشكلة من اختصاص الحكومة، ولا يمكن استقبال الملايين من المهاجرين، فلا بدّ من الحفاظ على بلدنا وقيمنا. ولكنّه يدرك أنّ إرغام الأطفال على مفارقة آبائهم شيءٌ مرّوع، ولا يمكنه حتى أن يتصوّر ماذا يفعل لو انتزع ابنٌ من بين يديه. يقول إنّ ذلك الشيء أبعد ما يكون عن «الأميريكيّة».

- إِنَّهُ مَخْطُؤٌ يَا سِيلِينَا، لَأَنْ مَا يَجْرِي أَكْثَرُ «أَمِيرَكِيَّة» مِمَّا يَظُنُّ.
فِي الْمَاضِي، كَانَ أَبْنَاءُ الْعَبِيدِ يُنْتَزَعُونَ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ حَتَّى يُبَاعُوا،
وَأَبْنَاءُ الْقَبَائِلِ الْأَمِيرَكِيَّةِ الْأَصْلِيَّةِ يُنْتَزَعُونَ حَتَّى «يَتَحَضَّرُوا» فِي مَلَا جِي
مُرُوعَةٍ تَابِعَةٍ لِلدَّوْلَةِ. وَلَقَدْ مَاتَ آلَافٌ مِنْ أَوْلَئِكَ الْأَطْفَالِ تَحْتَ وَطْأَةِ
الْأَمْرَاضِ الْمَعْدِيَةِ وَسُوءِ التَّغْذِيَةِ، بَلْ إِنَّهُ لَا تُوجَدُ حَتَّى قُبُورُ تَحْمَلِ
أَسْمَاءَهُمْ.

- صَحِيحٌ يَا صَامُوِيلَ، الْأَطْفَالُ هُنَا مُقَدَّسُونَ مَا دَامُوا مِنْ أَصْحَابِ
الْبَشَرَةِ الْبَيْضَاءِ وَحَسَبِ.

عَرَفَ صَامُوِيلُ أَنَّ شَيْئًا قَدْ حَدَثَ بَيْنَ سِيلِينَا وَفِرَانَكِ أَنْجِيلِيرِي
عِنْدَمَا سَافَرَا فِي شَهْرِ فَبْرَايِرَ، قَبْلَ أَنْ يُحَضِّرَا أَنْيَتَا بِشَهْرٍ. مَضَتْ سِيلِينَا
تَفْضِي إِلَيْهِ بِذَلِكَ رَوِيدًا رَوِيدًا. وَلَكِنْ يَكْفِي التَّفَكِيرُ فِي الْأَمْرِ لِثَوَانٍ
حَتَّى يَخْمَنَ الْأَشْيَاءَ الَّتِي ظَلَّتْ سَاكِتَةً عَنْهُ. وَمَعَ أَنَّهُ لَمْ يَرَهُمَا مَعًا قَطُّ، وَلَمْ
يَقَابِلَهُمَا عَبْرَ زُومٍ إِلَّا فِي مَنَاسِبَاتٍ مَعْدُودَةٍ، فَلَقَدْ وَجَدَ أَنَّ وَقُوعَ فِرَانَكِ فِي
حُبِّ سِيلِينَا أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ، لَأَنَّ لَهَا جَاذِبِيَّةً قَوِيَّةً كَجَاذِبِيَّةِ الْأَرْضِ.

- لَا بَدَّ أَنَّهُ شَيْءٌ رَائِعٌ أَلَا يَعْرِفُ الْمَرْءُ سِوَى حُبِّ وَاحِدٍ، كَمَا فِي
حَالَتِكَ يَا صَامُوِيلَ. - قَالَتْ لَهُ فِي إِحْدَى الْمَنَاسِبَاتِ.
- وَكَمْ حُبًّا عَرَفْتَ أَنْتَ؟ - سَأَلَهَا.

- لَمْ يَكُنْ لِي خَطِيبٌ إِلَّا مِيلُوشُ، كَمَا أَخْبَرْتُكَ. عَزَمْنَا عَلَى الزَّوْاجِ
فِي شَهْرِ إِبْرَيْلَ، ثُمَّ جَاءَ الْكَوْفِيدُ 19 فَتَأَجَّلَ الزَّوْاجُ. وَلَكِنَّهُ قَدْ أُنْذِرَنِي
إِنْذَارًا نَهَائِيًّا: إِمَّا نَنْزَوِّجْ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْجَائِحَةِ وَالتَّوَصُّلِ إِلَى اللَّقَاحِ، وَإِمَّا
تَنْقَطِعَ عِلَاقَتُنَا إِلَى الْأَبَدِ. يَقُولُ إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ مُوَاصِلَةَ الْإِنْتِظَارِ، فَهُوَ يَرِيدُ
أُسْرَةً وَأَبْنَاءً.

- وَأَنْتِ، مَاذَا قَرَّرْتِ؟

- لا أدري إن كنتُ أريد الزواج يا صامويل . لستُ جاهزةً للإنجاب،
أريد أن أدرس وأستمرّ في العمل . الزواج ارتباطٌ أبديّ، وذلك وقتٌ
طويل . ألا توافقني الرأي؟

- بلى، ولكنك لو كنتِ واقعةً في الحبّ لما فكّرتِ هكذا.

- إذن فربّما لم أكن واقعةً في الحبّ.

- ليس بالقدر الكافي . وكيف تشعرين من دون ميلوش؟ - سألها
صامويل .

- بحزنٍ جارف، إنّه أطيّب رجلٍ في العالم بأسره...

- ولكنك لن تشعرِي بالوحدة، أليس كذلك؟

- لن أشعر بالوحدة.

- أتفهّم ذلك . في حياتك رجلٌ آخر، ولذا أنتِ حائرة.

- أجل...

- ماذا يقدّم إليك ذلك الرجل الآخر يا سيلينا؟

- يقدّم إليّ اهتماماتٍ مشتركة، عالمًا مختلفًا عن ذلك الذي
عشتُ فيه دائمًا، أجواءً أخرى، أفكارًا، مشروعات، مُخطّطات، أسفارًا،
حرية. أمّا الحياة المنزليّة، فانسَ أمرها تمامًا في الوقت الحالي .

- أيقدّم إليك الحبّ الذي يقدّمه إليك خطيبك؟

- أعتقد بأنّني لن أكون محور حياته أبدًا، على عكس ميلوش .
ولكنّه قد عرض عليّ أن نعيش معًا . ولو سارت الأمور على ما يُرام،
أفترض أنّ الحبّ يكبر ويترسّخ بمضيّ الزمن .

- ليس دائمًا يا سيلينا .

- بَمَ تنصحنى يا صامويل ؟

- أن تنتظرى . لستِ مُضْطَرَّةً إلى الاختيار بين هذا وذاك .

- لن يقبل ميلوش بتأجيل الزواج مرَّةً أخرى . لقد تحمَّل أهوائى طوال سنوات . لا أملك الحقَّ فى مواصلة اللهو بمشاعره .

- ليس هذا سببًا وجيهًا للزواج . فى هذه المسألة ، أنصحك بالتفكير فى نفسك دون غيرك . لا تستسلمى لضغط أيِّ من هذين العاشقين ، وإلاَّ فربَّما ندمت .

وبالمثل حكى لها صامويل عن ماضيه : نادين لىبلانك والموسيقى والشيخوخة المحتومة ، فوجدت كلَّ ما يحكيه جديرًا بالاهتمام . كانت ذاكرته مزيجًا من أجمل اللحظات وأصعبها ، أمَّا البقية الباقية فضاعت فى الطريق . ولكنَّ سيلينا أرادت الوقوف على دقائق التفاصيل . أكثرت من السؤال عن نادين ، منبهةً بشخصيتها وفنِّها ونشاطها وسخائها . وفى واحدة من تلك المصادفات الغريبة ، اكتشفت أنَّ نادين واحدة من مؤسسات مشروع ماغنوليا ، المنظمة غير الهادفة للربح التى تعمل سيلينا لحسابها . بل إنَّ المشروع مدينٌ باسمه لها فى الواقع . لأنَّ الماغنوليا زهرةٌ من نيو أورلينز ، مسقط رأس نادين . لم يُفاجأ الأرمل مطلقًا حين أخبرته سيلينا بمشاركة نادين فى تلك المنظمة . أوضح لها أنَّ نادين كانت زوجةً وأمًّا مهملة ، لأنَّها أفرطت فى الانشغال بالأنوال والصدقات والأنشطة الغامضة التى قلَّما شاركته إيَّاها . وإن لم يقلل ذلك من حبه لها . بالعكس ، لأنَّه شعر نحوها بالتقدير لتلك الأسباب . وبالمثل شعرت كاميل ، التى كثيرًا ما جادلت أمَّها ، ولكنَّها شعرت نحوها بالامتنان لأنَّها شاردةٌ ومنصرفَةٌ إلى شؤونها دائمةً ، ولأنَّها لم تُخضع ابنتها للرقابة ، ما أعطى كاميل قدرًا هائلًا من الحرية .

- حتى أنا لم تنتبه إليّ كثيرًا. في البدء شعرتُ بالاستياء من ذلك، وفكرتُ أنّها لا تحبّني بالقدر الكافي. ثم ألفتُ الوضع بمضيّ الأعوام، ولم أَعُدْ أطلب منها ما لا تملك أن تعطيني إيّاه. لقد استغرقتُ في حياتها الخاصّة، ولم تحتجْ إليّ أنا أو غيري. - قال.

وجد نفسه مُضطّرًا إلى التأمّل وترتيب الذكريات للإجابة عن أسئلة سيلينا. قبل السقوط في غيبوبة الاحتضار بأيّام، قالت له نادين: «صامويل، سوف أرحل أوّلًا. لا تهدر الوقت المُتبقي لك».

مضى يسترجع ماضيه، فأدرك في غمٍّ أنّه قد أهدر الوقت بحقّ، وأنّه متى رحل عن هذا العالم لن يترك إلّا أثرًا من غبار، من شأنه أن يتبدّد مع أوّل خيوط الفجر. لم يصنع شيئًا واحدًا من أجل أحد. واكتفى بأن ظلّ شاهدًا على العالم طوال سنوات حياته الثمانين ونيف، وظلّ يحتمي من الشكوك بالحدز المحسوب، حتى جاءت أنيتا وقرعت باب بيته. لقد انطوى على نفسه ولاذ بنزعته الموسيقيّة مُتأثرًا بالَم الهجرة والطفولة التي عاشها يتيماً. كانت نادين تقول: إنّ اللامبالاة من الخطايا المميّنة، ولا بدّ من التكفير عنها طال الأجل أم قصر. ولقد صدقت، لأنّ تلك الخطيئة مضّت تطارده كالروح الشريرة العنيدة التي تداهمه في الكوابيس وفي بعض لحظات العزلة والصمت بعد أن طعن في السنّ. كم تمنّى لو بدأ من جديد، مضى يفكّر وهو يتخيّل حياةً أخرى كتلك التي عاشتها نادين، ينهل فيها من اللذة ويتجرّع الألم بقوةٍ ويخوض المجازفات والتحدّيات ويتعرّض للسقطات، حياةً شجاعة.

- لقد عشنا أنا ونادين عقودًا معًا، بينما عاش كلُّ منّا في مساحته الخاصّة. وعلى الرّغم من ذلك، فأنا أفقدها بشدّة. - أخبر سيلينا.

- كانت امرأة مُميّزة، فكيف لا تفتقدها!

- لم يجدر بها أن تسبقني إلى الموت. في الشهور الأولى من حياتي بعد أن فقدتها، كانت تظهر لي. لستُ بالرجل صاحب الخيال الجامح أو المؤمن بالأرواح، ولكنني أقسم لكِ إنني كنتُ أراها تدخل إلى الحجرات وتصعد الدَّرَج وتجلس إلى الطاولة. لم أعد أراها بذلك الوضوح، ولكنني أحسُّ بها إلى جوارِي في بعض الأحيان. أتعرفين أنَّ الشيء نفسه يحدث لأنيتا مع أختها كلاوديهما؟

- أجل. لديّ تقرير الفحص النفسي الذي خضعت له في توكسان، لأنّها كانت ترفض الطعام وتحدّث إلى نفسها ولا تلعب مع باقي الأطفال وتتبول على نفسها في الفراش.

- لقد اختفّت مشكلة التبول في الفراش تقريبًا. - قاطعها صامويل.

- يسرّني ذلك، لأنّها قد تعذّبت بها كثيرًا.

أخبرته سيلينا بأنّها قد تحدّثت إلى الجدّة إدوينخيس، التي أوضحت لها أنَّ أنيتا بدأت تحدّث إلى شقيقتها بعد الحادثة. ثم خضعت للعلاج مع طبيبة نفسية بمدرستها في السلفادور لبضعة أشهر. بدأت تخطو خطواتها الأولى نحو تقبّل رحيل الأخت والتعافي من الألم، ولكنها اضطرت إلى السفر إلى الولايات المتحدة. طبقًا للتقرير الصادر في توكسان، فلقد عانت أنيتا انتكاسةً في التطوّر العاطفي. وصارت في حاجة إلى العلاج، شأن جميع الأطفال الذين أرغموا على مفارقة ذويهم، ولكن الميزانية لم تسمح بذلك.

- سوف أحرص على تلقّيها العلاج في أقرب وقتٍ ممكن. - وعدها صامويل. - أعتقد بأنّ أنيتا تجد في حضور كلاوديا السلوان الذي

وجدته أنا في حضور نادين. دعينا نقل إنه مزيج من الحب والرغبة في استحضار الذكرى، فلا أنيتا مجنونة ولا أنا مريض زهايمر، أوكد لك.

- طبعًا. - قالت سيلينا - لا يفاجئني مطلقًا أن تكون أرواح الأحباء تزورنا. تذكر أنني قد نشأت مع جدّة عرّافة. عادةً ما يكون الترمّل ثقيلًا على القلوب. أشعر بالوحدة أحيانًا؟

- كنتُ أشعر بالوحدة طوال الوقت فيما سبق. أمّا الآن فلم أعد أشعر بها. بفضلِكَ أنتِ صرْتُ أكثر سعادةً ممّا كنتُ طوال عدّة أعوام. لقد أعطيتني هدفًا في هذه المرحلة الأخيرة من الحياة. والآن صارت عندي مسؤوليّةٌ أساسيّةٌ، وأصبحتُ قادرًا على البدء في التكفير عن خطيئة اللامبالاة.

- أتقصد أنيتا؟

- أجل. أيّ هديّةٍ رائعةٍ أهديتني يا سيلينا!

في الثلاثاء الثالث من شهر سبتمبر، اتّصلت سيلينا بصامويل على غير المُتوقّع. افترض أنّ شيئًا مهمًّا قد طرأ، لأنّ الاتصال بينهما يقتصر على أيام السبت. ثم جاءت نبرة صوتها المُتبدّلة لتؤكد الشكوك التي راودته.

مكتبة

t.me/soramnqraa

- صامويل، هل أنت وحدك؟ - سألته.

- أجل، في مكّتي.

- أغلق الباب، من فضلك. إنّها مسألة سرّية.

- انتظري لحظة... أنيتا تسمع من خلال الجدران، وتحدس بالأشياء التي لا تسمعها. لا يخفى عليها سرّ.

- لا يمكن أن تسمع ما سوف أخبرك به عبر التليفون، فكن حذرًا فيما تقول. هل تذكر أنني قد حدثتك عن لولا، سائقة سيارة الأجرة الوردية في السلفادور؟

- أها! ماذا جرى لها؟

- لقد اتصلت بي لولا قبل قليل، وأخبرتني بأن فضيحة مدوية قد تفجرت في بلدها. لقد اكتشفت سلسلة من الجرائم. إذ عُثر على عددٍ من الجثث في فناء أحد العقارات بمدينة تشالتشوايا. بعض الجثث كانت هناك منذ عدة سنوات مضت، ولكن أغلبها حديثة.

أخبرتني لولا بأن الجيران قد سمعوا صرخات امرأة فاتصلوا بالشرطة، التي تأخرت في الوصول ساعة كاملة. وجاءت بعد فوات الأوان. عُثر على جثة شابة قُتلت ضربًا بقضيب من الحديد. أُلقي القبض على مالك البيت، ثم بدأ التنقيب في الفناء بطلب من الجيران الذين اشتبهوا في أن أمورًا مروعة تقع هناك منذ وقتٍ طويل، وهكذا عُثر على رفات بشرية في عدة مقابر جماعية.

- الضحايا جميعًا من النساء والفتيات الصغيرات، حتى الآن. يُشتبه في وجود المزيد من الجثث تحت الأرض. - قالت له سيلينا.

- حالة أخرى من حالات العنف القائم على الجنس... - غمغم صامويل.

- العقار ملك لكارلوس غوميس، الشرطي السابق، الذي طرد من عمله قبل عدة أعوام بتهمة التعدي على فتاة قاصر. هو نفسه الرجل الذي أطلق الرصاص على ماريסول دياس.

- ماذا تقولين! - صاح صامويل.

- لقد أُلقي القبض عليه، لأنَّه المشتبه الرئيسي. كما أُلقي القبض على رجال آخرين بتهمة إلى الانتماء إلى تلك العصابة التي تختطف النساء والصغيرات وتعذِّبهنَّ وتقتلهنَّ. تخشى لولا أن تكون ماريسول بين الضحايا.

- أنتِ وأنجيليري لم تعثرا لها على أثرٍ حين ذهبتما للبحث عنها.

- الأمر أكبر من أن يكون مُجرَّد مصادفة، ألا توافقني الرأي؟ -

قالت سيلينا- لقد أراد ذلك الرجل أن يقتل ماريسول، والأرجح أنَّه قد نجح في ذلك.

- كيف؟

- لا أعتقد بأنَّها قد رُحِّلَت إلى بلدها، بل إنَّها قد أُرسِلَت إلى المكسيك لانتظار دورها في تقديم طلب اللجوء. وأنت تعرف أنَّ تلك المخيَّمات خاضعة لسيطرة المجرمين. من الوارد أن تكون ماريسول قد اختُطِفَت واقتيدَت إلى السلفادور.

- من الذي اختطفها؟ ولماذا؟ - سألها صامويل.

- تشهد الحدود حركةً نشطةً للاتجار بالبشر، ولا سيَّما النساء والأطفال. لقد تورَّط كارلوس غوميس في ذلك، كما أنَّ لديه علاقات كثيرة، فهو يعرف الجميع، حسبما أخبرني بنفسه.

- سيلينا، افترض أنَّ لعمليَّات الاختطاف ثمنًا باهظًا. ولقد أخبرتني

بأنَّ كارلوس غوميس مُجرَّد حارس عقار.

- حارس أمن. لا أظنَّه قد اضطرَّ إلى دفع الثمن مقابل ذلك.

لأنَّ المجرمين يتدبَّرون أمورهم فيما بينهم، ويتبادلون الخدمات. كان غوميس في حاجةٍ إلى إسكات ماريسول، ومن المؤكَّد أنَّه أراد الانتقام

منها لأنها قد أهانتة. من السهل عليه أن يطلب من أحد المجرمين أن يختطفها من المكسيك، ثم يأخذها إلى غواتيمالا، ومن هناك تُساق إلى السلفادور برًا. لهذا السبب لم يُسجّل دخولها إلى البلد. - قالت.

- لا يمكن إثبات شيء من هذا يا سيلينا.

- لقد تذكّرتُ من فوري أنّ كارلوس غوميس، خلال حديثي معه في السلفادور، قال إنّ ماريסول قد حلقتَ رأسها بعد أن كان لها شعْرٌ جميل. كيف عرف ذلك؟ علمًا أنّها قد حلقتَ رأسها عندما وصلتَ إلى المكسيك، قبل أن تستقلّ القطار. لا يمكن أن يكون غوميس قد رآها حليقة الرأس ما لم تعد ماريسول إلى بلدها. ولو أنّها رجعتَ برغبتها، لذهبتَ إلى بيت حماتها أو شقيقها، ولكنّ أحدًا لم يرها هناك. آه! صامويل، أخشى أنّ ماريسول في واحدةٍ من تلك المقابر الجماعيّة. ماذا يكون من أمر أنيتا الآن؟

- سوف أتولّى أمر أنيتا ما وسعني ذلك. - أجاب صامويل - ولكن دعينا لا نسبق الأحداث، فلا بدّ من الانتظار إلى حين التحقق من هويّات الجثث.

- هناك شيء آخر لم أخبرك به من قبل، لأنّه غير معقولٍ بحقّ.

وعند ذاك أخبرته سيلينا بالرؤيا التي تمثّلت لجدّتها، دورا دوران. لم يكن صامويل قد سمع عنها شيئًا حتى جاءت سيلينا على ذكرها وهي تحكي له عن عائلتها. ولكنّه أضمر لها شعورًا بالاحترام حين عرف بالأمور الصحيحة التي كشفتها العرّافة. عرف أنّ سيلينا قد أخذتها للقاء أنيتا في نوغاليس، وأنّ المرأة قد أحسّت بالقوّة الروحيّة التي تتمتع بها الصغيرة. لم يسبق له أن صدّق الظواهر الخارقة حتى رأى روح زوجته، في تجربة غريبة مرّ بها. أوضح له الطبيب النفسي الذي استشاره آنذاك أنّ

للأمر تفسيرًا منطقيًا: فهي مُجرّد هلوساتٍ تصيبه تحت وطأة الشيخوخة والاكْتئاب الحادّ. والدليل على صحّة ذلك التشخيص أن زيارات نادين الآتية من عالم ما وراء القبور قد انتهت بمزيجٍ من الأدوية والعلاج. ولكنّه لم يقتنع تمام الاقتناع بأنّه قد عانى اضطراباتٍ ذهنيّة. فكّر بأنّ العجز عن تفسير الشيء لا يعني عدم وجوده. ولكنّه أمسك عن مجادلة طبيب النفس في تلك النقطة. وقرّر التسليم بكلام دورا دوران.

- لقد ظهرت ماريسول دياس لجذّتي في حلم. رأيتها تحت الأرض، ومعها أخريات.

- معذرة يا سيلينا، ولكنّها تبدو حالةٌ مألوفة، حالة النبوءة التي تأتي بعد وقوع الحدث. - فنّد كلامها.

- صامويل، كان ذلك في يونيو، قبل البدء في انتشال جثث أولئك النساء من فناء بيت كارلوس غوميس بوقتٍ طويل.

وكما قال فرانك لسيلينا وصامويل يومذاك في أثناء الاتّصال عبّر زوم، لم يكن لحلم العرّافة المقيمة في لوس أنجلوس أدنى قدرٍ من الفائدة. يمكنه أن يتخيّل الأمارات المرترمة على وجه القاضي لو قدّم ذلك الحلم، باعتباره حجّةً لدعم طلب اللجوء الخاصّ بأنيتا. لا تبدّل جرائم تشالتشواپا شيئًا واحدًا في وضع الطفلة، ما لم يثبت أن الأمّ وسط الضحايا. اتّصل فرانك من فوره بصديقه فيل دورتي، الذي زوّده بكلّ المعلومات المتاحة بشأن جرائم القتل. فُرِضت قيودٌ على الدخول إلى الشارع حيث وقعت الجرائم، حتى الصحافة لم يُسمح لها بالاقتراب. وإن كانت لدورتي صلاته الخاصّة، فتمكّن من استغلال منصبه الدبلوماسيّ مدعومًا بنفوذ السفارة الأميركيّة.

هزّت الجريمة أركان البلد من بشاعتها، بل إنّ الصحف بدأت تنشر تحديثاً بعدد الضحايا كلّ يوم، على كثرة ما تتكرّر حالات العنف. اقتضت الضرورة عزل كارلوس غوميس وأعوانه في السجن كيلا يفتك بهم باقي السجناء. في حين وعد الرئيس بتحقيق العدالة، وأعلن عن تشكيل لجنة خاصّة من النيابة للتحقيق في الجرائم المُقرّفة ضدّ النساء والأطفال. بينما توجّهت إدويخيس كورديرو إلى الشرطة عدّة مرّات للإبلاغ عن اختفاء زوجة ابنها والملاحقة التي تعرّضت لها على يدي القاتل المتسلسل. ومنذ ذلك الاكتشاف المشؤوم، صارت الجدّة من أولئك الذين يترقّبون إلى جوار «منزل الرعب»، كما أطلق عليه الصحف، منذ مطلع الفجر. كان كلّ منهم يبحث عن إحدى المختفيات، مثلهم كمثّل إدويخيس. في حين انطلق أفراد فريق الطبّ الشرعيّ ينقبّون في الأرض بعنايةٍ تليق بعلماء الآثار، - وقد تغطّت أجسادهم كاملةً من الرؤوس إلى الأقدام، وكأنّهم رواد فضاء- لأنّ الجثث قد تراكمت بعضها فوق بعض، واختلطت العظام في حالاتٍ كثيرة. خلال أعمال التنقيب الأولى عُثِر على عشرين جثّة، ولكنّ الجثث لم تتوقّف عن الظهور.

أقنعت سيلينا فرانك بأنّه من غير المقبول أن يقفا مكتوفي الأيدي في انتظار نتائج التحقّق من هويّة الضحايا، لأنّ العمليّة تسير ببطء، في حين بدأت الصحافة تنشر نظريّاتٍ تفيد باحتمال أن يكون بعض الرجال من أصحاب النفوذ يحاولون التعتيم على القضيّة لتورّطهم في جرائم القتل. أُعيد فتح مطار سان سلفادور في تلك الأيام أخيراً، بعد أن ظلّ موصداً في وجوه الوافدين طوال شهرٍ بسبب الجائحة، فما لبث فرانك أن حجز تذكريّ طيرانٍ له ولها.

في تلك المرّة واجهت ميلوش بالحقيقة، وأبلغته بأنّها مسافرة للمرّة الثانية مع فرانك أنجيليري الذي تجمعها به علاقة غرامية منذ عدّة أشهر. أخبرته بذلك عبر البريد الإلكتروني. ثم أكدت حديثها عبر التلفون مُمتنّة للجائحة التي وفّرت عذراً وجيهاً حتى لا تُضطرّ إلى ذلك وجهاً لوجه. خافت من ردّ فعل خطيبها المُتمسك بها، ثم تأكّد لها أنّه كان يرتاب في أمرها بالفعل، وبات مُستعدّاً للخبر بدرجةٍ أو بأخرى. نفذت قدرته على التحمّل، وخلص إلى أنّها لو أحبّته بقدر ما أحبّها فليس هناك عائق واحد يمنعهما من البقاء معاً، ولو كان ذلك الفيروس اللعين. قال لها إنّهُ قادرٌ على تفهّم أمورٍ كثيرة، ولكنّه لن يغفر لها أبداً أنّها قد أخبرته بالكذب وخاتته بتلك الطريقة، وخدعته طوال شهور. كان الحديث مفعماً بالتوتر، مُقتضباً. وعند الوداع، أخبرها ميلوش بأنّه لا يريد أن يعرف عنها شيئاً من الآن فصاعداً. لقد حان الوقت لقلب تلك الصفحة وطيّها في أدراج النسيان. أصيب ميلوش بجرحٍ غائر. قال لها إنّهُ في تلك المرّة قد أخذ الأمر على محمل الجدّ، ولم يعدّ التصالح ممكناً شأنه في مرّاتٍ سابقة.

بالنسبة إلى سيلينا، كانت تلك نهاية الخطوبة المضطربة التي استنفدت قواها وأورثتها شعوراً بالذنب. بعد أن ودّعته للمرّة الأخيرة، انطلقت تبكي بدموع الارتياح. لقد تحمّلت ضغط ميلوش طوال ثمانية أعوام، وفي تلك اللحظة فحسب، عندما نالت حرّيتها، أدركت كم أثقلها ذلك الحبّ المفعم بالهوس الذي أوقع بها منذ كانت فتاةً في مقتبل العمر. لا يمكن أن تقع في وضعٍ مشابهٍ مع فرانك. صحيحٌ أنّها قد أحبّته، ولكنها لم تعرفه إلّا قليلاً، ولن تسمح له باستعجالها أو توريطها في مشروعاته. لأنّها في حاجةٍ إلى المساحة والوقت، عملاً بنصيحة صامويل. شعرت بأنّ مستقبلها ملكٌ لها وحدها، لأوّل مرّة. أعدت نفسها لتنهل من الحبّ مع فرانك بخفّة، بلا قيود تشدّ وثاقها.

خضع المسافرون إلى السلفادور للحجر الصحي فور وصولهم، وإن أُعفي فرانك وسيلينا من ذلك لأنَّ فيل دورتي كان ينتظرهما عند باب الطائرة، ومضى بهما إلى صالة كبار الزوّار. استقبلهما أحد موظفي الهجرة على انفراد، بالكمامة على وجهه والقفاز المطّاط في يديه، وختم جوازَي السفر مُرحّبًا بهما. ثم أخذهما فيل إلى البيت، حيث كانت زوجته قد أعدت لهما حجرة، لأنَّ البيت يوفر حمايةً أكبر من الفيروس مقارنةً بالفندق. لم يخطر على بال صاحبة الدّعوة أن تسألهما إن كانا يفضلان حجرتين منفصلتين، وافترضت أنَّهما زوجٌ وزوجة.

في تلك الليلة تطارح فرانك وسيلينا الحبّ بأكبر قدرٍ ممكنٍ من التكتّم، بين همساتٍ وضحكاتٍ مكتومة، وإن وشى بهما صرير الفراش. لم يقضيا ليلةً كاملةً معًا منذ شهر يونيو، حين هربا إلى بحيرة پاتاغونيا. ومرةً تلو أخرى، تسنّى لهما اكتشاف قيمة الفراش الوثير مقارنةً بحقيبة النوم داخل الخيمة.

في اليوم التالي، أخذهما فيل إلى معهد الطبّ الشرعيّ، حيث تودّع الرفات التي يُعثر عليها بعد انتشارها من المقابر الجماعيّة. كان هناك آخرون ينتظرون في صبر، ومن بينهم خينارو أندراي، الذي تعرّفهما وأشار إليهما من بعيد. ذهبت إليه سيلينا.

- هل عرفتَ شيئًا عن أختك؟ - سألته.

- لا شيء. لم أتحرك من هنا منذ يومين. لقد جئتُ أنا وغيري من أمكنةٍ بعيدة.

- هل يبلغونكم بالأخبار؟

- أجل، عندما يكون لديهم ما يخبروننا به. لقد اكتشفت هويّات ثلاث ضحايا ونُشِرت أسماءهنّ، كما تمكّنت عائلاتهنّ من تسلّم الرفات لدفنها. هل يُسمَح لكم بالدخول؟

- نأمل ذلك. لو بلغتنا أخبارٌ عن ماريسول سوف نتَّصل بك على الجوال فورًا.

استقبلهم مدير الأنثروبولوجيا الشرعيَّة في مكتبه، وشرح لهم الإجراءات المعتادة، موضحًا أنَّه قد تقدَّم بطلب مساعدة أطباء شرعيين من مدنٍ أخرى، لأنَّ المعهد يعمل بأقصى طاقته. كان كارلوس غوميس قد اعترف وأقرَّ بأسماء تسعة شركاء في الجريمة، وإن حامت الشبهات حول وجود أعضاء آخرين في ذلك النادي المشؤوم، نادي المُنحلِّين. ذكر في شهادته أنَّ فناء بيته يضمُّ من ثلاثين إلى أربعين جثةً، حسبما يذكر. لم يكن مُتأكدًا من العدد، لأنَّ بعض الجثث قد دُفِنَت هناك منذ سنوات، ولأنَّه لم يحصِ عدد القتيلات. لم يُبدِ مظاهر الندم، وإنما ظهر وكأنَّه يتلذَّذ بالشمعة السيئة.

مضى بهم المدير إلى قاعات التشريح، حيث كانت الطاولات كُلُّها مشغولة. بينما حُفِظَت جثثٌ أخرى داخل الثلاجات، في انتظار دورها. جاءت أوَّل صدمةٍ مُتمثلة في رائحة الموت والمُطهَّرات التي عجَزَت الكمادات عن إخفائها. سادت النظافة والنظام في المكان. وباشر الأطباء الشرعيُّون عملهم بفعاليَّة ووقار، فيما يشبه الصمت، بينما ظهرت عليهم أمارات الهول التي بدَّت على سيلينا وفرانك أيضًا.

- إنَّه عملنا. - أوضح لهم المدير- لقد ألفنا الموت بمظهره كافَّة، حتى لو انكسرنا في بعض الأحيان. أسوأ شيءٍ عندما تصلنا حالات لأطفالٍ صغار...

اقتربوا من إحدى الطاولات، حيث انهمك في العمل أربعة أشخاصٍ مُتخلِّقين حول جسدٍ ضئيل. أوضح لهم أحد الأطباء أنَّها

طفلة في الثانية من العمر. تهدّج صوته، ومضى يتنحّج خلف الكمامة المزدوجة، مُحاولاً كبج مشاعر الغضب والهول.

- طبقاً لتقديراتنا، فإنّ هذا الجسد الصغير ظلّ مطموراً قرابة عام. سوف نجري تحاليل الحمض النوويّ للتحقّق من هويّة الضحيّة. هناك ثلاث عائلاتٍ أو أربع تبحث عن طفلاتٍ مختفيات، ولكنّهنّ أكبر عمراً بعض الشيء. أفترض أنّكم لا ترغبون في معرفة الطريقة التي ماتت بها. - قال لهم بنبرة تحدّ.

- لم نأتِ إلى هنا لإشباع الفضول المرَضِيّ يا دكتور. نبحث عن امرأةٍ شابة. - أجابت سيلينا.

- كم يؤسفني ذلك... أهى من الأقرباء؟

- إنّها أمّ طفلةٍ نسعى إلى الحصول على الحقّ في اللجوء بالولايات المتّحدة من أجلها. - قالت، ثم حكّت له مأساة أنيتا بإيجاز.

- كلّ الجثث هنا تقريباً لفتياتٍ في مستقبل العمر. هل لديكم معلومةٌ قد تساعد في التحقّق من هويّتها؟

أطلّعت سيلينا على نسخ من الصور التي زوّدتها بها إدوبيخيس كورديرو، وتلك التي وردت في تقرير الهجرة بمدينة نوغاليس.

- تُدعى ماريّسول أندراي دي دياس. وكما ترى يا دكتور، لقد وصلت ماريّسول إلى الولايات المتّحدة حليقة الرأس كالرجال. كما يتّضح من الصور أنّ أسنانها الأماميّة مُتباعِدة. ولو كانت بين الضحايا، فلا بدّ أن يكون جسدها حديثاً، لم يمرّ عليه أكثر من تسعة أشهر، لأنّني قد تحدّثتُ إليها عبّر التليفون في ديسمبر من العام الماضي.

- أُصِيبَتْ فِي صَدْرِهَا بِرِصَاصَةٍ اخْتَرَقَتْ اثْنَيْنِ مِنْ أَضْلَاعِهَا، عَلَى
بَعْدِ سَنَتَيْمَتَرَيْنِ مِنَ الْقَلْبِ. أَتَرَكَ هَذِهِ الْإِصَابَةُ أَثَرًا؟ - سَأَلَ فِرَانَك .
- ذَلِكَ شَيْءٌ مُحْتَمَلٌ . سَوْفَ أَطْلَعُكُمْ عَلَى الْأَجْسَادِ الَّتِي وَصَلَتْ
إِلَيْنَا .

أَخَذَهُمْ إِلَى الثَّلَاجَاتِ، حَيْثُ تَرَاصَّتْ ثَلَاثَةُ صَفُوفٍ مِنَ الْخَزَائِنِ
الْمَعْدِنِيَّةِ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ . مَضَى يَفْتَحُهَا وَاحِدَةً تَلُو الْأُخْرَى . حَوَتْ
بَعْضُ الْخَزَائِنِ هِيَاطًا عَظِيمَةً وَأَسْمَالًا عَفْنَةً، وَإِنْ كَانَتْ الْجِثَّةُ فِي أَغْلَبِ
الْخَزَائِنِ مَكْتَمَلَةً، وَفِي مُخْتَلَفِ أَطْوَارِ التَّعَفُّنِ . لَمْ تُكُنْ امْرَأَةٌ وَاحِدَةً تُشَبِّهُ
مَارِيَسُولَ أَوْ تَبْدُو حَلِيقَةَ الرَّأْسِ مِثْلَهَا . لَمْ تَقَوِّ رَكْبَتَا سَيْلِينَا عَلَى حَمْلِهَا،
فَاضْطُرَّتْ إِلَى الْخُرُوجِ لِتَتَنَشَّقَ الْهَوَاءَ الطَّلُقَ مُسْتَنْدَةً إِلَى فِرَانَكِ وَفِيلٍ .
أَسْعَفَهَا الْوَقْتُ لِلْوُصُولِ إِلَى الْفَنَاءِ قَبْلَ أَنْ تَفْرُغَ جَوْفُهَا .

- مَا زَالَ الْعَمَلُ جَارِيًا عَلَى انْتِشَالِ الْجِثَّةِ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ،
وَسَوْفَ تَصِلُ إِلَى هُنَا فِي الْأَيَّامِ الْمُقْبِلَةِ . إِنْ وَجَدْنَا ضَحِيَّةً تَنْطَبِقُ عَلَيْهَا
مَوَاصِفَاتُ مَارِيَسُولَ، سَأُخْبِرُكُمْ بِذَلِكَ . - وَعَدَ الْمَدِيرُ قَبْلَ أَنْ يُوَدِّعَهُمَا .

وَضَعَ فِيلٌ دُورَتِي فِي خِدْمَةِ ضَيْفَيْهِ سَيَّارَةً وَسَائِقًا وَحَارِسَ أَمْنٍ مِنَ
السَّفَارَةِ لَزُومِ الْإِنْتِقَالَاتِ . إِذْ وَجَدَ سَيَّارَةَ الْأَجْرَةِ الْوَرْدِيَّةَ لَافِتَةً لِلْأَنْظَارِ،
وَعَبْرَ مَنَاسِبَةٍ لِلْوُضْعِ الرَّاهِنِ الْخَطِيرِ . غَيْرَ أَنَّهُ دَعَا لَوْلَا إِلَى تَنَاوُلِ كَأْسٍ مِنَ
الشَّرَابِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ . وَبَيْنَ كَأْسِ مَانِهَاتِنِ وَأُخْرَى، حَكَى لَهَا فِرَانَكُ
وَسَيْلِينَا عَنْ تَجَرِبَةِ مَعْهَدِ الطَّبِّ الشَّرْعِيِّ .

فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ، ذَهَبَ فِرَانَكُ وَسَيْلِينَا إِلَى تَشَالْتَشُوَايَا لِرُؤْيَةِ
إِدُوبِيخِيَسِ كُورْدِيرُو . وَجَدَاهَا طَاعِنَةً فِي السِّنِّ، شَدِيدَةً النُّحُولِ . لَمْ تَكُنْ
مَكْتَبَةً، وَإِنَّمَا ثَائِرَةً، مُتَأَهِّبَةً لِلْحِرَاكِ . عَبَّرَ مَوَاقِعَ التَّوَاصُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ،

شرعت مجموعة من الناشطين تنظم احتجاجاً حاشداً على المستوى القومي. بينما أعلن عن إضراب عن العمل والأشغال المنزلية وإضراب شامل لكل النساء، كما أعلن عن خروج النساء إلى الشارع للتظاهر ضد قتلهن. من جانبها حشدت إدوبيخيس الصديقات ورفيقات العمل في صناعة الصبغة النيلية.

- إنها حرب على النساء. يغتصبوننا، ويعذبوننا، ويقتلوننا، ثم يفلتون من كل أشكال العقاب. كفى! - صاحت الجدة.

ذهبا معها إلى «منزل الرعب»، فسمح للسيارة التي تحمل لوحة الأرقام الدبلوماسية بالمرور من الحاجز الأمني والاقتراب من المكان. كان بيتاً راسخاً، يقع في أرض مترامية الأطراف على مشارف المدينة. قالت لهما إدوبيخيس إن الأمر لا يقتصر على جرائم قديمة كما ادعت الحكومة، فأغلب أولئك النساء قد رحن ضحايا العنف في الآونة الأخيرة.

- تستحق أولئك النساء العدالة، كما تستحقها الآلاف والآلاف من النساء والفتيات الأخريات اللاتي يُقتلن من دون أن يدفع ثمن الجرائم أحد، كائنًا من كان.

- نأمل ألا يحدث ذلك في حالة ماريسول. - قالت سيلينا.

- لن يقنعني أحد بأن كارلوس غوميس لم يقتل زوجة ابني. مع العلم أنه قد حاول قتلها من قبل. لعلهم لا يعثرون عليها في فناء بيته، ولكنني متأكدة أنها لم تعد في هذا العالم. - قالت إدوبيخيس مُشددة على كلامها.

- إن لم تظهر صارت أنيتا في وضع مبهم. - تدخل فرانك في الحديث.

- أصلي كثيرًا حتى ترى حفيدتي أمها مرةً أخرى. ولكنني أصلي أيضًا حتى تبقى مع عمّتها في الشمال، في حال رحلت أمها. وإلا فماذا أستطيع أن أقدم لها هنا؟ حبي، وحده الحبّ أملك أن أقدمه إليها. لا أستطيع أن أحميها أو أوفر لها تعليمًا جيدًا أو جراحةً للعَيْنَيْنِ. أيّ مصيرٍ تلقى؟

- إدوبيخيس، سوف نبذل قصارى جهدنا لمساعدتها. أعدك بذلك. - قالت لها سيلينا وهي تعانقها.

- وأنا أعدك بأن أحضر إلى هنا بنفسني لأصحبك في زيارةٍ إلى آنيثا لو بقيت في الولايات المتحدة. تفتقدكِ الطفلة كثيرًا. - أردف فرانك.

في تلك اللحظة بالتّحديد، خرجت من المنزل سيّارةً بيضاء. أوضح لهم أحد الحراس أنّها ثلاجة جثثٍ مُتنقّلة، يُحتفظ في داخلها بالرفات مُثلّجةً حتى يصبح لها مكانٌ في معهد الطبّ الشرعيّ.

- هل أسعفك الوقت لرؤية الجثّة؟ - سألته سيلينا.

- كلاً. في السيّارة ضحيتان. كلّ ما أعرفه أنّهما امرأتان أيضًا. - أجاب الحارس.

ودّعا إدوبيخيس وهما يؤكّدان لها أنّها ستكون أوّل من يعلم حالما يصلهما أيّ خبر. رجعا إلى معهد الطبّ الشرعيّ للانتظار مع باقي الأشخاص الذين راحوا يكون على قريباتهنّ المختفيات.

بعد أيّام، وصلت سيلينا وفرانك إلى مطار سان فرانسيسكو. ومن ثمّ اتّجها مباشرةً إلى بيركلي، حيث يقوم بيت صامويل أدلر - بسحره الذي لا يُنكر، ذلك السحر الذي يليق بقصرٍ عتيق - ، وسط الحديقة الكثيفة التي تراءت عليها أولى بشائر الخريف. في وقتٍ مُبكرٍ من المساء، تسلّل ضوء الشمس المنخول من بين السحب، وأسبغ مظهرًا مسرحيًا على

الحديقة بما حوت من أبراج صغيرة وأعمدة ذات طابع خيالي. لم يُقفل سياج الحديقة بالمفتاح، فدخلنا إلى المكان وسط نباح پاكو الذي انطلق مُعلنًا عن وصولهما. إذ لم يُعد الجرس يعمل منذ عام 1978.

سمعت أنيتا صوتهما، فأطّلت من خلف الباب وقد تشبّثت بطوق پاكو. قطعَت سيلينا درجات المدخل الخمس راكضة، فاتحةً ذراعيهما عن آخرهما.

- هل حضرت ماما معكما؟ - سألت الصغيرة.

- كلاً يا أنيتا. - غمغمت سيلينا وهي تخفي المشاعر التي تعتمل في نفسها.

لم تلح الطفلة في السؤال، وكأنَّ هاجسًا قد حدّثها بشيء. صحبتهما إلى داخل البيت مُمسكةً بيديهما. كاد لا يسعهما الوقت لإلقاء التحية على باقي أفراد الأسرة، لأنَّها أرادت أن تُطلعهما على الكمبيوتر المُزوّد بلوحة مفاتيح خاصّة للمكفوفين، ونصف دزينة أشجار الميلاد المُضاءة التي تعطرها لبتيسيا برائحة الصنوبر، فتحدّد أنيتا مواقعها مُسترشدةً بالرائحة، وأشياء أخرى لم تستطع أن تشارك سيلينا إيّاها عبْر زوم. ما زالت في غاية الهزال، وإن تراءت بشرتها أكثر نضارة. أظهرت لهما كيف تستطيع قراءة الموسيقى بالعدسة المُكبّرة، مستعينةً بالنوتات التي يكتبها صامويل بخطّ كبير. لم تتحمّس كثيرًا لتعلّم القراءة بطريقة برايل، لأنَّها لم ترغب في الالتحاق بمدرسةٍ للمكفوفين.

- سوف تشفى عيناى، وألتحق بمدرسةٍ عادية، كالمدرسة السابقة. - أخبرتهما.

وأخيرًا تمكّنت لبتيسيا من إلهائها في المطبخ حتى يتسنى لفرانك وسيلينا التحدّث إلى صامويل خلف باب المكتب المُغلّق.

- صامويل، لدينا ما نخبرك به.. قالت سيلينا.

- لا بدّ أن يكون شيئاً مُهمّاً، في تصوُّري. ها نحن قد التقينا بصفةٍ شخصيّةٍ أخيراً يا فرانك.

- لم نتمكّن من إبلاغك بطريقةٍ أخرى. لا أعرف كيف أبدأ.... -
تلعثمت سيلينا.

- لستما في حاجةٍ إلى اللفّ والدوران معي، فأنا أكبر من أن
أحتاج إلى ذلك.

- الأمر... مُتعلّق بماريسول... ذهبنا إلى السلفادور قبل وقتٍ
قصيرٍ بسبب جرائم تشاليتشوايا. لقد عُثِر على مارييسول.

- آه، ربّاه! - صاح صامويل واضعاً يديه على صدره، وما لبث أن
أحسّ بقلبه ينتفض كالطبول هل تأكّدتما أنّها هي؟

- أجل. لم تُكن في المقبرة الجماعيّة، بل في حفرةٍ أحدث عهداً
في أقصى الطرف الآخر من المنزل. ولذا كانت جثّتها آخر الجثث التي
انتشلت من تحت الأرض. إنّها رفات مارييسول، بلا أدنى شكّ. لقد
تعرّف شقيقها خينارو جثمانها. وأنا أيضاً، بالنظر إلى الصور.

- كما يظهر في الأشعة السينيّة أثر الرصاصة التي أصابت صدرها.
- أردف فرانك - لقد ماتت قبل بضعة أشهرٍ وحسب، ما سمح بالتحقّق
من هويّة الجثّة. مع أنّ الطقس الرطب الحارّ يزيد من سرعة التحلّل.

- رافقنا إدوبيخيس وخينارو خلال مراسم دفن مارييسول.
صامويل... صامويل... هل أنت بخير؟ - سألته سيلينا، في قلق.

- أجل... أجل. إنّها خفقات قلبي السريعة التي تجعلني أمرّ بأوقاتٍ
عصبية. ولكنّه ليس بالشيء الخطير... - أجاب، وهو يتناول قرصاً.

- تبدو في غاية الشحوب. سوف أنادي ليتيسيا.

- كلاً. من فضلك. سأكون على ما يُرام خلال دقيقتين. أخبراني بكل ما تعرفان.

- ولماذا نخبرك بمزيد من التفاصيل؟ إنها أشياء مُروّعة. أملُ ألا تعرف أنيتا يوماً كيف قُتِلَت أمّها. ولكن يجب عليها أن تعرف أنها لن تراها مرةً أخرى. - قال فرانك وهو يحكّ جبينه، وقد جاشت مشاعره.

- ومن يخبرها بذلك؟ أنا لا أستطيع. - غمغم صامويل، مُرتجفاً. ولكن لا يمكن أن تعيش الطفلة وهي في حالة انتظار، كما قدّر لي أن أعيش وأنا في مثل عمرها تقريباً. ستكون الصدمة شديدة القسوة، ولكن لا مفرّ من ذلك.

- لماذا لا ننتظر قليلاً؟ - اقترحت سيلينا. ما زالت أنيتا في غاية الهشاشة. إنها في حاجةٍ إلى بعض الوقت. وكلّما ألفت هذا البيت، أصبحت قادرةً على تجاوز كل الصدمات التي مرّت بها. بالحبّ والمساعدة النفسيّة...

- أنتِ مُخطئة يا سيلينا. الصدمة عصيّةٌ على التجاوز، كلّ ما هنالك أنّ المرء يَألف العيش معها. - قاطعها العجوز.

- وأنا أيضاً لا أستطيع إبلاغها بالخبر الآن يا صامويل، بعد أن بدأت تعيش حياةً طبيعيّةً أخيراً. لقد منحتها أنت وليتيسيا أسرة، والآن صارت أنيتا تنعم بالموّدة الغامرة، وقریباً تلتحق بالمدرسة، وتحظى بالأصدقاء... فكيف أبلغها بموت أمّها؟

- إذا وافقتماني الرأي، فدعونا نرّ ماذا يحدث في أمر طلب اللجوء أولاً. كلّ شيءٍ قد تغيّر الآن بعدما حصلنا على ما يثبت أن أنيتا يتيمة. - اقترح فرانك.

- وفي تلك الأثناء، سوف نعدّها أنا وليتيسيا معنويًا لتلقّي الخبر.
الحقّ أنّني لا أدري كيف أفعل ذلك. ولكنّنا سوف نحاول. - قال
صامويل، الذي بدأ يستردّ لون بشرته الطبيعيّ تقع الشؤون القانونيّة على
عاتقكما. أمّا البقيّة فمسؤوليّتي أنا وليتيسيا. سوف تبقى أنيتا معنا في
أمان.

مكتبة
t.me/soramnqraa

خاتمة

بيركلي، يناير 2022

بعد مضيِّ عامٍ وأربعة أشهر.

ذات سبت، وبينما كان صامويل وأنيتا يعزفان سوناتا على البيانو، وصلت سيلينا وفرانك إلى «البيت المسحور» كما هو دأبهما في أوقاتٍ كثيرة. لم تنتهِ الجائحة بعد، ولكنَّ الحياة قد عادت إلى مسارها الطبيعيِّ بعض الشيء، وصارت الزيارات ممكنة، لأنَّ أغلب الناس قد تلقَّوا التطعيم. عاشت سيلينا في سان فرانسيسكو، حيث التحقَّت بالدراسة في كليَّة هاستينغز للقانون. كما أنَّها قد تبنَّت صامويل وليتيسيا وأنيتا وضمتهم إلى أفراد العائلة. بينما وجد فيها صامويل الابنة المُحبَّة التي لم يجدها في كاميل يومًا. لم يتمكَّن من الذهاب لرؤيتهما في بيركلي، على نحو ما اقترحا عليه في أكثر من مناسبة، لأنَّها تبعد عن الجامعة كثيرًا.

أما الصلة التي نشأت بين سيلينا وفرانك، فلقد ثبت أنها أعمق مما تخيل أيُّ منهما. وعلى الرغم من ذلك، فلقد أصرّت على التمسك باستقلالها. لم تسكن في شقة فرانك الفسيحة، بل إنها استأجرت حجرة في حيّ للطلاب. عرفت أنه قد يكون مهيمنًا غيورًا شأن ميلوش، ولكن بطريقة أكثر خفاء. «أعمل في الوقت الحالي على تدريبك. وسوف يستغرق ذلك أمدًا طويلًا، لأنّ ما زال أمامك الكثير لتتعلمه»، تعودّت أن تقول له، فيقابل كلامها بالضحك، وإن أدرك في قرارة نفسه أنها ليست مزحة. وبالصراحة نفسها، رفضت سيلينا اقتراحه بافتتاح مكتب محاماة بالشراكة فيما بينهما مستقبلاً. «لا يلائمني ذلك يا فرانك، وإلا انتهت بي الحال وأنا أحمل العمل كاملاً على عاتقي بينما تنال أنت التقدير كله». أصبح يوم السبت هو المناسبة الأسبوعية لتناول شاي المساء مع صامويل. كما صارت لديهم أشياء كثيرة جديرة بالاحتفال، مثل: الحق في اللجوء الذي حصلت عليه آنيثا بفضل جهود فرانك. والجراحة أيضًا.

كانت ليتيسيا في المطبخ، حيث مضت تعدّ الشاي بما يلائم ذائقة مُستخدمها، صاحب الآراء الجامدة التي لا تبدّل بشأن طقوس الشاي في الخامسة مساءً. أدمن صامويل الشاي في إنجلترا، ولكنه لم يتعافَ من ذلك الإدمان بعد خمسين عامًا وتيف أمضاها في الولايات المتحدة. تراصت تشكيلة من الشطائر والكعك، في برج من ثلاث صوانٍ، واحدة فوق أخرى. بينما قدّم الكعك المحشو بالكريم الطازج والمربى في صينية أخرى. أمّا أكياس الشاي، التي أطلق عليها صامويل «واقيات الشاي»، فلقد مُنعت منعًا باتًا. قدّم الشاي في فناجين بورسلين ليموج التي ورثتها نادين عن عائلتها، والأباريق الفضيّة التي أنقذتها سيلينا من العلّة. كان تلميع تلك الأباريق عملًا شاقًا، ولكن آنيثا تساعدها في تلك المهمة التي لا تستلزم بصيرًا حادًا.

استغلّوا الوقت لمشاهدة المسلسل باللغة الإسبانيّة مع آنيّا، لأنّ ليتيسيا تتمسّك بضرورة أن تحافظ الطفلة على لغتها الأمّ، وإلّا فكيف تتواصل هي وتيتا إدو؟

في ذلك السبت، يلتقيها فرانك وسيلينا لأوّل مرّة بعد عمليّة زراعة القرنيّة. أُزيلت الضمادات التي ظلّت على عينيّ آنيّا ثلاثة أيّام. قال الطبيب إنّ العمليّة قد نجحت، وتمنّى ألاّ يرفض جسدها القرنيّة. لطالما رأيا آنيّا بالسروال أو السروال القصير، ولكن في تلك المرّة استقبلتهما بثوبٍ احتفاليٍّ صنعته ليتيسيا من أجلها.

- يجب عليّ أن أستخدم النظّارة، ولا يمكنني أن أفرك عينيّ. في سبتمبر ألتحقُ بالمدرسة. ولكنّها ليست مدرسة للمكفوفين. - قالت لهما آنيّا.

- سوف تلتحق بالصفّ الرابع، بما يلائم عمرها. مع أنّ لديّها من التأهيل الأكاديميّ ما يسمح لها بالالتحاق بالصفّ الخامس. - أردف صامويل.

- الآن صرْتُ أرى الأشياء ضبابيّة، ولكنّي سوف أرى بوضوح لاحقًا. - قالت الطفلة ثم ذهبت إلى المطبخ لمساعدة ليتيسيا، وفي أثرها الكلب الذي يتبعها عن قرب.

لم يتمكّن صامويل أو ليتيسيا من البوح لآنيّا بمصير أمّها، فكلّما حاول أحدهما ذلك، خذلته الكلمات. استعانا بطبيبة نفس بدأت تذهب إلى البيت مرّتين أسبوعيّا. تخصّصت تلك الطبيبة في الأطفال المُصابين بالصدمة، وكانت تجيد الإسبانيّة، لأنّها قد هاجرت من المكسيك وهي في مقتبل العمر. أدركت الطبيبة تعذّر استخدام زوم في حالة آنيّا، التي أبّت أن تتحدّث إليها في أوّل الأمر. وكانّها خمّنت

أَنَّ تلك الطيبة تحمل إليها رسائل مشؤومة. ولكنها اطمأنت إليها بعد ثلاث جلسات أو أربع. خطرت لطيفة النفس فكرة إحضار الجدة من السلفادور، حتى تساعدهم على البوح إليها بالحقيقة.

حصل فرانك على تأشيرة سفر للجدة إدوبيخيس في أقل من أربع وعشرين ساعة بفضل صديقه فيل دورتي، فسافرت الجدة لأول مرة في حياتها. وجاءت بثلاث حقائب هائلة مَحْمَلَة بالهدايا: القهوة، وحلوى التمر الهندي، والأجبان. بل إنها قد أحضرت علبة من الدجاج المقلي اشتريتها في المطار قبل أن تركب الطائرة. كما أرسلت إليهما لولا قارورة من التشابارو - ذلك الشراب الروحي التقليدي الذي يُصنع من الذرة والسكر - هربت بها إدوبيخيس إلى ما وراء الحدود. نزلت تيتا إدو في إحدى الحجرات القديمة لبائعات الهوى، أعدتها ليتيسيا بعناية. أمضت الجدة أسبوعاً كاملاً في تدليل حفيدتها قبل أن تفضي إليها بخبر أمها المروع رويداً رويداً.

ظهر على آيتا أنها تتقبل مأساتها في ثبات حتى عادت تيتا إدو إلى السلفادور. كبحت دموعها بجهدٍ خارقٍ حتى ترجع جذتها بسلام. ثم تركت لنفسها العنان. مرّت آيتا بوقتٍ شديد القسوة، تعاقبت فيه نوبات البكاء ونوبات الغضب. مضت تلقي الصحون والأكواب أرضاً، وتتوارى عن الأنظار لساعاتٍ تقضيها وحيدةً مع الكلب. ومرةً أخرى، عادت تبلّل الفراش. ولكن بالعلاج النفسي ورفقة پاكو الدائمة والعناية المفعمة بالصبر التي شملها بها كلٌّ من صامويل وليتيسيا، تجاوزت آيتا مراحل الحزن الطبيعيّة. تعلّقت بليتيسيا، وصارت تتبعها في أرجاء البيت وتخلد إلى النوم ممسكةً بيدها، واضعةً دميتهما يدي على الوسادة. اضطرت المرأة إلى تحمّل پاكو الذي صار يرقد إلى جوارهما على السرير، لأنها تعبّت من فرط ما أمرته بالنزول إلى الأرض. إذ كان الكلب يترقّب حيناً. ولكنه ما إن ينتبه إلى زوال الخطر حتى يصعد إلى الفراش من ناحية آيتا

خلسة، ويتكوّر إلى جوارها. على مدى الأشهر التالية، تباعدت نوبات البكاء التي كانت تستحوذ على الطفلة شيئاً فشيئاً، حتى انقطعت تماماً.

وفي إحدى الأمسيات، خلال تلك الحقبة الأليمة، أعلن صامويل لأنيتا وليتيسيا أنّ لديه خبراً مهماً. استدعاهما إلى محرابه المقدّس، قاعة الموسيقى، حيث جلسوا في حلقة ضيقة، وقد استلقى پاكو عند أقدامهم على الضوء الناعم المنبعث من المصابيح الزجاجيّة الملوّنة من طراز تيفاني، محاطين بالآلات الموسيقيّة البديعة التي كان يجمعها. لم تكن من عادة صامويل أن يتحدث عن نفسه، وهو الرجل الحريص على الخصوصية. بل إنّهُ لم يشاطر أحداً أفكاره وذكرياته الأشدّ حميميّةً سوى معشوقته نادين. ولكنّه قد لمس آلام أنيتا طوال عدّة أسابيع، حتى أحسّ بتلك الآلام وكأنّها تنهش نفسه. وهكذا اجتاحت دموعُ الطفلة حصنَ الكتمان الأسطوريّ. في مساء ذلك اليوم، بدأ صامويل يتكلّم في تردّد، ولكن سرعان ما تهدّم ذلك السدّ الذي يكتُم آلامه الأشدّ إيغالاً في القدم، وانهمر سيلٌ جارفٌ من كلّ الأشياء التي سكت عنها زمناً طويلاً. انطلق يحكي للمرأة والصغيرة عن الطفولة الصادمة التي عاشها، وفقدان العائلة، والنفي إلى مكانٍ غريبٍ عدوانيٍّ، وعن العيش يتيمًا منعزلاً مذعوراً طوال الوقت، حتى ظهر لوك وليديا إيفانز في حياته وقدّما إليه الحبّ والسلوان. انتهت به الحال وقد غصّ بالبكاء، كما بكّت أنيتا وليتيسيا أيضاً. وأخيراً فتح صامويل حقيبة الكمان، والتقط منها نوط الشجاعة، ثم وضعه في يد أنيتا.

- ما هذا؟ - سألت الطفلة وهي تتحنّسه بأصابعها المرهفة.

- إنّهُ نوطٌ سحريّ. كان لبطلٍ من أبطال الحرب، الكولونيل تيوبالد فولكر. لقد أعارني إيّاه. ولكنّه مات منذ أمدٍ بعيد، ولم أجد فرصةً حتى أردهُ إليه. أحتفظ به منذ الخامسة من العمر.

- وما الذي يجعله سحريًا؟

- لو ضممتَ بيدَيك، لأمدك بالشجاعة. لطالما أعطاني نتائج جيّدة. والآن صار لك أنتِ يا أنيتا. يمكنك أن تضمّي بيدك كلّما احتجتِ إلى ذلك، لأنّ طاقته لا تنفَى أبدًا. - قال لها صامويل وهو يثبّت النوط في قميصها.

حدّرتِ الطيبة النفسية صامويل وليتيسيا من الصعوبة الشديدة التي تواجه أنيتا في تجاوز الخوف من الهجران، مع أنّها بدأت تسلّم بما جرى وتقبل العطف الذي يقدّمانه إليها، لأنّها قد تكبّدت خسائر أشدّ ممّا يُحتمل وهي في عمرٍ هشّ جدًّا. وعلى الرّغم من ذلك، فلقد أبدى صامويل قدرًا أكبر من التفاؤل، لأنّ الطفلة تقضي ساعاتٍ طويلاً جالسةً إلى البيانو، تائهةً في النغمات، وهو خير من يعرف قدرة الموسيقى التي خفّفت مشاعر الغمّ وانعدام الأمان في طفولته، وأسبغت على حياته معنى. والآن صار يتمنّى الشيء نفسه لأنيتا.

ذات يوم دعتِ الطفلة صامويل، بأقصى قدرٍ ممكنٍ من الخلسة، إلى السفر برفقتها إلى أسابار. كان العجوز قد سمع ذلك الاسم وسط مهمّات أنيتا وهي تكلم نفسها. وإن لم يسبق لها يومًا أن جاءت على ذكر ذلك المكان صراحةً في حديثها إلى أحد، حتى ليتيسيا. أدرك أنّها علامةٌ على الثقة المطلقة، وهمّ بالمرور من تلك البوابة الأسطوريّة مُمسِكًا بيدها. وحده صامويل تعرّف بأسابار، نجمة الأرواح. ثم عاد إلى هناك مرّاتٍ كثيرة، لأنّه عرف كيف يكتّم السرّ. وفي المستشفى، قبل التخدير استعدادًا لجراحة العينين، أعطته أنيتا الإذن في البوح بذلك السرّ إلى ليتيسيا وفرانك وسيلينا. ووعدته بأن تأخذهم إلى هناك هم أيضًا.

- لقد أخبرتني ليتيسيا عبّر التليفون أنّ أنيتا لم تُعد تتحدّث إلى كلاوديا. - قالت سيلينا لصامويل، وهم في انتظار الشاي.

- كلاوديا لم تختفِ، بل إنّها قد استقرّت مع أمّها في أسابار الآن. حتى نادين قد دعتها أنيتا إلى هناك. وهكذا نقابل ثلاثتهنّ كلّما ذهبنا إلى أسابار. - أجاب صامويل بنبرة عفويّة.

- ماذا تقول يا صامويل؟ - سأله فرانك، بين قلقي وسخريّة.

- لم أخرّف بعد، فلا تقلقا. - أجاب صامويل باسمًا. لقد ظننتُ أسابار ملاذًا لأنيتا، مكانًا تذهب إليه كلّما احتاجت إلى الهرب من هذا العالم. ولكنّي عرفتُ الآن أنّه أكثر من ذلك. إنّهُ مملكة المخيلة الغامضة، التي لا تُرى بصفاء ما لم تُرّ بالقلب.

شكرٌ وامتنان

أشكرُ چوانا كاستيو، على الصداقة والمساعدة. ووكالة بالسلز الأدبيّة، على المودّة والوفاء. وجينيفر هيرشي، محرّرتي الحكيمة في بالانتاين.

وفرانسيس ريدلي، مترجمتي إلى الإنجليزّيّة، التي أسهمت في النسخة النهائيّة.

وخورخي مانسانثا، كالعادة.

وخوان الليندي، لأنّه قد راجع مسودّاتٍ تُعدّ ولا تُحصى.

وروجر كوكراس، لأنّه يتحمّلني ويحبّني.

ونيكولاس فرياس، لأنّها تعتني بصحّتي الذهنيّة (والصحّة الذهنيّة للمحيطين بي عندما لا أكتب).

ولوري بارا وساره هيلشيم، على عملهما مع اللاجئين والمهاجرين في مؤسّستي.

وأني توسكي لويس، على المعلومات القيّمة التي زوّدني بها عن السلفادور.

وإليزابيث سوبركيسو وجون هاسيت، لأنّ كليهما قد اطلع على مخطوط الرواية بعناية شديدة.

وكيثي كوكراس، على المساعدة التي قدّمتها إليّ فيما يتعلّق بعمى أنيتا.

وكريستوبال باسو، على معارفه بالموسيقى من أجل المكفوفين. وسونيا ناساريو، على تقاريرها بشأن اللاجئين والمهاجرين على الحدود الجنوبيّة للولايات المتّحدة.

وماريا فولتجن وأوليبيا بينيا، من Young Center for Immigrant ولورين داس، وغابرييلا كوراليس، وليليان أپونتي ميراندا، من Florence Immigrant and Refugee Rights Project.

وويندي يونغ، من Kids in Need of Defense (KIND) وسوزان سيپويا وكيللي رينولدز من Olmos & Reynolds Law Group LLP.

ومايكل سميث وأخته مورين، من East Bay Sanctuary Covenant. وساشا شانوف، من Refuge Point.

و Women's Refugee Commission. و جاكوب سوبوروف، على كتابه «مُفترِق».

تبدّل الأزمنة وتتباعد الأمكنة، وتظلّ معاناة ضحايا الحروب والأزمات الإنسانية واحدة: فهذا صامويل يغادر النمسا هرباً من قبضة النازية قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية؛ وهذه ليتيسيا تعبر النهر مُتَشَبِّهَةً بعنق أبيها هرباً من الحوادث المروعة التي طالت قريتها الصغيرة في السلفادور؛ وهذه آنيता تسافر مُمَسِّكَةً بيد أمها هرباً من العنف والملاحقة، وتجتاز حدود الولايات المتحدة المُقفلة في وجوه اللاجئين... كلٌّ يبحث لنفسه في المنفى عن وطن، وفي الغربة عن بيت. كما تفعل آنيता الصغيرة التي تبتني لنفسها عالماً كاملاً من نسج السحر والخيال، تلوذ به من الفقر والقسوة والألم، وتعيش فيه مع الملائكة والجنيات والأحباء الغائبين.

وفي الخيال، يكمن الصمود وطوق النجاة، مثلما يكمن سحر إيزابيل الليندي التي تنسج الحكايات ببراعتها المعهودة، وتجدها في ضفيرة بديعة مُطعمَةٍ بالمعاني الإنسانية النبيلة.

